تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث

إعداد

دكتور/ أحمد عبدالعزيز عيسى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة دمنهور

دكتور/ فايزة محمد ملوك
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
كلية الآداب - جامعة دمنهور

فهرس الموضوعات

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. والحمد لله على كل حال....

الهدف من دراسة تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث الوقوف على التطورات التاريخية التى مرت بها تلك الشعوب، ومعرفة كيف ظهرت، ونمت، وتطورت، والمطامع الاستعمارية فيها، نظرًا لما تمتعت به تلك الشعوب من مقدرات اقتصادية، واستراتيجية مهمة. يشتمل هذا الكتاب على ستة فصول؛ يتناول الفصل الأول تاريخ الهند من إمبراطورية المغول حتى قيام دولة باكستان ثم الحديث عن مشكلة كشمير. وفى أوله تم التعرض لتطور تاريخ الهند حتى ظهور دولة المغول بداية من الفتح العربى لإقليم السند فى القرن الأول الهجرى، وتتابع الدول هناك مثل الدولة الغزنوية، ثم الغورية، ثم الخلجيين، ثم آل تغلق إلى أن تعرضت البلاد للغزو التيمورى، بعدها ظهرت الأسرة اللودهية الأفغانية، والتى عملت على نشر الإسلام فى ربوع البلاد. ومع ظهور دولة المغول (١٥٢٦- ١٨٥٧) يبدأ تاريخ الهند الحديث. وكان أول حكامها بابر (١٥٢٦- ١٥٣٠) ويعد من عظماء التاريخ الإسلامى عامة، والهند الإسلامية خاصة، وبدأ يعمل على تكوين دولة إسلامية فى الهند، وإن لم يخل الأمر من صعوبات جمة. وبعد وفاته جاء همايون (١٥٣٠- ١٥٥٦) والذى شهدت الهند فى عهده، تطورًا ملحوظًا فى التوسع، والأمور السياسية، والفنون، والعلوم، والأدب. ثم تلاه فى الحكم ابنه أكبر (١٥٥٦- ١٦٠٥) ولما تولى الحكم كانت هناك العديد من الإمارات التى تتطلع إلى التوسع على حسابه، ولكنه شن العديد من الحملات وتمكن على أثرها من التصدى لتلك الهجمات، وهذا الأمر دفعه إلى تطوير قواته الحربية، كما طور الأسلحة، ومنها سلاح المدفعية، وقد تمتع أكبر بصفات لم يتمتع بها سلفه مثل سعة الأفق، وظهر على يده حركة دينية ساهمت فى إعطاء صورة عن فكره، وإن كان يغلب عليها طابع الهرطقة.

ويعالج هذا الفصل أيضًا الاستعمار البريطانى للهند والخطوات التى اتبعتها إنجلترا من أجل السيطرة عليها، خاصة وأن الهند كانت تتبع سياسة التسامح وهو ما ظهر بوضوح فى عهد أورانجزيب وأخذت إنجلترا تتدخل فى البلاد شيئًا فشيئًا إلى أن أسست شركة الهند الشرقية البريطانية. وأصبحت لبريطانيا الكلمة الأولى فى البلاد عن طريق اتباع سياسة تفريق الكلمة، ورفع شأن الهندوس على حساب المسلمين، ولما رأى المسلمون أن نفوذهم أصبح مهددًا رغم وجود حزب المؤتمر الوطنى ظهرت الدعوات إلى قيام دولة باكستان على يد محمد على جناح، والشاعر محمد إقبال وهو ما حدث بالفعل عام ١٩٤٧. ونتيجة كسياسة التغلغل البريطانى ظهرت مشكلة كشمير بين الهند وباكستان، وكان لكل طرق إدعاءات فى السيطرة عليها، ورغم الجهود الدولية التى بذلت إلا أن المشكلة لم تحل إلى الآن.

أما الفصل الثانى فيتناول تاريخ إيران، ويتناول فى أوله تمهيد عن أوضاع إيران إلى أن ظهرت الدولة الصفوية، والتى امتد حكمها من ١٥٠٠ حتى عام ١٧٢٢. وظهور شخصيات ساهمت فى تاريخ إيران من هذه الأسرة مثل الشيخ صفى الدين الأردبيلى الذى أرسى دعائم الدولة الصفوية ثم تابع أبناءه هذا الدور إلى أن ظهرت شخصية الشاه إسماعيل الصفوى (١٤٨٨- ١٥٢٤) والذى شهدت البلاد فى عهده أقصى مراحل قوتها، وقد دخلت فى صراع طويل مع العثمانيين، وكانت أشهر المواقع موقعة جالديران عام ١٥١٤، واستمر يسيطر على الأمور إلى أن تولى ابنه الشاه طهماسب (١٥٢٤- ١٥٧٦) وكان صغير السن فتم تعيين وصى عليه، ولما كبر سنه، أخذ يواجه العديد من المشكلات منها مشكلة الأوزبك، إلا أن علاقاته مع العثمانيين تميزت بالهدوء. ولما توفى طهماسب خلفه الشاه عباس الكبير (١٥٨٧- ١٦٢٩) والذى دخل فى صراع مع الأوزبك، ومع العثمانيين، وإن كان فى نزاعه مع الأخيرين كان يتخلل ذلك معاهدات صلح، كما شهد عهد عباس الاستعانة بالقوى الخارجية لمواجهة العثمانيين، إلى أن تمكن من القضاء على نفوذهم فى فارس، كما سيطر على العراق، ولكن العثمانيين استردوها عام ١٦٣٨ فى عهد السلطان مراد الرابع.

كما يعالج هذا الفصل أيضًا أوضاع إيران من (١٩٢٥- ١٩٧٩) وهى الفترة التى شهدت حكم اثنين هما رضا بهلوى وابنه محمد، وشهدت إيران فى عهدهما أحداثًا سياسية، واقتصادية، واجتماعية خطيرة، أسفرت فى نهاية الأمر عن قيام ثورة إيران عام ١٩٧٩ على يد الخومينى، والتى أطاحت بحكم الشاه، وأصبح يطلق عليها الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

والفصل الثالث يتناول أحوال المسلمين فى الفلبين وماليزيا، وبالنسبة للفلبين تم الحديث عن الإسلام فيها منذ دخوله وانتشاره، وأوضاع المسلمين إلى أن جاء الاستعمار الأسبانى، والجهود التى بذلها المسلمون لمقاومة ذلك الاستعمار، والتى ظهر فيها مدى بسالة المسلمين فى دفاعهم عن دينهم، وكيانهم، إلى أن تم عقد المعاهدات بين المسلمين والأسبان نتيجة عجز الأسبان عن كبت قوى المسلمين، وهزيمتهم منها الاتفاقية التى عقدت عام ١٧٢٥ التى بمقتضاها أصبحت التجارة حرة بين المسلمين والأسبان، ويتعهد المسلمون بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين، علاوة على الاتفاق الذى عقد سنة ١٧٣٧، وكذلك سنوات ١٧٤٦، ١٨٠٥، ١٨٣٦، ١٨٥١، ١٨٧٨، وبمرور الوقت وطد الأسبان وجودهم فى الفلبين، ثم يتطرق الحديث بعد ذلك إلى أطماع إنجلترا فى الفلبين، ثم إلى موقف الأمريكيين من المسلمين فيها بعد انتصار أمريكا على الأسبان ،أما عن ماليزيا فتم التعرض لدخول الإسلام فى القرن الثالث عشر الميلادى، ثم يتطرق الحديث بعد ذلك عن الاستعمار الأوروبى فى ماليزيا، والمتمثل فى أسبانيا وهولندا، وبريطانيا، وظهر من خلال ذلك مدى المطامع الغربية فيها، إلى أن استقلت عام ١٩٦٣.

ويتناول الفصل الرابع المسلمون فى الشيشان حيث تم التعرض فى بدايته للمسلمين فى الشيشان قبل العصر الحديث، ثم بعد ذلك التوسع الروسى فى القوقاز، والشيشان، والسياسة الروسية ضد المسلمين، ثم وضع الشيشان فى ظل الشيوعية والتى عملت على تفتيت شمال القوقاز وتشريد الشيشان ونفيهم، علاوة على طمس معالم الأمة الشيشانية، والتى لاقى فيها الشيشانيون متاعب جمة. ثم يتطرق الحديث إلى أوضاع الشيشان منذ استقلالها عام ١٩٩١ من خلال عرض أحوال وضع الشيشان فى عهد جوهر دوداييف وسياسته فى مقاومة التسلط الروسى، ثم العلاقة القانونية بين الشيشان والاتحاد الروسى، وأخيراً حق تقرير المصير لشعب الشيشان.

أما الفصل الخامس فيتعرض للبوسنة والهرسك، ويبدأ بالحديث عن الفتح العثمانى للبوسنة عام ١٤٦٢ فى عهد السلطان محمد الفاتح، وظلت البوسنة مستقرة طالما كانت الدولة العثمانية قوية، ولكن عندما بدأت الدولة فى الضعف، بدأت عمليات الاضطهاد ضد المسلمين، ولعبت روسيا دورًا كبيراً فى ذلك، ولاقى المسلمون صنوفًا عديدة من الاضطهاد والظلم إلى أن عقد مؤتمر برلين ١٨٧٨ والذى جاء فى إحدى بنوده بإعطاء البوسنة والهرسك إلى النمسا لإدارتها، وفى عام ١٩٠٨ ضم الإقليم للنمسا، ثم يتطرق الحديث بعد ذلك عن أوضاع البوسنة من الحرب العالمية الأولى حتى عام ١٩٧٢ وتوزعت البوسنة مرة أخرى تحت السيطرة اليوغسلافية، ثم الاحتلال الألمانى، والإيطالى، ثم دخلت البوسنة فى إطار دولة كرواتيا، وسرعان ما بدأت أعمال الإرهاب ضد المسلمين وقد أبدى المسلمون مقاومة ضد هذه الأعمال الإجرامية، وفى عام ١٩٤٥ تم تشكيل أول حكومة مستقلة للبوسنة والهرسك فى إطار يوغسلافيا الاتحادية، ثم أخذت الأمور تتطور فى البوسنة وفى عام ١٩٩٢ اعترفت المجموعة الاقتصادية الأوروبية بالبوسنة كدولة مستقلة، ولكنها كانت دولة ميتة نتيجة سياسة القمع التى اتبعها الصرب ضد مسلمى البوسنة.

والفصل السادس والأخير يتعرض للنشاط التنصيرى ضد مسلمى الشعوب الإسلامية فى أفريقيا، حيث تم التعرض لماهية التنصير والأساليب المتبعة فيه، ومدى نجاحه، وتم ضرب مثال على ذلك فى الصومال، وكيف أن سياسة التنصير فشلت فيها لتمسك المسلمين بدينهم.

وفى النهاية نرجو من الله سبحانه وتعالى التوفيق والرشاد

والله الموفق

الفصل الأول

تاريخ الهند من إمبراطورية المغول حتى قيام دولة باكستان

أولا: تطور تاريخ الهند حتى ظهور دولة المغول.

ثانيًا: دولة المغول الإسلامية فى الهند (١٥٢٦- ١٨٥٧م).

ثالثًا: الاستعمار البريطانى للهند.

رابعًا: قيام دولة باكستان.

خامسًا: مشكلة كشمير

الفصل الأول

تاريخ الهند من إمبراطورية المغول حتى قيام دولة باكستان

أولاً: تطور تاريخ الهند حتى ظهور دولة المغول

كانت الهند خلال تاريخها القديم مهد حضارة أشعت بنورها على العالم، وكانت الفتوحات الإسلامية التى بلغت مشارف الهند فى عهد الأمويين تمهيدًا لغزوات إسلامية كبرى إلى داخل الهند نفسها، وكانت أولى الحملات الإسلامية للهند بقيادة محمد بن القاسم الذى تمكن من إخضاع إقليم السند تحت الحكم الإسلامى، وقد وفد على السند العديد من القبائل العربية فاستوطنوا هذه البلاد، ثم أصهروا إلى أهلها، كذلك شاركت القبائل العربية فى نشر تعاليم الدين الإسلامى لغة وكتابة بين السنديين، ومن هنا برز العديد من علماء الحديث والأدب واللغة، فقد أصبحت هذه البلاد جزءًا من الدولة الإسلامية تخضع لنظامها، وكان للوجود العربى دور كبير فى إعادة الاتصال الثقافى بين شبه القارة الهندية وبلاد الشرقين الأدنى والأوسط، كما جنى العرب من فتحهم هذا كسبًا عظيمًا للثقافة الإسلامية ذلك أنهم حين قدموا هذه البلاد واختلطوا بأهلها، وجدوا عندهم من فنون المعرفة وألوان الحضارة ما بهرهم مثل الفلسفة والفلك والطب والرياضيات، والفنون[i].

ولم يكن فتح العرب للسند أواخر القرن الهجرى إلا احتلال لولاية واحدة فى أقصى الغرب، لا هى بالواسعة ولا تتمتع بموارد غنية، ولا أرض خصبة، وبدأ الفتح الإسلامى لهذه البلاد فى أوسع مداه، حين شرع الغزنويين والغوريين يطرقون أبواب شبه القارة الهندية، وهما دولتان تركيتان[ii]، وتعد فتوح الغزنويين الهندية بداية فتح المسلمين الحقيقى بشبه القارة الهندية، ذلك الفتح سرعان ما انتهى بالفاتحين إلى اتخاذهم من هذه البلاد مقامًا دائمًا لهم ومؤسس الدولة الغزنوية هو سبكتكين، الذى اتصف بالطموح وقوة العزيمة فتمكن من توحيد صفوف الأتراك والأفغان فى إمارته وسيرهم لفتح لمغان وسيستان وخراسان ثم اندفع بعدها عبر مسالك الهند كوش الوعرة لغزو بلاد الهنادكة، وهذه المحاولات هى التى مهدت سبيل الفتوح أمام جيوش المسلمين فيما بعد[iii].

وبعد وفاة سبكتكين عام ٩٩٧م خلفه ابنه محمود الذى ورث ملك السامانيين كله فى خراسان وبلاد ما وراء النهر، كما قضى على سلطان البويهيين فى الرى، وهزم السلاجقة والقراخانيين، وتوغل فى بلاد فارس، وملك إقليم قزوين كما فتح بلاد الغور فى الهند كوش، فيما بين غزنة وهراة، ونشر الإسلام بين أهلها، وهكذا امتد سلطان محمود وذاع صيته فى أنحاء بلاد المسلمين، وما لبث بعدها أن ولى وجهة شطر الهندستان فغزاها فى عام ١٠٠٠م سبعة عشر غزوة على مدار سبعة وعشرين عامًا حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس إلى غزنة ومن الهملايا إلى الدكن، وفى عام ١٠٣٠م، توفى محمود وتوالى على حكم الهند أبناؤه وأحفاده إلى أن انتهت الأسرة الغزنوية عام ١١٥٢م[iv].

وقد ورثت الدولة الغورية الدولة الغزنوية، وظلت قائمة حتى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى، ثم تلاهم المماليك (١٢٠٦- ١٢٩٠م)، ثم الأمراء الخلجيين (١٢٩٠- ١٣٢٠) ثم دولة آل تغلق (١٣٢١- ١٤١٢) وفى عهد محمود تغلق أخر سلاطين هذه الأسرة، وقعت غزوة تيمورلنك للهند، ولم تلبث دهلى أن سقطت فى يد أحد القواد التيموريين فى عام ١٤١٤م، وكان الغزو التيمورى هو سبب تفكك الدولة الإسلامية فى الهند، وظهرت العديد من الإمارات الإسلامية المتفاوتة القوة مثل جنبور، البنغال، كجرات، مالوه، خاندش، بهمنى، أوريسا، فيايانكر، موار[v].

هكذا كانت الهند مفككة إلى عدة دول متحاربة، ولكن التفوق الإسلامى كان حاسمًا فى الشمال ووسط الهند، وأن الهندوكية ترتكز على معاقلها العسكرية والسياسية فى الجنوب، ويمكن القول أن مطلع القرن الخامس كان يشير إلى حاجة المناطق الوسطى والشمالية إلى حكومة قوية تستطيع أن توقف الصراعات المحلية، ويتبلور الموقف فى الشمال ليصبح فيه دولة لودهية أفغانية وأخرى كجراتية وفى الشمال الغربى[vi].

أما الأسرة اللودهية فى سلطنة دهلى (١٤٤٥- ١٥٢٥) فهى أفغانية الأصل، ومن أشهر حكامها اسكندر شاه(١٤٨٨- ١٥١٧) وكان عالمًا فاضلاً محبًا للعلم والعلماء، وتحسنت الأحوال الاقتصادية، كما عمل على نشر الإسلام فى ربوع البلاد[vii].

ثانيًا: دولة المغول الإسلامية فى الهند (١٥٢٦- ١٨٥٧)

لا يكاد إنسان يسمع كلمة مغول حتى تقفز إلى ذهنه صورة من المعارك الدموية، التى كانت تنتهى بأهرامات تبنى من جماجم القتلى، ويتذكر المرء صورة الخراب والدمار الذى أصاب بغداد على يد المغول، وما يترتب عن ذلك من أن تصبح هذه العاصمة الإسلامية مجرد مدينة تحت حكم وثنى غاشم، وهناك من يقول أن تفوق المغول يرجع إلى تفوقهم العددى المهول الذى كان يكتسح أمامه قوى المقاومة كبيرها وصغيرها والذى كان يؤدى إلى اهتزاز أعصابها نتيجة الدعايات المروعة التى كانت تسبق الجيوش المغولية، ولا شك أن هذه الدعايات كانت تقوم على حقائق ثابتة وأن ما أقدم عليه المغول من مذابح جماعية، ومن إفناء سكان مدن بأجمعها كان كفيلاً بأن يثير الرعب فى نفوس أعدائهم، ولكن ليس هذا هو فقط أسباب انتصاراتهم. فهناك عامل التفكك الذى ألم بالعالم الإسلامى[viii]، وقد حكم الهند فى عهد دولة المغول أباطرة عظام ساهموا فى الرقى الحضارى للهند، وكان أولهم بابر أو ببر وهو يعنى النمر، أما اسمه الحقيقى فهو ظهير الدين محمد بن عمر شيخ ميرزا، وهو ينحدر من ناحية الأب من سلالة تيمورلنك وكذلك من سلالة الفاتح المغولى الشهير جنكيزخان.

١- بابر (١٥٢٦ – ١٥٣٠)

يعتبر بابر (١٥٢٦ – ١٥٣٠) من عظماء التاريخ الإسلامى بصفة عامة وتاريخ الهند بصفة خاصة، فهو مؤسس دولة المغول فى الهند، ولد عام ١٤٨٣، توفى أبوه وهو صغير ليصبح على عرش فرغانه مهيض الجناح بين عدد كبير من الطامعين فى عرشه، وكان اثنين من أعمامه مستعدين لأن يخوضا المعارك الدموية من أجل السيطرة على فرغانة، وقد عانى مر العناء من عميه، ولم يخلصه منهما سوى أنهما توفيا الواحد بعد الآخر. واستطاع بابر بعد ذلك أن يستولى على سمرقند عاصمة وسط آسيا، وحاضرة التيموريين، وقد دار صراع بينه وبين شيبانى خان الأوزبك حولها، فما كان من بابر إلا أن ترك سمرقند وبلاد ما وراء النهر بعد أن تعرضت حياته للخطر، وكاد أن يقتل[ix].

بدأ بابر من جديد تكوين ملك وراء جبال هندكوش ويعتبر عام ١٥٠٤ عامًا سعيدًا فى حياته، ففيه تمكن من هزيمة الأفغان والاستيلاء على مدينة كابل، وبذلك فتح له الطريق للاستيلاء على مدن أفغانستان الكبيرة الأخرى قندهار وهرات وبدخشان وأصبحت هذه البلاد بالنسبة له بمثابة قاعدة أكثر ثباتًا وقوة يستطيع أن يعتمد عليها فى صد القوى المحيطة به، والتطلع إلى التوسع فى اتجاه الهند على أساس أنه هو وريثها إذ كانت من قبل للتيموريين فقام بحملات لداخل الهند، وتمكن من أن يضع يده على بعض الأقاليم وخاصة بهيرة عام ١٥١٩[x] ولما عبر جيماب وجهلم أقبل عليه زعماء القبائل يعرضون ولائهم وبذلك خضع له شمال السند، بعدها ارتد إلى كابل ويرجع السبب فى انصراف بابر عما وراء النهر إلى أن إسماعيل الصفوى أنزل بأهل السنة مذابح راح ضحيتها عدد كبير، فهبت قبائل الأوزبك وقررت عدم السماح للفرس وجندهم بدخول البلاد، ولما كان بابر حليف إسماعيل الصفوى فقد وقفوا منه موقف العداء فتبين له أنه لا سبيل له إلا قهرهم وقد اشتد ساعد الأوزبك فيما وراء النهر وسيطروا عليها كلها، ولكنهم وقفوا وحدهم أمام الزحف الروسى الذى أخضعهم، وما كان الأوزبك بقادرين على الوقوف أمام الروس مما أدى إلى ضياع بلاد ما وراء النهر وانفصالها عن العالم الإسلامى ووقوعها تحت سلطان الروس[xi].

كانت الهند – تحت حكم أسرة اللودهى – فى اضطراب شديد فى أوائل القرن السادس عشر، وتقوى الهندوكيون وكونوا جبهة قوية ضد الدولة اللودهية، وكان بابر على دراية بما كان يحدث فى الهند، ويدرك أن دولة اللودهى تحتضر، وأن قوة الراجبوت الهندوكيين تتعاظم وقد تتمكن من أن تفرض نفسها على الحكام المسلمين وكان الأمراء الأفغان فى الدولة اللودهية قد فقدوا الثقة فى سلطانهم وشعروا أنه لابد من زعيم قوى يعتمدون عليه ضد السلطان اللودهى وكان بابر مستعدًا لأن يضع يده فى أيديهم، تحرك بابر على رأس جيشه صوب الهند واستولى على لاهور فى عام ١٥٢٤م، وخاض ضد الشاه اللودهى معركة كبيرة فى بانى بت عام ١٥٢٤، حصدت خلالها مدفعية جيش بابر ورماة بنادقة جنود الجيش اللودهى الذى مُنى بهزيمة ساحقة قضت على الدولة اللودهية، وجلس بابر على العرش فى اكرا عام ١٥٢٦، ثم خطب له على منبر دهلى ثم دخلت فى طاعته إمارات الهند الإسلامية الأربع وهى الكجرات، والبنغال، وبهمنى، وملوة، بعدها أغدق بابر الأموال والهبات[xii].

استطاع بابر أن يوحد معظم شمال الهند تحت سيطرته ولكن كان عليه متابعة الحرب ضد القوى الأخرى فى الهند الكارهة له العاقدة العزم على كسر شوكته، وهذه القوى كانت هندوكية وكذلك إسلامية.

ولما قرر الأمراء الراجبوت (الهندوكيين) جمع صفوفهم ضد هذا الغازى الكبير، قرر بابر أن يترك أمر الأفغان مؤقتًا ليركز جهوده ضد الراجبوت وزعيمهم "رانا سنكا" الذى كان يسيطر على معظم الوسط والجنوب، وأصبحت المعركة المقبلة بين أكبر قوتين فى الهند، كل منهما يدعى أنه صاحب البلاد، وكانت جبهة الراجبوت قوية وكانوا يعتقدون أن قوة الغازى الجديد ليست بقادرة على أن تفرض نفسها على البلاد كلها، ولكن الراجبوتية كانوا من تراث الماضى يعتمدون على أساليب الحرب والقتال التقليدية بينما كان بابر أوسع أفقًا وأكثر من استخدام الأسلحة النارية(xiii).

ولكى يحطم الراجبوت إدعاء بابر بحقه فى الملك والأرض ظلوا وراء الأمراء الأفغانيين حتى أقنعوهم بالتحالف ضد بابر، وأيدوهم فى أن يتولى السلطة واحد من الأسرة اللودهية، وفعلاً أعلنوا محمود خان سلطانًا على البلاد واستعدوا للحرب، من هنا كان الخطر كبيراً على بابر، والقوات التى فى يده قادرة على الصمود فترة، وليس على حرب طويلة الأمد، ومن ثم كان على بابر أن يخوض معركة يكسر فيها أعداءه كسرة لا قيامه لهم من بعدها، وكان لابد له من أن يرفع معنويات جنده، من هنا لجأ إلى العامل الدينى ليصبح الدافع القوى الذى يحث جنده على القتال دون رهبة من الموت بل رغبة فى إعلاء كلمة الله، وهكذا عبأ بابر جيشه وأعده للمعركة الحاسمة، واستطاع أن يخوضها وهو واثق من صلابة جيشه وقدرته على إحراز النصر على الراجبوت خاصة وأنه كان يدرك أنهم ليسوا عدوًا سهلاً(xiv).

وفى معركة خانواه ١٥٢٧ وهى من أعنف المعارك التى دارت فى القرن السادس عشر انتصر بابر أروع انتصار ولم تقم للراجبوت ولا للأفغانيين قائمة فى الهند لمدة طويلة وبذلك ازدادت مكانة بابر وسط المسلمين فى الهند، وهكذا أصبح لبابر ملك عريض وأخذ يعمل لبناء دولة إسلامية قوية، استمر يحكمها خمس سنوات شهدت البلاد فى عهده طفرة حضارية، فقد جعل من أجرا مدينة جميلة تتخللها المنشآت والبساتين والتى جلب لها أصنافًا من الثمار. والنبات لم تكن معروفة فى الهند من قبل، علاوة على القصور الفخمة والحمامات والصهاريج، كما قام بترميم المساجد، وأنشأ نظامًا بريدياً بين كابل وأجرا، علاوة على أنه كان يتفقد أحوال الرعية بنفسه، فجذب إليه قلوبهم(xv).

وكان نظام الحكم الذى اتبعه بابر هو النظام السائد فى عصره مع إدخال بعض النظم التيمورية، فجعل على كل إقليم نائبين له يقود أحدهما الجند ويراقب جمع الضرائب ويرعى مصالح السكان ويتولى الآخر الإشراف على الإيرادات والمصروفات ويوازن بينهما ويدفع للجند والعمال أجورهم. وكذلك عدم التراخى فى جمع الخراج والمكوس دون الحاق الأذى بالناس، وحض نوابهم على إجراء العدل بين السكان جميعًا دون التفرقة بين المسلم والهندوكى، وقد خلف بابر ثروة أدبية من الشعر والنثر، وقد ترك وصية لابنه وخليفته همايون تدل على سياسته فى الحكم وهى السياسة التى التزمها ابنه همايون، وكانت هذه السياسة تدعو إلى السلام وتجعل التسامح الأساس الأول للحكم المغولى فى الهند، وقد جاء فى هذه الوصية أن الهند مليئة بالعقائد المتباينة ومن الصواب أن تخلو سياسته من التعصب الدينى، وأن يعمل على نشر العدل بين الرعية، وألا يعمل على تخريب الهياكل وأماكن العبادة للطوائف الدينية الأخرى، وأن انتشار الإسلام سيتحقق بسلاح العطف والمحبة خيراً مما يتحقق بسلاح الضغط والاضطهاد، وعليه أيضًا أن يتجاهل النزاع والتخاصم بين السنة والشيعة، لأن هذا أساس ضعف الإسلام(xvi).

٢- همايون (١٥٣٠- ١٥٥٦)

خلف همايون أباه على العرش وخزانة الدولة خاوية لكثرة ما استنفذته هبات بابر وعطاياه من الأموال، أكثر من استنفذته حروبه وغزواته، كما ترك أمورًا مضطربة عسكريًا من أجناس شتى، أما أمراء البلاد من أفغان وهنادكة فقد كان لا يزال منهم بقية تتربص بالغزاة الجدد لاسترداد ما انتزعوه من أراضيهم، على الرغم من أنه كسر شوكتهم إلا أن المدة القصيرة التى قضاها على عرش الهند لم تتح له القضاء التام على الخارجين عليه فى بلاد مترامية الأطراف(xvii) كما انقض عليه أخواة كمران وعسكر وتمزقت المملكة، وفقد بيهار والبنجاب، وكذلك أفغانستان ليصبح بعد ذلك طريداً فى إقليم السند لا يعرف لنفسه مستقرًا. وخلال هذه الأزمة جاءته الأنباء بأن زوجته قد أنجبت له ولدًا عام ١٥٤٢، فإذا بهمايون الطريد يتحول إلى مقاتل فى أعلى مستويات الصلابة والعنف وقرر أن يقاتل حتى يعيد بناء ملك جديد ليرثه هذا الطفل من بعده. لقد كانت ولادة هذا الطفل والذى سمى جلال الدين محمود واشتهر بأكبر قوة دافعة عظمى لهمايون، ومع هذا خاض حروبًا ومعارك دامية خسرها الواحدة بعد الأخرى، حتى لقد عجز عن أن يجد حصانًا ثانيًا لزوجته لتفر معه من وجه المطاردين فحملها من ورائه تاركًا طفله الصغير أكبر ليقع

أسيراً فى قبضه عمه عسكر، ولكنه كان كريمًا مع ابن أخيه فلم يصبه بسوء، لم يهدأ همايون وأصر أن يتابع الحرب والقتال فأخذ يجمع القليل من القوات من هنا وهناك، وكان مصممًا على الوصول إلى هدفه، وأن يحرر ابنه ويبنى له ملكًا، وبعد جهاد استمر لفترة طويلة استطاع أن يدخل كابل فى ١٥٥٥ وهناك اجتمع وزوجته بعد طول فراق وعناء بابنيهما أكبر الذى كان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره[xviii].

فى نفس الوقت اتيح لشيرشاه، سلطان الهندستان الجديد واستطاع أن يثبت نفوذه فى البنغال ويخضع السند ومالوه كما أنزل ضربات شديدة بالأمراء الهنادكة. ولكنه أصيب فى معركة من الراجبويتين بشظية من قذيفة لم يكتب له النجاة بعدها فقضى أجله بعد قليل عام ١٥٤٥، بعد أن حكم الهند قرابة خمس سنوات وظلت أسرته من بعده تحكم هذه البلاد عشر سنوات، استطاع همايون من بعدها أن ينتزع الملك منهم ثانية بمساعدة طهماسب شاه الفرس الذى أواه فى محنته، وعاد همايون إلى الهند ودخل دلهى ولكن الأجل لم يطل به ليجنى ثمار جهاده الطويل الشاق فتوفى عام ١٥٥٦، وهو فى الحادية والخمسين من عمره[xix].

وقد اشتهر البلاط المغولى من عهد همايون بالجلال والفخامة وعرف بشغفه بالفنون والعلوم والأدب، وترك مكتبة عامرة بالمؤلفات، وصنف همايون سكان مملكته تصنيفًا دقيقًا وأقام نظامًا محكمًا للطبقات وأنشأ القصور لاستقبالهم، وحدد أيامًا خاصة لمقابلة كل طبقة من طبقات الشعب، وكانت الطبقة الأولى هى طبقة أهل السعادة، وتشمل الفقهاء والأتقياء وعلماء الدولة. الطبقة الثانية "أهل الدولة" من سراة القوم فكانت تشمل أقارب السلطان ووزراءه والنبلاء وقواد الجيش والطبقة الثالثة طبقة "أهل المراد" فكانت تشمل الموسيقيين والمغنيين ورواة القصص، وأهل الفن والذوق، وكانت مهمتهم إدخال السرور على نفس السلطان عن طريق الأغانى و الموسيقى. وكان رئيس كل طائفة من هذه الطوائف يمنح سهمًا، ويظهر مما سبق مدى المكانة الرفيعة التى تمتع بها العلماء والشعراء والموسيقيين فى عهد همايون[xx].

٣- أكبر (١٥٥٦ – ١٦٠٥)

خلف همايون ولده أكبر جلال الدين محمد، واختار وزيره بيرم خان مستشارًا له وموجهًا، لأنه كان وصيًا على أكبر والذى كان عمره أربعة عشر عامًا، فقبض على ناصية الحكم وأدار دفته، وكان له دور كبير فى الانتصار الحاسم فى موقعة بانى بت الثانية (١٥٥٦) ضد آل سور فى البنجاب وأورا، كان آل "سور" هم أخطر القوى على أكبر. ولهذا يكون بيرم قد حفظ المملكة والعرش لأكبر. ولكن أكبر لم يلبث أن عزله من منصبه بتأثير المؤامرات التى حيكت ضده ولأن أكبر خشى على نفسه من هذا الوزير القوى الذى له الفضل عليه، ثار بيرم ضد هذا الإجراء ولكنه لم يلبث أن ألقى السلاح وقبل بيرم أن يغادر البلاد وأن يعيش فى المنفى فى مكة المكرمة[xxi].

ولما تولى أكبر المهمة – وكانت شاقة – كانت إلى جواره مجموعة من الأمارات القوية تتطلع إلى التوسع على حسابه، ولهذا شن أكبر سلسلة من الحملات على السند والملتان وكشمير وكجرات، وخاندش وأوريسا وغندوان، والراجبوت، ويلاحظ على تلك الانتصارات ما يلى[xxii]:-

- كانت المعارك ضارية ودموية، خاصة معركة بانى بت الثانية، وفى القتال الذى دار قبل سقوط حصون الهنادكة المنيعة الثلاثة جتور، وكلنجرور، وتنبوبهور.
- معظم سنوات حكمه التى امتدت نصف قرن كانت حروبًا ومعارك ضد أعداءه.
- كانت أسهل الحروب التى خاضها كانت حربه القصيرة ضدأخيه ميرزا حكيم الذى حرضه الثائرون على أكبر، وشجعوه على الاستحواذ على العرش. ولكن أكبر سرعان ما أخضعه وندم ميزرا حكيم على ما أقدم عليه فعفى عنه أكبر وأعاده إلى منصبه.
- لم يواجه أكبر أعداءه متكتلين، وإنما واجه كل إمارة على حده، وكان أكبر يدرك حقيقة الأمور فى الهند من حيث أنه لا احترام فيها إلا للقوة. ولهذا اعتنى بقوته المسلحة خير عناية فكانت لديه أقوى مدفعية فى الهند وكانت السلاح الحاسم فى المعارك – ولهذا درس طرق صناعة المدافع وأدخل تحسينات عليها لتكون سهلة الحركة.
- كان أكبر شخصية قيادية فذة استطاع أن يحتفظ بترابط الجيش حتى فى أدق المواقف. وكان عظيم الثقة فى نفسه وأن النصر حليفه. ولكن ذلك لا يعميه عن اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمواجهة الأعداء.

– كان أكبر يحترم ويقدر عدوه الذى يستبسل فى الدفاع عن نفسه وماله حتى أنه بنى تماثيل لعدد من القواد الذين قاتلوه.

– كان أكبر لا يعامل البلاد التى ينتصر عليها على اعتبار أنها بلاد مفتوحة يعرضها للنهب والإذلال، وإنما كان يحترم حكامها السابقين، فكان يقرب إليه بصفة خاصة الأمراء الهنادكة، لقد كان عازمًا على أن يعيش فى الهند وللهند. ولهذا أشرك بعض الأمراء الهنادكة معه فى توجيه أمور البلاد، ثم إن أكبر صاهرهم بما فى هذه من معانى التعاطف الأسرى والسياسى.

– قيمة انتصارات وفتوحات أكبر من أنها أقامت إمبراطورية واضحة المعالم مستقرة الجوانب. أما فتوحات وانتصارات أسلافه فكانت محاولات لإنشاء إمبراطورية.

ولم يطل العمر بأكبر حتى يتم فتح جنوب شبه القارة الهندية بأكملها بعد أن شرع فيه. ورغم أن أكبر كان ينحدر من أسرة امتازت بالثقافة المتوارثة فقد أدى اضطراب حياة أبيه إلى حرمانه فى قدر وافر من التعليم فى الصغر فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة. ومع ذلك فقد فاضت حياته الطويلة بالنشاط العقلى فتعلم عن طريق التلقين مكتفيًا بالإصغاء والتأمل، وكانت ذاكرته القوية تستوعب كل ما كان يقرأ فى حضرته من الكتب القيِّمة التى جاوز عددها فى مكتبته الخاصة أربعة وعشرين ألفًا، وبعد ذلك اتخذ خطوة أخرى أشد جرأة فبدأ يفكر فى وسيلة تمكنه من توحيد المجتمعين الإسلامى والهندى ليقلل الخلاف بين رعاياه ليصبحوا أكثر توائمًا وانسجامًا. وهكذا أراد أكبر أن يوحد الهندوكيين والترك والفرس والمسلمين البراهمة والزرداشتيين فى بوتقة واحدة، لقد كانت اللغة الفارسية هى لغة الأدب والمثقفين فى الهند وكانت اللغة التركية هى لغة الجيش المغولى الذى كان يضم أعدادًا كبيرة من الأتراك فى العهد المغولى الأول، ثم أصبح يضم تركًا وهنودًا مسلمين وغير مسلمين. فقد اختلطت اللغة الفارسية بالتركية والهندية ونتج عن هذا الخليط لغة جديدة عرفت باللغة الأوردية[xxiiii].

بعد ذلك اتجه إلى دراسة الكتب السماوية القرآن الكريم والإنجيل. ولكنه وجد أن الأفضل هو أن يجمع صاحب كل مذهب أو دين فى مكان واحد ليتجادلوا فى أمور الدين وليدافع كل واحد عن معتقده لعله يصل إلى الطريق الصحيح إلى الله ولهذا بنى (عبادة خانه) عام ١٥٧٤ لتكون مقرًا لتلك الندوات الدينية، دعا أكبر إلى (عبادة خانة) فقهاء الدين الإسلامى من سنة وشيعة ورجال الدين البراهمة وكهنة زرادشت، وكذلك دعا ثلاثة من المبشرين البرتغاليين الجزويت ليشاركوا فى تلك الندوات، وأوقع أكبر الفقهاء والعلماء والكهنة والمبشرين فى ميدان الجدل والنقاش، وذلك الجدل كان أكبر يبتعد عن جميع تلك المعتقدات رويدًا رويدًا، وأخذ يكون المذهب الألهى أو الدين الإلهى[xxiv] والذى تلخصت أصوله فى: توحيد الله، وتقوم طقوسه على أسس من الصوفية الممتدة من الديانتين الهندوكية والزرادشتية، وفرض على أتباع هذا الدين أن يؤمنوا بوحدانية الله، وبأن أكبر خليفته على الأرض، وأن يقدموا لجلالته أربعة أشياء الثروة والحياة والشرف والدين، وفرض عليهم أيضًا أن يمتنعوا عن أكل اللحوم بجميع أصنافها، وأن يسجدوا للإمبراطور، ومن طقوس هذا الدين الجديد تقديس الشمس والنار، وحدد يوم الأحد ليكون يوم الاحتفال بدخول الناس فى الدين الجديد، وكما وضع الدين الإلهى تحية جديدة تحل محل تحية الإسلام" السلام عليكم" وجعل التحية الجديدة "الله أكبر" وردها "جل جلاله"، كما أصدر أكبر عدة تشريعات وتنظيمات تمنع ممارسة بعض التقاليد المتضاربة مع الإنسانية بصفة عامة، ومع مذهبة بصفة خاصة، منها[xxv].

١ – منع أكبر الساتى منعًا باتًا، والساتى هو أن تنتحر الأرملة التى لا أطفال لها فى أعقاب وفاة زوجها.

٢ – أحل أكبر زواج الهندوكيات الأرامل، وكان هذا محرمًا وفق العقائد البرهمية، ووضع شروطًا للزواج، فلا يتزوج العجائز من هم فى سن أبنائهم أو بناتهم، ومنع زواج الفتى أو الفتاة إلا بعد اكتمال الصفات الجسمية والعقلية والفطرية حتى لا يصاب الزوجان بأزمات نفسية خطيرة، وحتى لا يخرج إلى الدنيا أطفال مشوهون نتيجة الزيجات المبكرة. ودعا أكبر الناس إلى التزواج من أسرات لا يتصلون بها بصلة القرابة، لأن زواج الأقرباء يضعف النسل، بالإضافة إلى أن التزاوج من خارج الأسرة يعين على تحطيم العصبية القبلية ويزيد من سرعة وسهولة التفاهم بين مختلف أنحاء البلاد. وفى نفس الوقت منع تعدد الزوجات، فى الوقت الذى أباح فيه الدين الإسلامى تعدد الزوجات ولكن بشروط.

٣– فرض أكبر عقوبات صارمة على مثيرى الشغب والشجار، كما منع تعاطى الشراب وتداوله، وأمر بمعاقبة شارب الخمر وبائعها ومشربها وصانعها.

٤ – كما منع أكبر استرقاق أسرى الحرب، كما أعفى الهنادكة من ضريبة الرؤوس حتى يشعروا بالمساواة مع المسلمين.

على أية حال فهذه التشريعات كانت فى الواقع إصلاحات اجتماعية أكثر من كونها دعايات دينية أو مذهبية، وإن كان فريق من الناس قد التف حول هذا المذهب الجديد جلبًا للنفع وطمعًا فى اكتساب الحظوة فى الغالب، فإن الفشل التام قد أصاب أكبر فى مشروعه الذى لم يكن ليقوى أبدًا على هدم التقاليد الموروثة، فتمسكت الغالبية العظمى بعقائدها ومذاهبها، وقد لقيت حركة أكبر معارضة شديدة فى مسلمى الهند، لأنها خرجت فى مبادئها عن مبادئ الدين الإسلامى. ولكن أكبر ابتلى فى أواخر أيامه بكوارث عائلية حطمت من قوته النفسية منها أنه فقد ولديه مراد، ودانيل بسبب إدمانهما للشراب، وعصاه ابنه الأكبر سليم الذى لقب فيما بعد باسم نورالدين محمد جهانجير، وفى عام ١٦٠٥ اشتد عليه مرض الدوسنتاريا وعجز الأطباء عن علاجه، فتوفى فى هذا العام[xxvi] وخلفه ابنه سليم الملقب بجهان جير (١٦٠٥ – ١٦٢٧)، والذى تخلى على سياسة والده، وقرب إليه السنة، وجعل اللغة الفارسية لغة رسمية للدولة، وفى بداية عهده أنشأ الإنجليز أول محطة تجارية فى سورات[xxvii]، أما شاه جهان (١٦٢٧- ١٦٥٧) فلم يضف إلى الهند الإسلامية شيئًا جديدًا، وقد ثارت نواحى الدكن عليه أكثر من مرة، ولكنه استطاع إخماد الثورات والمحافظة على وحدة البلاد، وفى عهده ازداد الخطر البرتغالى فى الهند، فقد كانوا يخطفون الناس ويبيعونهم، وفى ١٦٣٠ أرسل شاه جهان جيشًا طرد البرتغاليين من شواطئ الهند، وأنقذ عشرة آلاف هندى كانوا قد أسُروا، وأعدهم البرتغاليون للبيع، وسقط مركز البرتغاليين فى هوجلى، وأقام ابنه أورانجزيب نائبًا فى الدكن، والذى تولى الحكم فى الهند من عام و(١٦٥٨ – ١٧٠٧) واسمه محى الدين أورانجزيب[xxviii] وكلمة أورانجريب تعنى زينة العرش.

ثالثًا: الاستعمار البريطانى للهند

وفد الانجليز على الهند بعد البرتغاليين، وكان البرتغاليون قد ثبتوا أقدامهم وأنشئوا مصانع لهم فى سورات بالكجرات وعند شاطئ فيجايانكر وجوكنده الشرقية، وقد ذاعت شهرة الهند بالغنى فى أوروبا، واشتهر سلاطينها بالتسامح فسارع الإنجليز إلى الهند بعد البرتغاليين، وقد وصل الإنجليزى وليم هوكنز عام ١٦٠٨، يحمل رسالة من ملك إنجلترا جيمس الأول يطلب فيها تسهيل التجارة البريطانية، ولكن البرتغاليين وشوا به فعاد إلى بلاده، وعندما أقبل توماس رو الإنجليزى إلى الكجرات عام ١٦١٥ رحب به أهل البلاد لكراهيتهم للبرتغاليين ومبشريهم فتمكن من تثبيت أقدام شركة الهند الشرقية البريطانية فى سورات وعلى ساحل كروماندل، وقد أغرى جهانكير الإنجليز بالبرتغاليين فبدأوا فى محاربتهم وأنزلوا بهم هزائم كبيرة وكسب البريطانيون فى مقابل ذلك حقوقًا على سواحل الهند مهدت لهم سبل السيطرة عليها فيما بعد[xxix].

أما عن علاقة أورانجزيب بالإنجليز، فقد كان فى عداء مع المراتها، ولهذا استعان بهم فى حروبه معهم، وعندما ساعدوه فى الاستيلاء على مركز البرتغاليين فى هو جلى سمح للإنجليز بإقامة وكالة مركزية لهم فى سورات لتشرف على كل مراكز الإنجليز التجارية فى الهند، ومد الإنجليز نفوذهم إلى بومباى بالساحل الغربى ولكنهم عارضوا حاكم أورانجزيب على البنغال وعمدوا إلى مناهضة الدولة فاستولى على كل مراكزهم فضاعت مصانعهم عند هو جلى وسليبا نام. ولكنه عاد وسمح لهم بالعودة بسبب ما كانت الدولة تجمعه منهم من رسوم فانشئوا لهم مركزًا عند قرية تسمى كلكتا وأخذت هذه القرية تتسع حتى أصبحت عاصمة الإمبراطورية الهندية البريطانية قبل انتقال العاصمة إلى دهلى الجديدة، ووحد الإنجليز جهودهم التجارية على ساحل الهند فى شركة واحدة هى شركة الهند الشرقية وخلال نصف قرن حرصوا على البعد عن التدخل فى أمور الدولة الداخلية حتى ثبتت أقدامهم فى البلاد وبهذا يكون أورانجزيب بتسامحه مع الإنجليز قد فتح لهم الطريق ليستولوا على الهند كليةً[xxx].

وبعد وفاة أورانجزيب كان من الصعب المحافظة على وحدة هذه البلاد، فى الوقت الذى قامت فيه الحرب بين أبنائها على العرش حتى تمكن أحدهم وهو بهادرشاه من الوصول إلى الحكم ولكن هيبة الدولة كانت قد زالت وثار عليها الراجبواتانيون، والسيخ، والمراتها والجات قرب أجرا. وكان الأمر يحتاج إلى رجل فى قدرة أورانجزيب، ولكن ذلك كان صعبًا، فعلى الرغم من عودة بهادرشاه إلى سياسة المسالمة مع الهندوس فإن الثورات عليه لم تتوقف واستمر يحارب خصومه إلى أخر أيامه. وخلفه بعد حروب طويلة ابن أخيه محمد فرخ، واستمرت ثورة السيخ والمراتها

بقيادة الزعيم بندا، وولى السلطان محمد بن فرح أمر الدكن لقائد يسمى قلج خان نظام الملك بهادر وهو مؤسس بيت النظام فى حيدر آباد، وعندما ولى السلطان شئون الدكن اشتد فى حرب المراتها الذين كانت عصابتهم تفرض على التجار والسكان ربع الضرائب المقررة عليها فى نظير عدم تعرض عصاباتهم لهم، وقد اجتهد نظام الملك فى استئلاف الناس فعزله السلطان فرخ وعين مكانه الوزير حسين على خان. وبعد وفاة السلطان فرخ تولى سلاطين فى غاية الضعف ولم يجد السلطان محمد شاه أمامه إلا الاستعانة بأصف شاه من أسرة نظام حيدر آباد، وقد تمكن أصف شاه نظام الملك من الاستقلال بأغنى ولايات الهند وهى البنغال وأورية وبهار، ولكن سلطان هذه الأسرة اقتصر فى النهاية على الأراضى التى تقع إلى الجنوب من نهر نربادا، وهناك أسسوا إمارة حيدر الدكنية وتحيط بها الأراضى التى استقل بها المراتها، وكانت عصابات هؤلاء تعبث فى البلاد فسادًا دون أن يستطيع السلاطين الضعاف أو رجال إمارة حيدر الدكنية التغلب عليهم وفى الواقع فدولة سلاطين المغول انتهى كل سلطان لها على البلاد فى عهد السلطان عالم كير الثامن الذى قتل عام ١٧٥٤، وكان آخر سلاطين المغول هو بهادرشاه الثامن الذى عزل عام ١٨٣٧[xxxi] أما إمارة النظام فى حيدر آباد فقد دخلت فى حروب طويلة مع الردهلية وتمكن من الانتصار عليهم ودخل برجاله مدينة دلهى عام ١٨٥٧، وقد حاول الأفغان التصدى لقوات المراتها ولكنهم لم ينجحوا[xxxii].

أثناء ذلك كان الإنجليز يتقدمون داخل البلاد من ناحية البنغال، وتمكنوا سنة ١٨٥٧ من الانتصار على قوات نظام الملك وبعد فترة وجيزة من المعركة تولت شركة الهند الإشراف على الإدارة المالية للبنغال، فضمن البريطانيون السيطرة على أغنى أقاليم الهند قاطبة، وأصبحت الشركة سياسيًا وعسكريًا تضاهى فى قوتها أعظم الإمبراطوريات وأوسعها، وبدأت فى نهب ثروات الهند، وحصل البريطانيون نتيجة ذلك على كميات هائلة من الأموال شحنت لأوروبا لحساب الشركة وموظفيها وصارت تحصل على المبالغ اللازمة لابتياع السلع الهندية من الشعب الهندى نفسه، وانتزعت الشركة من مير محمد قاسم حاكم البنغال اعترافًا بالتنازل عن ثلاثة مناطق من البنغال لتكون إقطاعًا للشركة، تستثمرها لتستعين بها على تأليف جيش تضعه تحت تصرفه إذا ما احتاج إليه، معنى ذلك أن الشركة ألفت جيشًا بمال الهنود ورجالهم لتحاربهم به واتخذت من أراضى البنغال الشاسعة مزارع لزراعة الأفيون لتصديره للصين، وحين منعت الأخيرة دخوله تدخلت بريطانيا فكانت حرب الأفيون وأرغمت الصين على دخول الأفيون إليها، وفى عام ١٧٦٤ انتصر الإنجليز فى معركة بُكسر، وكانت هزيمة حاسمة للدولة المغولية فى الهند، فقد فقدت البنغال إلى الأبد، وأسفرت عن اتفاقية مع السلطان شاه عالم تنص على إعطائهم "الحق الديوانى" وهو حق الإشراف المالى على الولايات الشرقية، وعلى ولاية كرناتك فى الجنوب الهندى، وغيرها من المناطق، وتعهد الإنجليز مقابل ذلك بأن يدفعوا للسلطان خراجًا سنويًا عن الولايات الشرقية بهار، وأوريسا، والبنغال قدره ٢٦ مليون روبيه بمعنى آخر اعترف السلطان بسلطانهم على هذه الأقاليم أى بيعها لهذه الشركة التى أصبحت دولة قائمة بذاتها، لها جيشها وإدارتها ومنظماتها. كما تصدى أمير ميسور حيدر على للإنجليز فى الجنوب وهزمهم هزائم متعددة وكذلك ابنه فتح على، وتمكن لورد ويلزلى من أن يحطم قوى ميسور عام ١٧٩٩. وكان أول حاكم مسلم كبير وقف فى وجه الإنجليز. كما قامت حركة أحمد بن عرفان لجهاد السيخ الذين دعمهم الإنجليز ومكنوهم من البنجاب وكشمير، وتمكن أحمد من إقامة دولة إسلامية بدأت الجهاد إلى أن استشهد فى معركة بالاكوت عام ١٨٣١ ومعه الشاه أحمد الدهلوى[xxxiii].

واستمر البريطانيون فى أساليبهم فى تفريق الكلمة وتشتيت العمل وإلقاء العداوة والبغضاء بين الناس، واستغلال كل خلاف لابتلاع مناطق جديدة وكانوا يكثرون من عقد المعاهدات التى لم تكن عندهم إلا قصاصات ورق هدفها جلب الخير لهم ودفع الضرر عنهم، فى ذات الوقت لا تقيدهم بقيد ولا تلزمهم بعهد. فأصبحوا بذلك عام ١٨٥٦ السادة الفعليين لكل أنحاء الهند تقريبًا فقد استطاعوا أن يقضوا بمهارة على جميع السلالات الكبيرة فى الهند وأزاحوا ورثتها إلى أماكن بعيدة عن مراكز حكمها السابقة، أدرك المسلمون أنه لابقاء لهم مع الإنجليز وقد أصبحوا يواجهون ثالوثًا قويًا الإنجليز والهندوس والسيخ فقاموا بثورتهم عام ١٨٥٧ والتى كان لها عدة أسباب[xxxiv]:

ظهر الوجه الحقيقى للحكم الإنجليزى أمام أهل الهند بعد أن تغلب على الإمارات الإسلامية الواحدة بعد الأخرى وعلى القوى الهندوكية المختلفة. وكانت المصيبة شديدة الوطأة على المسلمين لأنهم فقدوا ما كانوا يمتعون به سواء كأفراد أو كأمراء، فلقد سلب الإنجليز من الأمراء والإمبراطور حق الحكم وأبقوا فى يد هؤلاء مظاهر تافهة بينما استأثرت شركة الهند الشرقية البريطانية بكل خيرات البلاد.

١- كان المسلم البسيط فى الهند يعيش جنبًا إلى جنب مع الهندوكى مستمرًا فى عمله التقليدى. ولكنه لاحظ فى القرن التاسع عشر محاولات خطيرة موجهة ضد مذهبه ودينه. فقد انحاز الإنجليز إلى الهندوس وحرضوهم ضد المسلمين يسخرون من دينهم ويضطهدونهم وكان السيخ والمراتها بالذات شديدى الوطأة على المسلمين ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ارتكبت العديد من المذابح راح ضحيتها آلاف من المسلمين بسيوف المراتها والسيخ دون أن يجد المسلمون من الإنجليز محاولات واضحة لوضع حد لهذه العمليات، وأدرك الكثير من علماء المسلمين أنه هناك اتفاق بين الإنجليز والسيخ لإفناء المسلمين.

٢- عمد الإنجليز إلى تعطيل التعليم الإسلامى فى الكتاتيب والمساجد والمدارس، كما استولوا على جميع الأوقاف الخيرية الإسلامية التى كانت تعتبر المصدر الوحيد للإنفاق على تلك المؤسسات، فى نفس الوقت فتحوا أبواب التعليم أمام الهندوس بصفة خاصة على أسس إنجليزية، وكانت النتيجة الحتمية لذلك ظهور العديد من الهندوس القادرين على المشاركة فى الدواوين الحكومية جنبًا إلى جنب مع الإنجليز بينما لم يفز من المسلمين بتعليم راق سوى عدد ضئيل جدًا بالنسبة للهندوس. وقد عهد إلى البعثات التبشيرية المسيحية بتعليم أبناء الهندوس تعليمًا مسيحيًا خاصة الأسر الكبيرة، وقد أثار هذا غضب المسلمين ودفعهم إلى التحرك دفاعًا عن أنفسهم أمام جيوش من المبشرين تنفق عليهم شركة الهند بينما منعت أموال الخيرات الإسلامية عن المسلمين وعن مدارسهم ومساجدهم التعليمية.

٣- دمرت إنجلترا أسس النظام الاجتماعى فى الهند دون أن تبدى رغبة فى بناء أى شئ، فحطم الغزاة الإنجليز المنازل الهندوسية وبدأت إنجلترا بطرد منسوجات القطن الهندية من أسواق أوروبا ثم شرعت تصدر الخيوط القطنية إلى الهند، وأغرقت الهند بالمنسوجات القطنية التى زادت صادراتها زيادة ملحوظة فى الفترة من عام ١٨١٨ إلى عام ١٨٣٦. بلغت صادرات الموسلين الإنجليزى إلى الهند أقل من مليون ياردة. وارتفعت فى عام ١٨٣٧ إلى أكثر من ٦٤ مليون ياردة. وفى الفترة ذاتها هبط عدد سكان داكا من ١٥٠ ألفًا إلى ٢٠ ألفًا.

٤- كان لوجود المسلمين والهندوس فى الجيش البريطانى دور فى الثورة فهم الذين بدأوا بها فى مايو ١٨٥٧، والسبب المباشر لثورتهم هو إرغام الضباط الإنجليز لهم على أن يقطعوا بأسنانهم قطعًا من دهون الخنازير والبقر لتشحيم بنادقهم، والمعروف أن المسلم محرم عليه تذوق دهن الخنزير، والهندوس محرم عليهم تذوق دهن البقر. ومع هذا تمادى الضباط الإنجليز فى عقاب الجند الذين تذمروا، ولم يلبث الجند أن انقضوا على ضباطهم الإنجليز وقتلوهم وانطلقوا إلى دلهى معلنين الثورة وسرعان ما انتشرت بسرعة كبيرة للغاية سواء فى دلهى أو خارجها فى المناطق الشمالية بصفة عامة.

وعندما أعلن لورد كينج أن سلطان دلهى بهادر شاه هو أخر شخص يسمح له بحمل لقب سلطان من الأسرة المغولية، وآخر من يحق له عقد مجالس سلطانية، وسكنى القصر السلطانى منزل هذا الانذار نزول الصاعقة على الهنود لأنهم كانوا يعتبرون السلطان على ضعفه رمز وحدة الهند ورمز السلطة الإسلامية، فثار الجند وأخذوا يقتلون الإنجليز رجالاً ونساءً وشيوخًا وأطفالاً وأشعلوا النار فى منازلهم، وامتدت إلى دهلى وطارت الأنباء فى الهند تحمل البشرى بقرب الخلاص، وثار الجند فى كل مكان وتحولت الثورة إلى حرب تحريرية قادها الأمراء والفقهاء المسلمون، كما اشترك فيها الرجال والنساء. ولم تستطع بريطانيا رد نفوذها إلا عن طريق الخيانة والرشوة فبدأوا بدهلى، وأسروا السلطان بهادرشاه فى الحصن الأحمر، ثم أخذوا يستولون على المدن الرئيسية التى كانت المقاومة فيها قوية ومنظمة ورافقت أعمالهم العسكرية أعمال انتقامية وحشية وأخذوا الناس بالشبهات فساقوا آلاف من الناس إلى المحاكم التى حكمت عليهم بالموت بعد العذاب وحاكم الإنجليز السلطان بها درشاه محاكمة صورية ونفوه إلى بورما حيث توفى عام ١٨٦٢، وأعلنت بريطانيا تولى التاج البريطانى لحكومة الهند فى نوفمبر ١٨٥٨ وانتهت السيادة الإسلامية على شبه القارة الهندية[xxxv].

رابعًا- قيام دولة باكستان.

اتبع البريطانيون سياسة معادية ضد المسلمين فقد أعلن اللورد النبرو حاكم الهند البريطانى أن الإسلام فى الهند عدو لبريطانيا وأن سياسة بريطانيا فى الهند تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها لتستعين بهم فى القضاء على الخطر الذى يهدد بريطانيا فى الهند. وعلى هذا الأساس بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية أكثر مما بطشوا بغيرهم من الطوائف الأخرى الذين شاركوا فيها فأبعدوهم عن كل وظائف الدولة التى كانوا يشغلون عددًا كبيرًا منهم، كما عملوا على إضعاف أوضاعهم الاقتصادية وكذلك الثقافية. ثم منحوا أبناء الطبقات الهندوكية المتوسطة فى الوظائف الصغيرة فلا يتخطوها إلى المناصب الكبرى التى كانت جميعها فى السلكين المدنى والعسكرى مقصورة على المستعمرين، وعندما صدر قانون التملك الزراعى الذى نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الأراضى، صارت معظم الأراضى التى كان المسلمون يمارسون زراعتها بمقتضى هذا القانون ملكًا لجباة الضرائب من الهنادكة، وانقلب زراعها الأصليون الذين صودرت أراضيهم ، ولم يكتف هؤلاء المستعمرون بهذا بل قاموا بتزييف تاريخ الحكم الإسلامى بالهند، ويظهرون السلاطين المسلمين وعمالهم بمظهر الطغاة، ثم انطلقوا بعد ذلك يدعون الهنادكة إلى إحياء ماضيهم القديم بقصد إثارتهم على مواطنيهم من المسلمين، مما ترتب عليه حدوث خلافات ومذابح راح ضحيتها عدد كبير من المسلمين، وقد بعث اضطهاد البريطانيين للمسلمين فى الهند شعورًا قويًا بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد، ورفع مستوياتهم وإصلاح حالهم[xxxvi] .

ونتيجة لذلك رأت الزعامات المثقفة أن الوقت قد حان لتخليص البلاد من الاستعمار البريطانى. وكانت هناك حركات تحررية بين المسلمين والهندوكيين ولكنها لم تستطع أن تتحول إلى حركات عامة إلا ابتداءً من العقد الأول من القرن العشرين. وكان المؤتمر الهندى يقود هذه الحركة ويطالب بتحرير الهند تدريجيًا من الاستعمار البريطانى. وكانت الزعامات الإسلامية داخل المؤتمر الهندى تبذل جهدًا كبيرًا فى تأييد الزعامات الهندية ضد الوجود الاستعمارى البريطانى. ولكن المستويات العالية لدى هذه الزعامات كانت لا تجد صداها الحقيقى لدى العامة. فضلاً عن أن الخلافات الجوهرية بدأت تظهر من الزعامات الإسلامية والهندوسية حول مصير البلاد بعد إخراج الإنجليز. وقد بدأت هذه الانشقاقات الطائفية بين المسلمين والهندوس أعقاب قيام لورد كيرزون بتقسيم البنغال بين المسلمين والهندوس، فأعلن الهندوس مقاومتهم لهذا الإجراء على اعتبار أن الهند وحدة واحدة وأمة واحدة ضد الاستعمار البريطانى، كما كان الهندوس يرون فى تقسيم البنغال إعطاء المسلمين حقوقًا لا يجب أن تعطى لهم وإنما عليهم أن يعيشوا تحت سيطرة الهندوس مثلما عاش الهندوس من قبل تحت سيطرة المغول[xxxvii].

وقد ترتب على هذه التطورات ظهور حركة تضامن إسلامية قوية ترى فى المؤتمر الهندي مظهرًا من مظاهر التسلط الهندوسى على المسلمين، وأن على المسلمين أن يؤسسوا لأنفسهم هيئة تدافع عن مصالحهم ضد المؤتمر الهندى وضد الحكم الاستعمارى البريطانى، ومن هنا نشأت الرابطة الإسلامية ١٩٠٦، والتى كانت مبادئها تقوم على حماية حقوق المسلمين والتقدم بمطالبهم للحكومة، وتقريب وجهة النظر بينهم وبين المستعمر وإزالة الفجوة التى كانت قائمة من قبل حتى يستطيع المسلمون الحصول على حقوقهم، بشرط عدم التحرش بالطوائف الأخرى بل يجب أن تظل روح المحبة وحسن التفاهم، وبقيام هذه الجماعة أصبح للمسلمين هيئة خاصة بهم تتحد باسمهم وترعى مصالحهم. ولقد ظلت الرابطة الإسلامية هيئة سياسية محدودة النشاط قادرة على مواجهة تفوق حزب المؤتمر حتى مال محمد على جناح – عضو المؤتمر الهندى – إلى الرابطة بداية من عام ١٩١٣[xxxviii].

وخلال الحرب العالمية الأولى قويت الدعوات إلى استقلال الشعوب سواء قبل صدور مبادئ ولسن الأربعة عشر أو بعدها، واتجهت الحركة الوطنية بزعامة غاندى إلى الضغط بقوة على بريطانيا من أجل استقلال الهند، وفى الجانب الإسلامى الهندى كان المسلمون يسعون إلى تحرير الهند من الإنجليز. وقد هاجم محمد على جناح الإنجليز عندما انقضوا على الثوار الهنود فى ١٩١٩ لقتل الحركة الهندية التحررية. ولكنه فى نفس الوقت انتقد غاندى عندما ابتدع سياسة المقاطعة والعصيان المدنى، وكان يرى من الأفضل إنشاء مصانع كى تستطيع الهند أن تقف بقوة أمام مصنوعات بريطانيا، وفى هذه الحالة تستطيع الهند أن تقاطع البضائع الإنجليزية بنجاح دون أى أضرار بمصالح الشعب نفسه. واشتدت معارضة محمد على جناح لغاندى ولحزب المؤتمر وزاد من ارتباطه بالرابطة الإسلامية تعاون الحكم البريطانى مع حزب المؤتمر على إصدار دستور للبلاد يعطيها طابعًا هندوكيًا ويؤدى إلى القضاء على المسلمين فى المستقبل البعيد وحاول محمد على جناح أن يثنى غاندى وزعماء المؤتمر الهندى عن

هذا الاتجاه دون جدوى، ولهذا وضع مبادئه الأربعة عشر أمام المسئولين فإما أن يقبولها فيقبل هو والرابطة الإسلامية الاشتراك فى الحركة الوطنية الواحدة ضد الإنجليز وإلا فسيطالب بانفصال المسلمين عن الهندوكيين فى كافة المجالات، وكانت مبادئ وشروط محمد على جناح الأربعة عشر على النحو التالى(xxxix).

١- سن دستور أساسى للهند يخول لكل مقاطعة الصلاحية التامة فى الحكم المباشر.

٢- مساواة جميع المقاطعات فى الحقوق والامتيازات.

٣- مراعاة حقوق الأقليات فى سائر المقاطعات وتخويلهم حق التمثيل النيابى فى سائر المجالس النيابية والتشريعية وحماية حقوقهم ضد ضغط الأكثرية.

٤- أن يكون ربع المقاعد لممثلى المسلمين فى المجلس النيابى الذى سيؤسس بمقتضى الدستور.

٥- أن ينتخب الأعضاء الممثلون للفرق والطوائف انتخابًا مستقلاً مع تمتعهم بالصلاحية التى ينص عليها الدستور.

٦- ألا يكون فى تغيير النظم التى ستجرى فى سائر المقاطعات ما يمس الحقوق والمزايا التى تتمتع بها الأكثرية المسلمة الموجودة فى مقاطعات البنجاب والبنغال والحدود الشمالية.

٧- أن يضمن الدستور الهندى الجديد الحرية التامة المطلقة لجميع الملل والمذاهب فى إقامة الشعائر والتعليم.

٨- ألا ينفذ أى قانون أو أية لائحة فى مجلس من المجالس التشريعية أو النيابية فى أية مقاطعة من المقاطعات ويكون ذلك القانون أو تلك اللائحة تمس قومًا من الأقوام أو طائفة من الطوائف ما لم يوافق على ذلك ثلاثة أرباع الأعضاء من ممثلى تلك الطائفة.

٩- فصل مقاطعة السند عن بمباى فصلاً تامًا بغير قيد أو شرط.

١٠- أن تنظم مقاطعتا الحدود وبلوخستان تنظيمًا يتفق والحالة التى عليها سائر المقاطعات.

١١- مراعاة حقوق المسلمين فى سائر الإمارات المستقلة بما يتفق والحرية الدينية التامة والعدالة الكاملة فى سائر الحقوق والوظائف.

١٢- أن يضمن الدستور الهندى الجديد الحرية التامة للمسلمين فى إقامة شعائرهم الدينية وصيانة حقوقهم ومقدساتهم وأماكن معتقداتهم والمحافظة على ثقافتهم الدينية فى التعليم والتبليغ واللغة فى سائر المقاطعات والولايات المستقلة وأن تخصص كل أيالة منحة مالية تصرف سنويًا على الشئون الإسلامية.

١٣- ألا تؤلف وزارة من الوزارة أو حكومة من الحكومات فى المقاطعات الهندية ما لم يمثل فيها المسلمون بنسبة الثلث.

١٤- ألا يقل أى تعديل أو تغيير فى الدستور الهندى الأساسى بعد تشريعه إلا بعد أخذ رأى وموافقة سائر المقاطعات.

ولقد أصر زعماء حزب المؤتمر على أن يسيروا فى الحركة الوطنية بدون محمد على جناح وبدون الرابطة الإسلامية وشجعهم على ذلك أن عددًا ليس بالقليل من الزعماء المسلمين كان متعاونًا إلى أقصى حدود التعاون مع المؤتمر الهندى ليس عن خيانة وإنما عن اقتناع من جانبهم بقيمة الهند الموحدة المستقلة. ولكن كانت كل حركة تحررية هندوكية لا تحظى بموافقة الرابطة الإسلامية لا تحرز نجاحًا كبيرًا ولهذا فشلت الاتصالات الهندوكية – البريطانية، وعاد غاندى إلى سياسة العصيان المدنى. ويبدو أن الإنجليز أرادوا فى هذه الظروف أن يتجاهلوا المؤتمر الهندى ويفتحوا الباب أمام اتصالات مباشرة بين الرابطة الإسلامية وبينهم ١٩٣١ ولا شك أن الإنجليز كانوا هم الرابحين من وراء التفاوض مع هذا الطرف تارة ومع ذلك الطرف تارة أخرى، ومهما كانت خطورة تلك الصراعات الطائفية إلا أنها كانت دائمًا موجهة ضد الوجود الإنجليزى، وكانت تكاليف السيطرة على الأمن وعلى البلاد قد أصبحت باهظة، الأمر الذى جعل الإنجليز يتجهون فعلاً إلى إعطاء الهند استقلالاً. وكان إصدار دستور ١٩٣٥ مقدمة لهذه الخطوة وبرزت عن هذا الدستور مشكلة خطيرة، فهل ستكون الانتخابات النيابية المقبلة عامة أم تكون على أسس طائفية(xl).

أعلن غاندى ونهرو أنه لا توجد فى الهند طوائف أو شعوب، وإنما يوجد شعب واحد هندى له أديان مختلفة، ويرجع ذلك أن الزعامات الهندوكية كانت ترى فى انفصال المسلمين عن الهند إضعافًا لها بينما العالم يتجه نحو الوحدات السياسية الكبيرة وفى ذات الوقت كان هناك اعتقاد قوى بأن ظهور دولة إسلامية فى شمال الهند سيؤدى إلى إعطاء الشعوب الإسلامية دفعة قوية من الحيوية، وأن هذه الشعوب لن تلبث أن تتعاون فيما بينهما فيصبح هناك نوع من الوحدة بين هذه الدولة الإسلامية الجديدة وأفغانستان وفارس والبلاد العربية، وفى عام ١٩٤٠ تحقق أمل الفيلسوف والشاعر محمد إقبال فى إعلان المسلمين بتمسكهم بدولة خاصة بهم أطلقوا عليها باكستان، واستخدم خصوم محمد على جناح كافة الوسائل من إرهاب دموى إلى دبلوماسية المفاوضة معه أو مع الإنجليز، وعملوا على إضعاف قوته عن طريق تحريض بعض الطوائف الشيعية ضده، ومع هذا استطاع أن يكسب الغالبية العظمى من مسلمى الهند إلى جانب فكرة باكستان. وفى عام ١٩٤٦ بذلت أخر محاولة لفرض كلمة المؤتمر الهندى على الرابطة الإسلامية، وحاولت الجموع الهندوكية أن تفرض بالقوة وبالمذابح على المسلمين الوحدة. ولكن كانت المذابح مروعة وكانت سببًا فى أن تقطع كافة الطرق التى كان يمكن أن تؤدى إلى ظهور حكومة فيدرالية من مسلمين وهندوس. وأصبح التقسيم هو الهدف الوحيد الذى يسعى إليه المسلمون بعد تلك المذابح دون محاولة لايجاد تسوية ما. وأخيرًا اضطر زعماء حزب المؤتمر إلى أن يوافقوا على الانفصال وظهرت باكستان فى منتصف شهر أغسطس ١٩٤٧م[xli].

خامسًا: مشكلة كشمير

يحتل إقليم جامو وكشمير موقعًا استرتيجيًا مهمًا فى جنوب القارة الأسيوية حيث تحده الصين من الشرق والشمال الشرقى وأفغانستان من الشمال الغربى، وباكستان من الغرب والجنوب والغربى، والهند فى الجنوب، وتبلغ مساحته ٨٤٤٧١ ميلاً مربعًا، ويشكل المسلمون أكثر من ٩٠% من السكان، وأهمية الإقليم للهند إستراتيجية، حيث ترتبط قضية كشمير بتوازن القوى فى جنوب آسيا، وتوازن القوى بين الهند والصين، أما أهميته لباكستان فتنبع منه أنهار باكستان الثلاثة (السند وجليم وجناب)، وتنفتح الحدود بين باكستان والإقليم وهو ما يشكل تهديدًا للأمن القومى الباكستانى فى حالة سيطرة الهند عليه، يضاف إلى هذا أن مصالح الإقليم الاقتصادية وارتباطاته السكانية قوية بباكستان، فالإقليم ليس له ميناء إلا كراتشى الباكستانى فضلاً عن تقارب السكان الدين والعائلى، ويضاف إلى هذا أيضًا تمتع الإقليم بثروات طبيعية.

دخل الإسلام إلى كشمير عن طريق داعية يدعى بلبل شاه تمكن من إقناع حاكم كشمير الهندوكى باعتناق الإسلام، وسمى هذا الحاكم باسم صدر الدين، ونتيجة انتشار الاسلام فى الهند، أصبح إقليم كشمير جزءً من الإمبراطورية المغولية الهندية فى عهد السلطان أكبر ١٥٨٦، وبعد مائتى سنة استولى الأفغان على الإقليم، وبقى نابعًا لهم، نتيجة الضعف الذى ألم بدولة المغول، وبعد سنة ١٨١٩، عاد إلى الهند تحت حكم أمراء من الهندوس، وعندما وقعت الهند فى براثن الاحتلال الإنجليزى ازدادت المشكلة تعقيدًا عندما وضع على الإقليم حاكم غير مسلم رغم أن غالبية سكانه من المسلمين[xlii].

كانت السياسة المتبعة ضد المسلمين هى سياسة الظلم والاستبداد من قبل المهراجا، وعليه نشأت معارضة تزعمها الشيخ عبدالله أسد كشمير، والميرواعظ محمد يوسف شاه عام ١٩٣٠ تحت اسم حزب المؤتمر الإسلامى العام لجامو وكشمير، وكان أول اجتماع له عام ١٩٣٢، وطالب بإقامة حكومة مسئولة أمام الشعب، وقد تحول هذا الحزب إلى حزب المؤتمر الوطنى الكشميرى حيث تأثر الشيخ عبدالله بطريقة غاندى، وحزب المؤتمر ذات النظرة، العلمانية، ولكن بعد ذلك تكون مؤتمر مسلمى كشمير على يد تشودرى غلام عباس خوفًا من أن يصبح المؤتمر الوطنى الكشميرى امتدادًا للحزب الوطنى الهندى وذلك فى عام ١٩٤١، وقد قرر بتقرير مصير كشمير بحكم الأغلبية فى المجلس التشريعي، وقد فاز هذا الحزب فى الانتخابات بكشمير عام ١٩٤٧، وكان للمسلمين ١٥ مقعدًا من ٢١ مقعدًا. وهذا يوضح تأثير انقسام الحركة الوطنية فى الهند باختلاف حزب المؤتمر مع حزب الرابطة الإسلامية وحزب محمد على جناح على الحركة الوطنية فى كشمير[xliiii].

ويرجع تاريخ النزاع الكشميرى بين الهند وباكستان إلى أغسطس ١٩٤٧، عندما قامت دولة باكستان، حيث لم يتقرر وضع كشمير فى مرحلة التقسيم سواء بالانضمام إلى الهند أو إلى باكستان خاصة وأن غالبية السكان مسلمين، فى الوقت الذى كانت الهيئة الحاكمة من الهنود فى وقت التقسيم تطالب مهراجا كشمير بابقاءها على حالها دون أن تنضم إلى أى من الدولتين. ولكن بعد ذلك نشبت اضطرابات كبيرة بين المسلمين والحكام الهنود وشهدت كشمير مصادمات مسلحة تدفق على أثرها رجال القبائل الباكستانية لمساندة المسلمين وطلبت حكومة كشمير آنذاك مساعدة الهند، وأعقب ذلك دخول القوات الهندية لمساندة المهراجا، خاصة بعد أن أعلن موافقته على الانضمام إلى الهند ولكن ترتب على ذلك

دخول القوات الباكستانية النظامية إلى المنطقة، وبدأ القتال بينها وبين القوات الهندية واستمر لفترة تزيد على عام كامل، وفى يناير ١٩٤٩ تدخلت الأمم المتحدة وتوقف القتال وأنشئ خط وقف إطلاق النار جاعلاً ثلثى مساحة كشمير وأربعة أخماس السكان تحت السيطرة الهندية، والباقى تحت السيطرة الباكستانية، ومنذ ذلك الوقت استمرت كشمير منقسمة بوصفها المذكور وفشلت كل المحاولات لإنهاء النزاع، حيث تتطلع كل من الهند وباكستان إلى السيطرة على كل المنطقة على أساس عوامل عرفية اقتصادية وسياسية وتاريخية وبقيت المشكلة عقبة فى طريق الصدامة الباكستانية الهندية.

وتستند كل من باكستان والهند فى مطالبهما بضم كشمير إلى عدة عوامل[xliv] بالنسبة لباكستان:

١ – أن معظم سكان كشمير من المسلمين.

٢ – فى حالة ضم كشمير للهند فإنها ستتحكم فى مياه نهر السند الذى تعتمد عليه باكستان فى الرى وتوليد الكهرباء، والحياة فى باكستان تتوقف على مياه نهر السند.

٣ – ارتباط كشمير تجاريًا بباكستان.

٤ – ضم كشمير للهند معناه تهديد الأمن القومى فى باكستان لعدم وجود حواجز طبيعية جنوبى كشمير وباكستان.

٥ – ضم كشمير لباكستان مهم حتى لا تنفصل قبائل الباتان.

بالنسبة للهند

١- حكومة كشمير هى التى طلبت تدخل الهند رسميًا عام ١٩٤٧ واستنجدت بالقوات المسلحة الهندية.

٢- أنفقت الهند منذ سنة ١٩٤٧ العديد من رؤوس الأموال فى المشروعات العديدة لتنمية كشمير، فأنشأت العديد من طرق المواصلات البرية التى تربطها بالهند.

٣- حماية مصالح الهندوس الذين يعيشون فى جنوبى جامو.

٤- مطالب باكستان لاستغلال مياه الأنهار للرى أو لتوليد القوى الكهربائية يمكن أن تنظمه اتفاقيات دولية.

وسعت الهند إلى اتخاذ خطوات تدريجية بهدف دمج كشمير فى الاتحاد الهندى حيث أصبح حاكم كشمير مجرد محافظ من قبل الحكومة المركزية بنيودلهى، ورئيس الوزراء مجرد سكرتير محافظ، ولحل هذه المشكلة أشارت الأمم المتحدة بضرورة إجراء استفتاء يقرر بمقتضاه سكان كشمير مصيرهم، إما بالانضمام إلى الهند أو باكستان، وفى عام ١٩٥٧ كلفت الأمم المتحدة (جونار يارنج) السكرتير العام للأمم المتحدة بتسوية النزاع، إلا أن الهند أعلنت ضم الجزء الذى سيطرت عليه رسميًا، مما أدى إلى تعقيد المشكلة، واستغلت الصين هذه المشكلة لتحقيق مكاسب خاصة بها، ففاوض باكستان سنة ١٩٦٣ بشأن الحدود وعقدت اتفاقية مع باكستان فى ذات العام تنازلت الأخيرة بمقتضاها للصين عن مساحة واسعة من الحدود الأفغانية فى الغرب وممر كركروم فى الشرق، إلا أن الهند احتجت على هذه الاتفاقية على اعتبار أن كشمير كلها ولاية هندية، وأنه ليس من حق باكستان أن تتنازل عن تلك المساحة. واشتركت الولايات المتحدة وإنجلترا فى دعوة الهند وباكستان لإجراء مفاوضات جديدة استمرت حتى مايو ١٩٦٣، ولم يصل الطرفان المتنازعان إلى حل، وفى عام ١٩٦٤، عاد مجلس الأمن لبحث مشكلة كشمير، إلا أن أحد الطرفين لم يتنازل عن موقفة فاقترحت بعض الدول قيام سكرتير عام الأمم المتحدة بالتوسط بين الطرفين، وقام الشيخ عبدالله الكشميرى بتكوين وفد من أهل كشمير وسافر إلى دلهى ثم إلى روالبندى، وقدم اقتراح جديد بتكوين حكم ثنائى لكشمير المتحدة. ولكن هذا الاقتراح لم ينل موافقة أحد الطرفين وبقيت مشكلة كشمير على حالها، وبقيت المشكلة دون حل بسبب إصرار كل طرف على موقفه[xlv] رغم استمرار الحوار بين الدولتين لحل المشكلة.

الفصل الثانى

إيران

أولاً- تمهيد

ثانيًا- إيران فى عصر الدولة الصفوية (١٥٠٠- ١٧٢٢).

١- دور الشيخ صفى الدين الأردبيلى وأسرته فى تأسيس الدولة الصفوية.

٢- الشاه إسماعيل الصفوى (١٤٨٨ - ١٥٢٤م).

٣- الشاة طهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦).

٤- الشاه عباس الكبير (١٥٨٧ - ١٦٢٩).

- **مواجهة الأوزبك.**
- **القضاء على نفوذ العثمانيين فى فارس.**
- **الاستحواذ على العراق**

ثالثًا- إيران (١٩٢٥ - ١٩٧٩).

١ – رضا بهلوى (١٩٢٥ - ١٩٤١).

٢ – محمد رضا بهلوى (١٩٤١ - ١٩٧٩) والأوضاع الدينية.

الفصل الثانى

إيران

أولاً: تمهيد

لايران تاريخ عظيم، وبعد أن انتشر فيها الإسلام، أصبحت قوة حضارية كبيرة ساعدت على انتشاره، وعندما سعت إلى نهضة حضارية جديدة مطعمة بالحضارة الأوروبية كان لنهضتها أهمية كبيرة فى المجالات المحلية، والعربية، والإسلامية، والدولية.

وتاريخ الشعب الإيرانى، كأحد الشعوب الإسلامية الكبرى، يعتبر ركناً أساسياً من تاريخ الإسلام وشعوبه فى العصر الحديث. فباستثناء العالم العربى تعتبر فارس وتركيا وأفغانستان وباكستان والجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى من أهم الشعوب الإسلامية الأسيوية، ولإيران بينها أهمية خاصة، حيث أنها هى التى تربط بين هذه الشعوب كلها، كما أنها تقع على الطرف الشرقى للبلاد العربية[xlvi].

وكلمة إيران مشتقة من اسم الشعوب الآرية التى هاجرت إليها فى التاريخ القديم، ومعناها (موطن الآريين) ولم يستخدم هذا الاسم فى العهد الإسلامى وإنما استخدمت كلمة "فارس" للدلالة على إيران القديمة. ويجب أن نفرق بين فارس ككل وإقليم فارس الواقع إلى الشمال الشرقى من الخليج العربى. وهذا الإقليم هو الذى فرض اسمه على كل الهضبة الإيرانية. وظل مستخدمًا فى مختلف الدوائر المحلية والعالمية حتى ١٩٣٥ عندما عمم الشاه رضا بهلوى اسم إيران تأكيدًا للفكر القومى الذى تزعمه هذا الشاه المجدد. ويقدر تعداد إيران بحوالى ثلاثين مليونًا معظمهم على المذهب الشيعى الاثنى عشري، منهم حوالى أربعة ملايين نسمة من القبائل، والباقى مستقرين فى المدن والقرى والوديان الزراعية، هذا فى الستينات من القرن العشرين، أما فى القرون السابقة فقد كان التشكيل القبلى هو السائد فى مختلف أجزاء فارس، ولعل ذلك يرجع أساساً إلى النقص الشديد فى مساحات الأرض الصالحة للزراعة. ومع أن الآريين هم الذين انتشروا أولاً فى إيران، إلا أن البلاد تعرضت لموجات متتالية من الهجرات التركية والعربية. ولكن رغم هذا التعدد فى الأصول العرقية، فإن هناك حضارة عامة فارسية يلتف الشعب بأسره حولها، باستثناء الجزء العربى، المعروف باسم (عربستان) أو (خوزستان) حتى وقت قريب. وقد توالت على إيران فى القرون القديمة هجرات عديدة إلا أن أهمها هجرة آرية (أندو – أوربية) استوطنت إيران وعمرت فيها القرى والمدن ومن بين هذه العشائر الآرية من لعب دورًا كبيراً فى التاريخ بل وأسس إمبراطوريات ذائعة الصيت (مثل الميديين، والفرس، والبارتيين، والباكتيريين، والسيذيين).

ولمعت فى تاريخ فارس القديم أسماء كورش مؤسس أكبر إمبراطورية فى الشرق فى القرن السادس قبل الميلاد وقمبيز، ودارا الذى بعث بجيوشه حتى قلب اليونان، وزارا دشت الذى وضع القواعد الدينية على أساس أن هناك صراعًا أزليًا بين الخير والشر[xlvii].

وتعرضت إيران – مثل بقية أجزاء الشرق الأدنى – لغزوة الإسكندر الكبرى، وما تبع ذلك من ظهور دولة يونانية فى فارس (الدولة السليوكية) وأخرى فى مصر وسورية (الدولة البطلمية). وعلى أنقاض الدولة السليوكية ظهرت الدولة البارتية فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد. وكان هناك البارتيون يتكلمون لغة فارسية ويدينون بالمزركية (المجوسية)، ومن بعد هذه الدولة المجوسية جاءت آخر الدول الإيرانية قبل الإسلام، وهى الدولة الساسانية التى تغلب عليها العرب، وانتشر الإسلام بسرعة فى فارس وازدهرت حضارتها الإسلامية إلى مرتبات عالية من التفوق خلال العهد العباسى بصفة خاصة. وبضعف الخلفاء العباسيين أصيبت الدولة بعدة انقسامات سياسية وظهرت عدة أسرات شبه مستقلة فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى: كالأسرة الطاهرية، والصفارية، والسامانية، والبويهية، والسجلوقية، وأخيراً دهم فارس غزو خطير شنه المغول، فاستولوا عليها ثم لم يلبثوا أن استولوا على بغداد نفسها، لتنتقل الخلافة العباسية بعد ذلك إلى القاهرة. بينما أصبحت إيران تحت حكم وثنى مغولى شديد العداء للإسلام وللمسلمين. وإذ كان المغول قد فتحوا فارس بالسيف، فقد أخضعت الحضارة الإسلامية هؤلاء الغزاة لها حتى أسلم الملك المغولى غازان وبدأت البلاد الفارسية تسترد تدريجيًا بعض مكانتها فى مجالات التقدم الحضارى تحت حكامها الإيلخانيين (المغول)، وكان من أبرز مظاهر هذا التقدم ظهور الشاعرين الكبيرين جلال الدين الرومى صاحب كتاب المثنوى الذى يعتبر أساسًا للتصوف الفارسى، "وسعدى الشيرازى" صاحب "كلستان" وهو أرفع أنواع النثر الفارسى، أو بمعنى آخر لقد أصبحت الحضارة هناك إسلامية فارسية، تعرضت إيران لموجة مغولية جديدة على يد تيمورلنك الذى استولى على فارس فى العقد الأخير من القرن الرابع عشر. وكانت دولته التى أسسها بالسيف والنار تركية

ذات حضارة إيرانية. ولم تلبث إمبراطورية تيمورلنك أن تفككت بسرعة بعد موته (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، فأفادت قبائل "القره قوينلو" من هذه الفرصة واستولت على أذربيجان وانحدروا إلى أصفهان والعراق وظلوا يحكمون فارس والعراق حتى قضت عليهم قوة قبلية أخرى هى "الآق قوينلو" فى ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م ، بينما كان القسم الشرقى من إيران تحت حكم شاه رخ بن تيمورلنك، وكانت عاصمته فى هراة وأخيرًا استطاع إسماعيل الصفوى أن يصفى الموقف كله فى فارس لمصلحته مؤسسًا الأسرة الصفوية (١٥٠٠) التى تعتبر بدايتها بداية لتاريخ فارس الحديث[xlviii].

ثانيًا- إيران فى عصر الدولة الصفوية (١٥٠٠- ١٧٢٢)

١- دور الشيخ صفى الدين الأردبيلى

كان لظهور الصفويين فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى نقطة تجول كبيرة فى تاريخ إيران بعد الإسلام، وينسب هؤلاء إلى الشيخ صفى الدين الأردبيلى (٦٥٠- ٧٢٥هـ/ ١٢٥٢ – ١٣٣٤م) وهو الجد الخامس للشاه إسماعيل الصوفى مؤسس الدولة الصفوية وينسب إلى الحسين بن على بن أبى طالب، والشاه إسماعيل (٨٩٢ – ٩٣٠هـ/ ١٤٨٦ – ١٥٢٣م) وهو ابن السلطان حيدر قتل عام ٨٩٣هـ/ ١٥٢٤م ابن السلطان جنيد بن إبراهيم المعروف بشيخ شاه ابن صدر الدين موسى بن صفى الدين الأردبيلى. استطاع صفى الدين وأولاده من بعده بزعامته لجماعة من المتصوفة والدراويش جذب الكثيرين من المريدين لا فى إيران فقط بل فى الولايات العثمانية من أسيا الصغرى، والشام، والعراق بتأثير دعاياتهم القوية، وقد تحولت فرقة الدراويش التى كان يتزعمها صفى الدين إلى مركز مذهبى لبث الدعوة الشيعية، ووجدت فى ذلك المساندة من بعض العناصر الإيرانية، وعرف رؤساء هذه الفرقة من أولاد الشيخ صفى أنفسهم على أنهم من نسل على بن أبى طالب، وبدأوا يطالبون بالتاج والعرش إثباتًا لحقهم، وتبدلت الدعايات المذهبية إلى مطالب سياسية[xlix].

وتوالى بعد ظهورهما عدد من رجال الدين من الأسرة الصفوية اتصفوا بالقدرة على المشاركة فى الأحداث السياسية فى المناطق التى يقيمون فيها، وبالقيام بأعمال تخلد ذكراهم، ولكن كان نشاط جنيد هو الممهد لتأسيس أسرة صفوية حاكمة.

كان جنيد يسعى إلى تكوين عصبية مذهبية مرتبطة به، فاجتذب العديد من الأتباع، وأصبح يشكل قوة محلية قادرة على العمل – عندما تسنح لها الفرصة – ضد الحكومة القائمة حينذاك، الأمر الذى أقلق أمير القره قوينلو حتى أمر بنفيه خارج البلاد.

وحينذاك كانت هناك منافسة محتدمة بين قوة القرة قوينلو – التى كانت تعانى آخر أيامها – والقوة الصاعدة على حسابها (الآق قويلنو). فذهب جنيد إلى أوزون حسن (حسن الطويل) زعيم الآق قوينلو فى ديار بكر، وأقام لديه حوالى ثلاث سنوات (١٤٥٦ – ١٤٥٩) وزوجه من أخته واتصل جنيد كذلك بالسلطان العثمانى.

وتابع حيدر نشاط أبيه جنيد وتزوج من ابنة حسن الطويل فى منفاه، بل شارك فى أحداث المنطقة وجمع حوله أعوانًا من التركمان، ولم يلبث أن لقى مصرعه فى بعض الصدامات التى وقعت فى منطقة شيروان (١٤٨٨).

وبدأت سلسلة من الاضطهادات للأسرة خرج منها إسماعيل الصفوى وقد صقلته التجارب وجعلته قادرًا على الانتقال من مجال الحركات المحلية إلى مجال الحركات العامة.

٢- الشاه إسماعيل الصفوى (١٤٨٨ – ١٥٢٤)

كان إسماعيل يدبر أموره على أساس أن القوة السياسية يجب أن تعتمد على قوة عسكرية مخلصة تربطها به قوة عقائدية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة فى الدفاع عن قائدها وعن معتقداتها. وحيث أن العصر كان عصر العصبيات العشائرية، وأن المذهب الشيعى كان قد بدأ ينتشر فى البلاد حينئذاك، وحيث أن إسماعيل كان من أصل تركى، فقد أصبح من اليسير عليه أن يعتمد على قوى عشائرية تركية متعصبة للمذهب الشيعى، وكانت هذه الصفات متوفرة فى القبائل التركية الساكنة فيما وراء القوقاز عند الشاطئ الجنوبى لبحر الخزر وإلى الغرب من خراسان وهذه القبائل عرفت باسم (القبائل السبعة) وهى:

١- اوستاجلو، ٢- شاملو ٣- تكالو، ٤- بهارلو، ٥- ذو القدر، ٦- قاجار، ٧- افشار.

وكانت هذه القبائل قد هاجرت من أواسط آسيا فى أول الأمر مع من كان يهاجر من السلاجقة، وأصبحت فيما بعد دعامة قوية من دعائم الشاه إسماعيل أولاً، ثم سندًا رئيسيًا للأسرة الصفوية. جمع إسماعيل لنفسه قوة عسكرية ليقوم بأولى عملياته التى مهدت له الطريق إلى عرش فارس، وكان حينذاك لا يزال فتيًا، فشن أول حملة ضد باكو وشماقة. وكان يهدف من وراء هجومه عليهما أن يؤسس لنفسه إقليما يستطيع أن ينطلق منه إلى ما وراءه. نجحت العمليات العسكرية الأولى التى قام بها فضاعف من قدراته العسكرية، وبدأ يهاجم قوات الآق قوينلو. وكانت هذه تعانى خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر فترة الاحتضار رغم اتساع ملكها من إيران إلى العراق. وانتصر إسماعيل على (الوند) أمير الآق قوينلو، وزحف بعد ذلك إلى تبريز واستولى عليها وأعلن نفسه هناك "شاهاً" على فارس. ثم انتصر بعد ذلك بوقت قصير على "الشاه على مراد" أخى "الوند" ولما استسلم إليه أعدمه (١٤٩٩) وانتهت الآق قوينلو كأسرة حاكمة فى إيران. وكان ارتقاء إسماعيل عرش فارس يختلف فى طبيعته عن ارتقاء أى من شاهات الإيلخانيين، أو الجلائريين أو من زعماء القره قوينلو، أو الآق قوينلو عرش فارس. فقد كان إسماعيل يجمع فى نفسه صفة الشاه و(المرشد الأكبر) للدعاة للمذهب الشيعى الاثنى عشرى، فهو زعيم روحى ودنيوى فى آن واحد، واتخذ من السيف والقلم والدعوة باللسان أساليب متكاملة لتحقيق أهدافه الخاصة والعامة. ومن هنا كانت أهمية حركته واعتلائه العرش الفارسى. فاتخذ من المذهب الشيعى الاثنى عشرى مذهبا رسميًا للدولة، وأخذ يوطده فى داخل فارس[I].

كان ارتقاء الشاه إسماعيل عرش فارس، لا يعنى أن الأمور قد توطدت، أو أن طموحه البعيد قد توقف عند هذا الحد ومن ناحية أخرى كانت الأمور من حوله تسير فى اتجاهات تفرض عليه أن يصطدم بها أو يعمل على تطويعها واخضاعها ليستمر مع أهدافه وآماله. فبصورة عامة كانت القوى المعادية للشاه الصفوى تحيط به. وكان عليه – إلى جانب الوصول إلى حدود آمنة – أن يشبع حماسه الدينى على حساب القوى الأخرى المناهضة للمذهب الشيعى. وكانت هذه القوى المناهضة تحيط بدولته من أكثر من جانب. وكان معنيًا عناية خاصة بنشر المذهب الشيعى، لا بين من يصادقه فقط، وإنما فى أراضى أعدائه أيضًا.

وكانت القوى المحيطة بفارس عند مطلع حكم الشاه إسماعيل[II]:

أ- فمن الغرب كان يوجد العراق، الذى لاذ به مراد بن يعقوب آخر أمراء الآق قوينلو، هذا فضلاً عما للعراق من مكانة مذهبية خاصة فى قلوب الشيعة، وإلى الشمال كانت توجد إمارة تابعة أيضًا للآق قوينلو يطمع فيها الشاه إسماعيل وهى إمارة البستان وكان عليها علاء الدولة.

ب- ومن جهة الشمال والغرب كان الأناضول قلب الدولة العثمانية الفتية، بلادًا تركية سنية مجاهدة فى البلقان ضد القوى الأوروبية.

جـ- فى مياه الخليج العربى فى أقصى الجنوب الغربى من بلاده ظهر الأسطول البرتغالى – بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح – كقوة تتحكم فى مقدرات الخليج بأسره.

د- من الشمال الشرقى كانت توجد قبائل الأوزبك بزعامة محمد الشيبانى الشديد البأس. وكان يسيطر على خراسان وعلى أجزاء من شمال شرقى فارس.

هـ- وإلى الشرق توجد القبائل الأفغانية الشديدة المراس النازلة فى مناطق صعبة المسالك.

كان على الشاه إسماعيل أن يصفى دولة الآق قوينلو سواء فى داخل فارس أو خارجها. وكانت هناك منطقتان احداهما العراق الذى اعتصم بها آخر أمراء هذا البيت المتداعى وهو مراد بن يعقوب، والمنطقة الأخرى هى البستان التى كانت إمارة صغيرة، هامة، تحت حكم علاء الدولة. وكانت حملة الشاه إسماعيل ضد علاء الدولة من أولى حملاته الهامة فيما وراء فارس. وقعت هذه الحملة فى عام ١٥٠٧، وتغلب فيها الشاه على الأمير، وأصبح هو المتنفذ فى الإمارة. ومنذ تفوق الشاه إسماعيل الصفوى فى البستان أصبح محتكًا احتكاكًا مباشرًا بأكبر قوتين فى هذا القسم فى الشرق الأدنى: (الأتراك العثمانيين، والمماليك). وكان العثمانيون يمتدون من طوروس والأناضول إلى قلب أوروبا الشرقية وكانوا فى جهاد ضدها، بينما كان المماليك يمتدون من طوروس والشام حتى مصر والحجاز، وكانوا فى جهاد ضد البرتغاليين فى المياه الجنوبية الإسلامية. فبدأ الشاه

إسماعيل بالاستيلاء على العراق (١٥٠٨). وكان استيلاء الشاه إسماعيل على العراق من أهم العوامل التى وجهت انظار الدولة العثمانية نحوه، وتحرك ضده السلطان سليم الأول وهزمه فى موقعة جالديران ١٥١٤. وقد اكتفى السلطان العثمانى سليم الأول بهذا الانتصار الكبير، ولم يشأ يتوغل فى قلب الهضبة الإيرانية مقتفيًا أثر الشاه إسماعيل وجيشه وذلك لعدة أسباب[liii]:

١- كانت وعورة مسالك الهضبة تعطى للشاه إسماعيل فرصة للنيل من الجيش العثمانى فتهدد بضياع ثمرة النصر على السلطان سليم وتطيل أمد الحرب الأمر الذى يعطى لمماليك مصر فرصة لإحراج مركز العثمانيين العسكرى والسياسى فى المنطقة.

٢- وقوع نوع من التمرد بين صفوف ضباط الجيش العثمانى على متابعة الحرب فى فارس بعد أن حقق السلطان هدفه وكسر شوكة إسماعيل الصفوى.

٣- السلطان سليم الأول نفسه كان يرى أن العمل فى الجبهة الشامية المصرية هو الذى يجب أن يستقطب كل جهوده.

أدى هذا إلى أن يستمر الشاه إسماعيل الصفوى قويًا فى داخل إيران ولكن مكانة الحكم الفارسى فى العراق كانت قد اهتزت بعنف فى بغداد. فقد أعلن حاكمها الولاء للسلطان العثمانى سليم الأول، وأصدر السلطان العثمانى مرسوما بذلك. ولم يستطع الشاه إسماعيل الصفوى أن يقوم بعمل جدى إزاء العراق حتى توفى ١٥٢٤.

مما سبق يتبين أن هزيمة الشاه إسماعيل الصفوى فى معركة جالديران كانت قاسية، ولكنها لم تكن قاتلة. ومن ناحية أخرى كان الحكم الصفوى يقوم على أساس عقائدى مذهبى. ولذلك لم يلبث أن استعاد الشاه كيانه، وجمع جيشه، واستعد لمناوشة العثمانين، وإن كان أضعف من أن يخوض الحرب المكشوفة مرة أخرى ضد العثمانيين. وشجعه على ذلك أن السلطان العثمانى لم ينتظر طويلاً بعد جالديران إذ شن حربًا على مماليك مصر وبعد انتصاره عليهم فى موقعة مرج دابق ١٥١٦، تتبعهم إلى مصر حتى استولى عليها. فكان غياب السلطان سليم فى مصر وطول مدة الحرب بين العثمانيين والمماليك (١٥١٦/ ١٥١٧) من أهم العوامل التى شجعت الشاه إسماعيل على التحرك مرة أخرى ضد السلطان سليم. ويعلل عدد كبير من المؤرخين عودة السلطان سليم من مصر إلى الأناضول فى وقت مبكر بأنه كان يريد العمل على علاج الموقف الناشئ عن تهديد الشاه إسماعيل الصفوى للأناضول أثناء غيابه عنه[liiii].

كان مجرد عودة السلطان سليم من مصر إلى الآستانة منتصراً كافياً لأن يكف الشاه عن مناوراته على الحدود الفارسية – حتى لا يعرض نفسه لحملة شاملة عثمانية أخرى. إلا أن الشاه لم يتوقف عن البحث عن حلفاء له ضد الدولة العثمانية التى أصبحت القوة الكبرى التى تحول بينه وبين الوصول إلى البحر المتوسط. وكان مستعدًا لأن يتحالف حتى مع البرتغاليين أشد القوى خطرًا على العالم الإسلامى حينذاك. وهكذا بينما كان البرتغاليون يخشون من وجود جبهة إسلامية قوية ضدهم فى المياه الإسلامية، وجدوا أن هناك من يريد أن يتعاون معهم. ومع أن ملك هرمز – الجزيرة الصغيرة التى أضيرت بشدة فى اقتصادياتها التجارية بمجئ البرتغاليين – وضع نفسه تحت سيادة الشاه لعل الأخير ينقذه من سطوة البرتغاليين المريعة، إلا أن الشاه وضع مصالحه الخاصة وحقده الشديد على الأتراك العثمانيين فى مقدمة أية تسوية أو تحالف مع البرتغاليين فلا غرو أن وافق على أن تظل هرمز تحت السيطرة البرتغالية فى مقابل حصوله على الإحساء. ولكن حتى هذه الفرصة لم يتحها البرتغاليون لحليفهم الشاه. وكانت النتيجة أن ساعدت سياسة الشاه هذه على تقوية التسلط البرتغالى على الخارج العربى[liv].

أما بالنسبة لعلاقة الشاه إسماعيل بالأوزبك فكانت سيطرة الشاه إسماعيل على إيران فى ١٥٠٠ لا تعنى أنه أصبح سيد البلاد كلها، بل ظلت الأجزاء الشرقية، والشمالية الشرقية وخاصة خراسان بعيدة عن متناول حكمه، ولهذا كان طبيعيًا أن يعد العدة لكى يضع يده على كل فارس. وأدى هذا إلى أن يصطدم الشاه بقوة فتية ناشئة إلى الشمال الشرقى منه وهى قوة الأوزبك بزعامة محمد الشيبانى. وكانت قبائل الأوزبك الرحالة تموج فى المناطق الشمالية الشرقية من فارس، وكانت وثنية ثم اعتنقت الإسلام على المذهب السنى. ونظرًا لتفكك هذه القبائل لم يكن لها تاريخ واضح حتى إذا ما استطاع (محمد الشيبانى) أن يسيطر على قسم كبير منهما برزت هذه القبائل فى تاريخ المنطقة. ويعتبر محمد شيبانى من أشهر زعماء الأوزبك، ويطلق عليه أيضًا (شاه بخت/ أى ملك الحظ). ولقد كانت تسنح له فعلاً فرص طيبة لابراز تفوقه، وكانت له مهارة فى انتهاز هذه الفرص، والأقدام عليها بجرأة وقوة، والجرأة والقوة هى من طابع الزعماء الذين يتولون أمور قبائل أو عشائر، خاصة فى ذلك الوقت.

استطاع محمد شيبانى أن يبنى ملكًا لنفسه على حساب الدولة التيمورية المحتضرة - وبذل جهوداً كبيرة حتى استولى على سمرقند (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠). ولكن سمرقند - عاصمة الأسرة التيمورية المحتضرة - كانت قد استنجدت بظهير الدين بابر - إمبراطور المغول فى الهند - وهو أيضًا من سلالة تيمورلنك. فلبى بابر النداء وصعد بجيوشه من الهند حتى سمرقند، وخلصها من يد محمد شيبانى ورجاله الأوزبك. ولم يكن شيبانى بالقائد الذى يتقاعس بعد الفشل، وإنما كان شديد الإصرار، خاصة وإن هناك من العوامل ما شجعته على أن يخوض جولة أخرى ضد بابر وجيوشه. وفى هذه الجولة الثانية كان النصر حليف شيبانى رغم استماتة بابر ورجاله فى القتال. وسقطت سمرقند للمرة الثانية فى يد شيبانى وزالت دولة التيموريين منها نهائيًا. وتابع شيبانى خطواته التوسعية، فمد سيطرته على (هراة) واستولى كذلك على خراسان.

وهكذا أصبح شيبانى وجهًا لوجه أمام قوة فتية جديدة فى إيران (الشاه إسماعيل) تكره أن ترى خراسان بالذات تحت حكم الأوزبك. فقد كان هناك تراشق مذهبى متطاول بين علماء (ما وراء النهر) السنة، وعلماء إيران الشيعة، وأصبح الصراع بين شيبانى والشاه، لا على الأرض فقط وإنما كذلك كان صراعًا عقائديًا، كل منهما يعتقد أنه هو الذى يسير على الحق. وأخذ محمد شيبانى فى استعلاء ظاهر يدعو الشاه إسماعيل إلى العودة إلى (إجماع أهل السنة)، مهددًا إياه بحرب ضروس فى قلب إيران ذاتها. وأصبحت الحرب لا مفر منها، وشرعت قوات الأزبك تهاجم أطراف إيران الشرقية وتتوغل فى البلاد[lv].

وبينما كان الشاه إسماعيل يعد قواته للزحف شمالاً لملاقاة جيش الأوزبك بقيادة محمد شيبانى، وقعت عدة تطورات سريعة أحرجت مركز زعيم الأوزبك أيما إحراج. فقد ثار أهالى فيرزكوه على شيبانى، وهؤلاء كانوا عبارة عن قبيلة إيرانية تقطن منطقة وعرة جبلية عجز شيبانى عن إخضاعها. بالإضافة إلى ذلك وقعت عدة اضطرابات ساعدت على تشتيت قوات شيبانى.

كان شيبانى يتصف بالجرأة والإقدام، ولكنه فى نفس الوقت لم يكن على مستوى عدوه إسماعيل من حيث الخداع والتكتيك. فاستغل إسماعيل صفات الجرأة والإقدام فى شيبانى وجره إلى ميدان معركة سيطر عليه إسماعيل بقواته سيطرة كاملة حتى أباد جيش شيبانى نفسه فى المعركة. لتدفن بقاياه فى مدرسته التى بناها فى سمرقند (٩١٩هـ - ١٥١٠م). وبسقوط شيبانى ضعفت دولته، وتعرضت لأخطار كبيرة من جانب الهند وفارس على حد سواء. فلم يتخل بابر - إمبراطور المغول - عن الاستحواذ على سمرقند وطن أجداده، وكان مستعدًا لأن يعيد الكرة بعد الكرة، وأن يضع يده فى يد القوى الأخرى المعادية للأوزبك. وكان الشاه إسماعيل الصفوى مستعدًا لأن يضع يده فى يد إمبراطور المغول، رغم اختلاف المذهب. فقد اتفق الشاه إسماعيل مع بابر - إمبراطور المغول - على أن يزود جيش المغول بما يلزمه من مؤن خلال العمليات العسكرية ضد الشيبانيين. فزحف بابر على رأس جيش كبير، واستولى على سمرقند مرة أخرى، إلا أن قائد الأوزبك الجديد كان رجلاً صعب المراس عرف كيف يستغل ظروف المنطقة لصالحه[lvi].

كان عبيد الله قد تولى زمام الأمر، وأعد جيش الأوزبك ليخوض معركة كبيرة ضد جيش إمبراطور المغول قرب بخارى. وهناك أنزل عبيدالله خان هزيمة قاسية بجيش بابر، استعاد فى أعقابها عبيدالله خان مدينة سمرقند فى ١٥١٢م. كانت هزيمة بابر تلك تعنى أن الأوزبك استعادوا قدرتهم على توجيه الضربات إلى الأجزاء الشمالية الشرقية لإيران، هذا فضلاً عن أن تلك الهزيمة كانت تعنى كذلك ضياع آمال الشاه إسماعيل فى السيطرة على تلك الأقاليم الشرقية. وإذا كانت الأمال معقودة فى تحقيق هذا الهدف على تحالف قوى بين إمبراطور المغول، والشاه الفارسى، فإن تحقيق تلك الآمال سيصبح بعيد المنال لو تمكنت القوات الأوزبكية من الأنفراد بالجيش المغولى وإرغامه على الانسحاب من الحرب. وكان الشاه إسماعيل الصفوى يدرك قيمة هذا التعاون، ويدرك أن هذه الفرصة على جانب عظيم من الأهمية ويجب انتهازها لقيام تعاون عسكرى كبير بين المغول والفرس قبل أن يصبح عبيدالله خان فى مركز يستطيع منه أن يرغم المغول على الخروج نهائيًا من الحرب أو أن يصبح قادرًا على أن يضرب هذا الطرف تارة وذاك تارة أخرى. لهذا كله أسرع الشاه إسماعيل إلى إرسال النجدات القوية إلى جيش بابر. والتقى الحليفان فعلا عند "ترمذ"، وبدا أن كفة الحرب ستتحول بسرعة ضد عبيدالله خان. ولقد كان الأمر كذلك فى البداية. وأحرز الحليفان نصرًا عندما استولت جيوشهما على مدينة "قارشى". ولكن كان الاستيلاء على هذه المدينة وما وقع لحاميتها على يد "نجم ثانى"- القائد الفارسى من العوامل التى أدت إلى تحول جوهرى فى الموقف[lvii].

كان قائد حامية (قارشى) من أبناء عمومة عبيدالله خان، ولما وجد أن الدفاع عنها أصبح مستحيلاً، استسلم وسلم المدينة فما كان من "نجم ثانى" إلا أن قتل كافة رجال الحامية، وسكان المدينة. فكان لذلك صداه العميق لدى بابر.

ولقد كان التحالف بين بابر والشاه إسماعيل تحالفاً محدود الأهداف، لمجرد كسر شوكة الأوزبك، واستعادة بابر عاصمة التيموريين. وكانت الأهداف العاطفية الأسرية هى التى تحث بابر على إرسال الجيوش ضد الأوزبك، وكان بعد المسافة، يرغمه على أن يتعاون مع القوة الأخرى المناهضة للأوزبك. ولكن لم يكن هناك تقارب مذهبى بين المغول والفرس، فى وقت كانت فيه للفكرة المذهبية أهمية بالغة فى عقد التحالفات أو شن الحروب. لقد كان بابر مسلماً غير متعصب، كانت له آفاقه الفكرية البعيدة عن نظرية التعصب المذهبى، بعكس الشاه إسماعيل الصفوى. ولذلك طالما كانت المصلحة المشتركة - وهى العمل ضد الأورزبك - قائمة ظل هناك تحالف بين بابر والشاه إسماعيل، على ألا تظهر خلال ذلك مشكلات مذهبية أو إنسانية بين الرجلين. فلما تجلت قسوة، القائد الفارسى (نجم ثانى) إزاء أهل (قارشى) وأنها قسوة صادرة عن نفس متعصبة كل التعصب لمذهبها بدا لبابر أن هذا التحالف مع المتعصبين يجب أن ينحل. خاصة وأن هذا لم يكن رأى بابر وحده، بل كانت كل عشائر وسط آسيا تنظر فى وحل وخوف شديدين، إلى توسع الشاه الصفوى، إذ كانوا يقدرون أن هذا التوسع ليس مجرد ظهور فاتح جديد، أو تولى ملك عليهم بقوة السلاح فقط، وإنما كانوا يدركون أن وراء ذلك سيفًا سيكون مسلطا على رقابهم باستمرار إذا هم ظلوا متمسكين بمذهبهم السنى. لقد كانت الظروف تلح على بابر أن يعيد النظر فى التحالف مع الشاه، ولم يلبث أن قطع علاقاته معه وغادر المنطقة إلى الهند، ليتصارع الأوزبك والفرس عليها[lviii].

ويبدو أن "نجم ثانى" كان قائد معزورًا، ولم يدرك أن قدراته العسكرية - بعد رحيل المغول - أصبحت أوهن من أن تتفق على الأوزبك فى أرضهم. فتابع مهاجمته للقلاع الأوزبكية، وأحرز عدة انتصارات محلية. وكان الأوزبك يراقبونه عن كثب، ويفسحون له الطرق ليتوغل داخل بلادهم حتى إذا ما نزل فى منطقة أحكم الأوزبك دراستها، أطبقوا عليه، وكان جنده قد أرهقهم طول المسير، فدارت معركة كانت أقرب إلى المذبحة منها إلى الكر والفر وسقط (نجم ثانى) نفسه صريعًا، فى هذه المعركة التى عرفت باسم معركة غجديوان (١٥١٣). ولكن المنتصرين فى هذه المعركة لم يكونوا جيشًا ضخمًا، ولم يكن المنهزمون يمثلون جيش فارس كلها، ومن ثم كان لا بد من معارك أخرى طاحنة بين الطرفين.

أدى انتصار عبيدالله خان فى غجديوان إلى النتائج التالية[lix]:

١- لقد بدأ واضحًا أن التعصب الدموى الشيعى ضد السنة الأوزبك يجب أن يواجه بتعصب مذهبى مماثل. وكان أن تصاعدت حرب التدمير والتقتيل والإبادة بين الطرفين.

٢- كانت هزيمة القائد الفارسى (نجم ثانى) تعنى أن بلاد الأوزبك قد تحررت من الفرس، وفعلاً أصبحت مساحة البلاد التى يحكمها عبيدالله خان بعد موقعة غجديوان تعادل تقريبًا تلك التى كان يحكمها محمد شيبانى فى أوج قوته.

٣- شجع ذلك الأوزبك على اجتياح أقاليم فارس الشمالية الشرقية، وخاصة خراسان. وفعلا بدأ الضغط الأوزبكى الشديد على تلك الأقاليم فى وقت كان فيه الشاه إسماعيل يواجه أدق فترة من تاريخ حكمه عندما تولى السلطان العثمانى سليم الأول العرش فى ١٥١٢ وشن حملته ضد الفرس وانتصر عليهم فى موقعة جالديران (١٥١٤).

وقبيل وقوع هذه المعركة كان هناك زحف كبير يقوم به الأوزبك فى أقاليم فارس الشرقية. ودخلت جموع الأوزبك خراسان وأخذوا يخربون مدنها وقراها وينهبونها.

ولكن بعد هزيمة جالديران تغير الموقف. فقد أصيب الجيش الفارسى بضعف شديد، إذ تحطمت قوته الرئيسية فى تلك المعركة. وكان المعتقد أن عبيد الله خان سيجد الطريق إلى النصر - بعد ذلك - سهلاً. وفعلا قام جيش الأوزبك بزحف كبير فى اتجاه فارس. واستولى على ما هو شرقى هراة، ثم ضرب الحصار على هذه المدينة ذات الموقع الاستراتيجى المهم بالنسبة لفارس بصفة خاصة. ولقد أبرز الأوزبك الكثير من ضروب الشجاعة والجرأة التى اتصفوا بها، كما كان الحماس المذهبى يحثهم على العمل على تقويض القوى الشيعية التى تتصدى لهم وضربها بشدة،

ونهب الأراضى التى تقع تحت يدهم وتخريبها. ورغم كل هـذه الجهـود، لم يحـرز الأوزبـك نصرًا واضـحًا. ومـع هـذا سـاروا فى عمليـاتهم التدميرية وزادوا منها فى أعقاب وفاة الشاه إسماعيل الصفوى فى ١٥٢٤م. وأغلب الظن أن الأوزبك اعتقدوا أن وفاة الشاه إسـماعيل سـتهز كيـان فارس هزا عنيفًا، وأن دولته ستتقوض من الداخل، وأن الفوضى ستجتاحها فتكون فرصة للاجهاز عليها بواسطة جيش الأوزبك، أو على الأقل يكون فى استطاعة الأوزبك أن يضموا إليهم أقاليم شرق فارس التى يتطلع إليها زعماء الأوزبك باستمرار. ولهذا شن عبيدالله خان حملات ضارية استولى بها على "مرو" و"مشهد" و"استراباد"، ولكن دون أن يحرزوا نصرًا يفتح أمـامهم الطـرق المؤديـة إلى قلـب فـارس، والسـبب فى هـذا يرجـع إلى أن الأزبك بالغوا جدًا فى النتائج المترتبة عن وفاة الشاه إسماعيل الصفوى، ولم يدركوا أن الرجل كان من بناة الأمم، وأن الأسس التى أقام عليها دولته كانت كفيلة بأن تستمر من بعده وأن تمد خليفته بمقومات النهوض من الكبوة، والظهور مرة أخرى كقـوة كبـيرة فى المنطقـة. هـذا فضـلاً عـن أن مقومات فارس الطبيعية والبشرية والاقتصادية قادرة على إعادة تكوين نفسها كدولة بعد كل تدهور، ولذلك سـيعود الصراع عنيفًـا بـين الفـرس والأوزبك بعد وفاة الشاه إسماعيل، وسيتولى قيادة فارس فى الجولات القادمة ابنه طهمسب[lx].

٣- الشاة طهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦)

خلف طهماسب أباه إسماعيل وهو فى العاشرة، استمر فى حكم البلاد نحو اثنين وخمسين عامًا ونصف حفلت خلالها إيران بالحروب المتصلة ضد أعدائه وهما الأوزبك فى الشرق، والعثمانيين فى الغرب[lxi]، رغم صغر سنه، وتولى زعماء القرلباش مهمة إدارة الدولة حتى يتولاها هـو بنفسـه مما يؤدى إلى وجود أكثر من زعيم أو أكثر من رأى لكن تغلب على ذلك.

فالنسبة لحرب طهماسب ضد الأوزبك فكانت من أولى جهوده خارج إيران وكانت معظم الظروف غـير مواتيـة لإحـراز نجـاح كبـير، ولكـن عبيدالله خان، كان يدرك أن ارتقاء طهمسب العرش وهو لا يزال صغير السن سيدفعه إلى أن يثبت ذاته وقدراته، وأن الرجال الملتفـين حولـه كـل سيحاول أن يثبت له مدى إخلاصه للعرش عن طريق حملة كبيرة ناجحة. ومثل هذه الحملة تكون فى الغالب إلى الأوزبك على اعتبار أنهـم كـانوا الخطر المباشر المهدد لفارس حينذاك. هذا التوقع، جعل عبيدالله خان، وزعماء الأوزبك يعملون على حشد جيوش كبيرة لمواجهة الغـزو الفـارسى المنتظر. وكان عبيدالله خان يرى أن الهجوم فى مثل هذه الأحوال خير له من البقاء فى موقف الدفاع فقاد جيشه إلى خراسـان فى (١٥٢٨). وكانـت الحملة الرابعة التى شنها عبيدالله على خراسان، ولكنها اختلفت عن سابقاتها من حيث ضخامة الحشود، واشـترك الغالبيـة العظمـى مـن عشـائر الأوزبك فيها. وزحفت هذه الجيوش إلى المنطقة الفاصلة بين أفغانستان وفارس لتلتقى بجيش الفرس فى سهل هنـاك معـروف باسـم "جـام وزور آباد"، ووقعت المعركة ولكنها كانت موقعة من طراز جديد لم تشهده أقاليم وسط آسيا. لقد كان تشكيل جيش الأوزبك هو نفسه الذى كان عليه زمن محمد الشيبانى، جيش يعتمد على القوى العشائرية، وعلى القيادة والإقدام، أما الجيش الفارسى المستعد لمعركة (جام وزور آبـاد) فقـد كـان مختلفًا عن ذلك الجيش الذى قاتل جيش محمد الشيبانى وعن ذلك الجيش الذى انهزم فى موقعة جالديران أمام السلطان سليم العثمانى[lxii].

ورغم ما حققه طهماسب فى هذه المعركة إلا أنه لم يستطع ضرب الأوزبك فى عقر دارهم لأن ذلك يتطلب خطـة يحتـاج لتنفيـذها نفقـات باهظة وجهود كبيرة لا يكتسب من ورائها الشاه الصفوى إلا أرضًا معادية مرهقة لقوات الاحتلال، ويظهر من ذلك ما يلى:[lxiii].

١- أن الأوزبك من بعد محمد شيبانى كانوا قادرين فقط على الحفاظ على دولتهم دون أن يتحولوا من المحافظة على الدولة إلى توسيعها، فأصبح موقفهم دفاعيًا أكثر منه هجوميًا. وتلك الهجمات التى كانوا يشـنونها عـلى الأقـاليم الشرـقية الفارسـية كانـت أشـبه بالغـارات الكبيرة التى لا تهدف إلى استمرار السيطرة بقدر ما تهدف إلى النهب والسلب.

٢- أن قدرات الدولة الفارسية انتقلت من مرحلة القوقعة بعد جالديران إلى مرحلة التوسع مستخدمة الأسلحة النارية، وأصبحت قادرة – إلى حد ما – على أن تقاتل فى الجبهتين الشرقية والغربية. ومع أن طهمسب خسر العـراق نهائيًـا، إلا أن هـذا كـان يعنـى أن جيشـه فى الجبهة الغربية أصبح قادرًا على دعم جيش الجبهة الشرقية وقادرًا على أن يسهم فى منع عبث القوات الأوزبكية بتلك الأقاليم الشرقية بل وعلى نقل القتال إلى قلب أراضى الأوزبك أنفسهم.

٣- بعد أن عقد طهمسب الصلح مع العثمانيين، أصبحت الجبهة الفارسية آمنة ولم تعد فارس مهددة بخطر الحرب فى جبهتين واسعتين فى آن واحد، بل لقد أصبح الأوزبك مهددين بأن يجدوا أنفسهم فجأة معرضين لغزوات من الشرق ومن الغرب فى آن واحد. فقد أدى تدهور دولة الشيبانيين إلى أن تطمع فيها القوى المجاورة لهم من الشرق ولكن استطاعت قوى الأوزبك أن تثبت وسط هذه العواصف لفترة ليست بالقصيرة حتى واجهت الشاه عباس الأول.

ولا شك أن هذا الهدوء فى الجبهة الشرقية وطول الحروب بين الفرس والعثمانيين قد حث طهمسب على عقد صلح مع السلطان العثمانى سليمان القانونى. وقد كانت الظروف مهيأة لعقد صلح آماسيا فى ١٥٥٤ وهو يكشف عن بعض نيات وآمال الطرفين. فتنص اتفاقية الصلح على ما يلى:

١- تترك ولاية قارص وقلعتها للدولة العثمانية.

٢- تحدد حدود ولاية شهرزور منعًا لوقوع الحوادث المعكرة لصفو السلام بين الدولتين.

٣- تأمين سلامة الحجاج الفرس الذاهبين إلى زيارة العتبات الشيعية المقدسة فى العراق وإلى الأراضى الإسلامية المقدسة فى الحجاز.

سارت العلاقات بين طهمسب وسليمان القانونى على نوع من الهدوء. وكان الطرفان يريدان هذا الهدوء فعلاً ليتفرغ كل منهما لمواجهة المشكلات الكبرى. وبدت هذه العلاقات طيبة عندما فر بايزيد بن السلطان سليمان إلى طهمسب ومعه عدة كتائب عسكرية فى عام١٥٥٩. ومع أن طهمسب استقبله بحفاوة إلا أنه سرعان ما أدرك أن الرجل لن يفيده كثيراً وأن أباه سليمان القانونى قوى الشكيمة. ولذلك نجحت المفاوضات التى دارت بين الطرفين العثمانى والفارسى لتسليم بايزيد إلى أبيه فى مقابل مبلغ كبير من الذهب وتمت الصفقة، ودخل الذهب خزينة الشاه وألقى بايزيد فى قبره بعد أن أمر والده سليمان بقتله.

وهناك حادثة أخرى بينت أن الشاه طهمسب كان معنيًا بالإبقاء على هدوء العلاقات بينه وبين السلطان سليمان القانونى. فقبيل وفاة طهمسب جاءه سفير من البندقية يحذر من أن العثمانيين يستعدون للاستيلاء على قبرص. وكان هذا فى الواقع ضربة قاسية للبندقية جعلها تسعى إلى التحالف مع أعداء السلطان بأى شكل ولما كانت أوروبا مشغولة بأمورها عن استصراخات البندقية بها، اتجهت البندقية إلى حث الفرس على التحالف معها. ولكن كانت الانتصارات العثمانية الكبيرة فى أوروبا الشرقية وفى فارس تحول دون أن يصل البنادقة إلى أى نتيجة مجدية فى هذا الصدد. فلم يتحرك طهمسب رغم تشديد البنادقة على أن قبرص إن سقطت، فإن الهدف الثانى للعثمانيين سيكون فارس نفسها[lxiv].

كان الجزء الأخير من حياة طهمسب على نوع من الهدوء السياسى وكانت فى نفس الوقت عوامل الفوضى والاضطراب تتجمع. وطهمسب نفسه مسئول عن كثير من الاضطرابات التى وقعت من بعد وفاته فى ١٥٧٦م. ففى ١٥٧١م وقعت مجاعة كبيرة مروعة فى البلاد صاحبها طاعون كان يبيد بعض القرى ويخرب القوى البشرية، ورغم هذا كله ظل الشاه منهمكًا فى أشغاله الخاصة وبأمواله دون أن يلتفت إلى شعبه فى هذه المحنة.

وكانت معاملة الشاه لأولاده على نفس الأسلوب الذى كان سائدًا لدى البلاط الإسلامى فى الآستانة. كانت هناك عداوة مريرة بين الشاه وأولاده. ولعل ذلك كان أقوى الأسباب فى أن يلقى الشاه طهمسب مصرعه بالسم فى ١٥٧٦م[lxv].

توفى طهماسب فى سنة ١٥٧٦ دون أن يسمى خليفة تاركًا كل من ابنه محمد خُدَابَنْدَه الذى أقام فى هراة من سنة ١٥٣٦ – ١٥٥٦م بوصفه حاكمًا عليها، والذى اضطر إلى أن يتخلى عن مركزه هذا، ويتولى حكم شيراز بسبب نزاع نشب بينه وبين أحد الموظفين الكبار لكن ابنه هذا فقد البصر فأقصى عن خلافة أبيه جريًا على العادة الغالبة فى بلاد الشرق. وكذا ابنه الثانى إسماعيل الذى كان على نقيض والده وأخيه فكان مفعمًا بالعزيمة العسكرية محبًا إلى القزل باش فقد سبق أن لمع نجمه فى الحروب التى خاضها قومه ضد العثمانيين، وفى العمل الجرئ الناجح الذى قام به ضد حاكم أرضروم اسكندر باشا سنة ١٥٥٢ بخاصة حتى إذا عهد إليه سنة ١٥٥٦ فى الولاية على خراسان خلفًا لأخيه الأكبر استثار شكوك أبيه بما أظهره من استقلال فى العمل العسكرى، وتفرد فى رسم الخطة له فأمر بحبسه سنة ١٥٥٧م فى قلعة قهقهة فى جبل سولان بين أردبيل وتبريز،

وكان لطهماسب سبعة أولاد آخرين أحبهم إليه ابنه حيدر، وكان قد أمر بسفيره لدى الباب العالى بأن يقنع الدولة العثمانية بالأ تعارض فى ارتقاء حيدر العرش وإنما أيده فريق الكرج فى البلاط، وقبيلة استاجلو من بين القزل باش، وحظى فوق ذلك بتأييد رعاياه الفرس من غير شك، ولكن أنصار إسماعيل وقفوا بقيادة أخته لأمه بيرى خان خانم إلى أن يستولوا على القصر فى العاصمة قزوين، ويفتكوا بحيدر قبل أن ينجو إسماعيل من محبسه[lxvi].

لا شك أن مدة الحبس التى قضاها نحو ربع قرن والتى عانى فيها من الشعور بالمرارة جعلته قاسيًا غليظ القلب حتى على أقرب الناس إليه لاسيما من أفراد أسرته إذ قتلهم جميعًا، وقضى على العديد من أعيان دولته ومن ثم جاءت مدة حكمه قصيرة عانت إيران خلالها من المآسى وانتهى الأمر بمصرعه سنة ١٥٧٨م[lxvii].

٤- الشاه عباس الكبير (١٥٨٧ - ١٦٢٩)

تولى عباس الحكم فترة طويلة قدرت بنحو أربعين عامًا لكن قدر له أن يصارع أشد المنافسين له فى تلك الفترة وهما على قولى خان زعيم الشاملو، ومرشد قولى خان زعيم الاوستجلو، وقد أدى هذا الصراع بين هذين الزعيمين إلى أن يضعف كل منهما الآخر، ويتمكن الشاه عباس من أن يضع الأمور تدريجيًا فى يده هو وحده. وكان العثمانيون - فى أوائل عهد عباس - قد هزموا الفرس وتوسعوا على حسابهم فى لورستان، وخوزستان بينما كان الأوزبك يقومون بغزوات جديدة للأقاليم الشرقية الفارسية، لذا قرر عباس عقد صلحًا مع العثمانيين حتى لا يصبح مهددًا بحربين متباعدتين فى آن واحد، فتم عقد معاهدة فرهاد باشا عام ١٥٩٠ وبمقتضاها:

١- تنازل الشاه عن تبريز، وشيروان، وجورجيا، ولورستان.

٢- عدم قيام الإيرانيين بالاستفزازات العقائدية.

٣- يبقى حيدر ميرزا أحد أبناء طهماسب (ابن أخى الشاه) رهينة فى الآستانة حتى لا ينكث الشاه بتعهداته.

مواجهة الأوزبك

جاءت وفاة طهمسب فرصة كبيرة أمام الأوزبك، بسبب التنافس الذى وقع فى البلاط الفارسى من بعده، وهو تنافس لم يهدأ إلا بارتقاء الشاه عباس الكبير عرش البلاد فاستولى عبدالله خان - زعيم الأوزبك - على (هراة)، وأنزل الدمار بخراسان، ثم استولى عبدالمنعم بن عبدالله على (مشهد) وبها ضريح الأمام الرضا فأعمل جند الأوزبك سيوفهم فى المدينة ونهبوها وأصبح عبدالله خان مسيطرًا على بلاد الأوزبك بالإضافة إلى هراة ومشهد ومرو فضلاً عن خراسان التى تعتبر شوكة غائرة فى جسد الدولة الصفوية. وكان هذا ذروة مجد عبدالله خان وبدأت الأمور تسير ضده من مختلف الجوانب[lxviii]:

أ- فقد ثار عليه ابنه عبدالمنعم ووقعت البلاد فى حرب أهلية.

ب- اندحرت قواته باستمرار أمام غزو عشائرى من الشمال قام به (القالموق).

جـ- انضمام أمراء خوارزم (الأوزبك) إلى الشاه عباس ضد عبدالله خان. حيث أن عبدالله خان كان يضغط بقوة على بنى عمومته فى خوارزم فتحالف هؤلاء مع ألد أعداء عبدالله، وكان طبيعيًا أن يرحب الشاه عباس بهذا التحالف الذى يهدد الدولة الأوزبكية تهديدًا مباشرًا. وبدأ عبدالله خان يفقد الكثير من أرضه أمام الشاه عباس حتى مات عبدالله فى ١٠٠٦هـ/ فبراير ١٥٩٧ فى الفترة التى كان فيها نجم الشاه عباس يصعد.

بل لقد وقعت فتن كبيرة بعد موت عبدالله خان، فإن ابنه عبدالمنعم - الغليظ القلب - لم يلبث أن قتله بعض رجاله وتصارع الطامعون من بعده على العرش. فلا غرو أن هزم الشاه عباس الأوزبك هزيمة دموية. وأصبحت الدولة الأوزبكية معرضة من جراء تلك التطورات إلى الانهيار. وأغلب الظن أن بقاء دولة الأوزبك لسنوات أخرى حول بخارى يرجع إلى عدد من الملوك عنوا بالسلم أكثر من الحرب، وأن كان هذا لا

يعنى تعرض البلاد من وقت لآخر لحروب أهلية. ولكنها على أى حال لم يعد لها ذلك المجد الكبير الذى كان على أيام محمد شيبانى وعبيد الله(lxix).

الاستحواذ على العراق

انتهز عباس الفرصة عندما قام آفراسياب بشراء حكم البصرة فى سنة ١٥٩٦ من واليها العثمانى، وأن يؤسس فيها أسرة حاكمة امتدت إلى سنة ١٦٦٢ مما يعنى الانفصال عن الدولة العثمانية والذى حدث بالفعل فى بغداد عندما قام أبوبكر الصوباشى أحد ضباط حامية الإنكشارية بها فى سنة ١٦٢١ بالخضوع للشاه عباس معلنًا خيانته للعثمانيين فكانت فرصة ذهبية انتهزها الشاه وبعث بجيش كبير إلى العراق السيطرة على فى فتح البصرة لأهميتها الاقتصادية(lxx).

يضاف إلى ذلك نجح الشاه عباس فى فرض سيطرته على القوقاز، وعزّز الحدود فى الشرق حتى مرو، وبلخ، وفى سنة ١٦٢٢ انتزع بمساعدة بعض السفن الحربية الإنجليزية جزيرة هُرمز فى الخليج الفارسى من أيدى البرتغاليين. وأنشأ قاعدة تجارية جديدة فى ثغر كمرُون خلع عليها اسم بَندَر عباس. ثم نقل العاصمة إلى أصفهان بعد أن كانت قزوين نظرًا لم لحق بها من خراب أثناء الحروب، وقد أبدى عباس اهتمامًا كبيرًا بالعاصمة الجديدة من تشييد المبانى، وزراعة البساتين، إلى جانب اهتمامه بالحياة الفكرية فعنى بالفلسفة، والعلوم الطبيعية، والفقه، وأصبح بلاطه مقصدًا للعلماء مثل بهاء الدين العاملى، وهو عالم متعدد الجوانب الثقافية، والفيلسوف الكبير صدر الدين الشيرازى الذى لا تزال فلسفته الإلهية ذات أثر بوصفها عنصرًا فى تكوين عقيدة (الباب) أو (الدين البهائى) الجديد فقد آثر حياة التأمل فى مدينة قم المقدسة كذلك ازدهر الشعر، والموسيقى فى عهده أيضًا(lxxi).

وهذا يعنى أن شهرة الشاه عباس لا تكمن فقط فى انتصاراته العسكرية، وإنما كذلك فى إصلاحاته الإدارية، وفى العناية بخطوط المواصلات عبر الإمبراطورية، إذ شيد العديد من الخانات، على طول طرق القوافل.

ولا شك أن تسامحه الدينى كان عاملاً جوهريًا فى نمو عاصمته، ونمو التجارة الأوروبية فى البلاد لكن فى الوقت نفسه كان متشبثًا كل التشبث بالمذهب الشيعى الاثنى عشرى، ولكن تفكيره بدأ يتحول إلى نوع من الإقليمية حتى فى مجال التعصب للمذهب الذى يعتنقه فقد كان يلح فى جعل مشهد وبها ضريح الإمام الرضا – المزار الأول المقدس للشيعة. فكان يذهب إليه ماشيًا على قدميه قاطعًا مئات الأميال فى سبيل الدعاية لتحقيق هدفه المذهبى الذى كان وراءه دوافع اقتصادية وسياسية واضحة.

وعليه فان تحويل تيار الحج من العتبات المقدسة العراقية إلى مشهد يبقى على كميات ضخمة من النقد الذهبى والفضى فى داخل البلاد، فضلاً عن أن ذلك سيجلب أعدادًا أكبر من الحجاج الشيعة إلى مشهد. وهذا كله بالتالى يؤدى إلى حرمان العراق العثماني من الدخل الكبير الذى كان يحصل عليه من وراء قوافل الحجاج الفرس التى كانت تتوافد على العراق. وبينما كان الشاه عباس ناجحًا إلى حد بعيد فى سياساته الخارجية، كانت معاملته لأفراد أسرته، وحتى معاملته لأولاده تدل على تطرف شديد للغاية، وإن كان هذا التطرف قد أصبح مألوفًا فى البلاطات الإسلامية فى القرن السادس عشر المغولية والعثمانية بصفة خاصة، فقد قتل الشاه عباس الكبير ابنه (صفى ميرزا) وسمل عينى اثنين آخرين من أولاده. لقد كان الشاه الكبير يخشى من صميم قلبه أن يظهر من أسرته من فرض نفسه عليه وينتزع العرش منه. وكانت سياسة تلك من الشدة والقوة لدرجة أعمت الشاه نفسه عن الكوارث التى ستحل بدولته من بعده حيث لن نجد من هو كفء ليتولى الحكم من بعده، وهذا ما حدث فعلاً. فقد أوصى بان يخلفه على العرش حفيده (صفى) الذى حكم فارس (١٦٢٩ – ١٦٤٢) ولكن متأثرًا بفظاظة جده وسار على خطته (lxxii).

فبعد أن وضع مقاليد الحكم فى يده، أمسك صفى بالسيف وانهال به على أفراد أسرته أمراء كانوا أم أميرات. وقتل الغالبية العظمى من مستشارى جده، حتى لقد قتل أمام قولى خان المخطط الحقيقى لطرد البرتغاليين من هرمز، وكان طبيعى أن تسير الدولة الفارسية نحو الانحدار فى عهد خلفاء الشاه عباس: وهم صفى (١٦٢٩ – ١٦٤٢) وعباس الثانى (١٦٤٢ – ١٦٦٧) وسليمان (١٦٦٧ – ١٦٩٤) وحسين ١٦٩٤ – ١٧٢٢). ومن أهم الأحداث الرئيسية التى وقعت أيام الشاه صفى تلك الحملة الكبرى التى شنها السلطان مراد الرابع لاسترداد العراق ١٦٣٨.

أما عباس الثانى فقد عاش فى اللهو دون أن يلتفت إلى مصالح الدولة إلا قليلاً. ولم يحرك الشاه سليمان ساكنًا عندما علم أن الهولنديين استولوا على قشم، ولا عندما سمع عن اجتياح غارات الأوزبك لإقليم خراسان، ولا عندما هدد أسطول اليعاربة - الذين حرروا بلادهم من البرتغاليين - ميناء بندر عباس نفسه. إذ فضل حياة الحريم على مسئولياته كحاكم أعلى البلاد. وعاشت إيران فترة هدوء أيام الشاه سلطان حسين، ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة. وعندما هبت العاصفة لم يكن فى مقدور رجالات الفرس أن يتصدوا لها، ونعنى بذلك الغزوة الأفغانية الكبرى لفارس[lxxiii].

وإذا ما قمنا بعملية تقييم للأسرة الصفوية فإننا نجدها[lxxiv]:

١- أن الأسرة الصفوية بدأت على يد شخصية مؤسسة نشطة (الشاه إسماعيل)، وبلغت الذروة أيام عباس الأول الذى وطد دعائمها، وبعدها أخذت تنهار حتى سقطت فى عام ١٧٢٢. وهذا هو شأن الأسرات الحاكمة.

٢- أن الأسرة الصفوية لم تكن ذات أهداف توسعية كبرى كتلك التى كانت لدى جارتها الدولة العثمانية، وكانت غزوات الأسرة الصفوية خارج إيران لا تتعدى العراق وأفغانستان والأوزبك.

٣- ركزت هذه الأسرة المذهب الشيعى الاثنى عشرى على أساس سياسى يكاد أن يتخذ شكلاً قوميًا. الأمر الذى منح هذه الأسرة مكانة مهمة فى قلوب الشعب وفى تاريخه.

٤- أن هذه الأسرة كانت تسير على أساس الحكم المطلق الإسلامى فى القرون الأخيرة الذى يعطى الشاه كل السلطات دون أن تكون هناك مؤسسات لتراجعه.

٥- أن عهد الأسرة الصفوية جعل من إيران حدًا فاصلاً بين قوى السنة فى الشرق منها وقوى السنة فى الغرب منها.

٦- أن تعاون الأسرة الصفوية أو رغبتها فى التعاون مع الأوروبيين ضد الدولة العثمانية جعلها - بمقارنتها بالدولة العثمانية - فى الدرجة الثانية فى ترتيب الدول الإسلامية الكبرى[lxxv].

ثالثًا- إيران (١٩٢٥ - ١٩٧٩)

١- رضا بهلوى (١٩٢٥ - ١٩٤١).

بعد سقوط الأسرة القاجارية التى حكمت إيران لمدة ١٣٤ سنة و٤ أشهر وعدة أيام تم تأسيس الأسرة البهلوية فى أواخر عام ١٩٢٥ على يد رضا بهلوى فانتقل بصحبة والدته نوش آفرين وهى قفقاسية الأصل إلى طهران حيث تمتع برعاية خاله وحنانه خاصة بعد أن تزوجت أمه ثانية. وفى صغره أودعه خاله لدى أسرة الجنرال أمير تومان كاظم خان الذى كان على معرفة بعائلته، فعاش رضا وتعلم مع أولاده. ومنذ ذلك الوقت بدت علامات الجد عليه، فكما يروى عنه أنه نادراً ما كان يبتسم فى طفولته، وكان دؤوباً، نشطاً، حتى قيل عنه فيما بعد أنه كان يعمل ما بين عشر واثنتى عشرة ساعة فى اليوم. وكتقليد عائلى ترعرع رضا فى جو عسكرى، فقد كان والده ضابطًا بلغ مرتبة الكولونيل (العقيد) قبل مماته وكان جده على خان هو الاخر ضابطًا لقى حتفه فى ميدان القتال أثناء حملة بلاده على هرات داخل أفغانستان فى أواخر عهد فتح على شاه ثانى ملوك القاجار. وعندما بلغ رضا الخامسة عشرة من عمره فى عام ١٨٩٣ أدخله خاله فى إحدى كتائب فرق القوزاق الجديدة بطهران[lxxvi].

دخل رضا القوزاق جنديًا بسيطًا، لكنه تدرج فى سلكه بسرعة خاصة بعد العام ١٩٠٣ وذلك لما اثبت من كفاءة وجرأة. ففى أول ترقية له أصبح أونباشيًا (قائد عشرة) ومن ثم أصبح "وكيل راست" أى عريفًا، وبعد عشر سنوات من الخدمة أصبح رئيس عرفاء. وفى السنة نفسها تزوج للمرة الأولى إلا أن زوجته تلك لم تأت له سوى ببنت اختفت عن الأنظار منذ عام ١٩٢٤. لكنه تزوج للمرة الثانية من ابنة القائد العسكرى تيمورخان مير بنج الذى كان ينتمى إلى أسرة قفقاسية الأصل وزوجته الثانية هذه هى التى أصبحت أول ملكة بهلوية باسم تاج ملك وانجبت له فى تشرين الأول ١٩١٩ ولى عهده محمد الذى أصبح الشاه الثانى والأخير فى الأسرة البهلوية، وبعد العام ١٩٠٣ اشترك رئيس العرفاء رضا فى عدة

حملات عسكرية ضد حركات معادية للسلطة المركزية أبدى فى جميعها صنوف الشجاعة، فرقى أثر الحملة على شاهاباد إلى رتبة ملازم. وفى العام ١٩١١ اشترك فى الحملة ضد سالار الدولة شقيق محمد على شاه المخلوع وعم أحمد شاه فرقى إلى مرتبة ملازم ثان ورئيس وحدة. وبعد سنة واحدة فقط، أى فى الرابعة والثلاثين من عمره، رقى إلى رتبة "نائب" أى ملازم أول وذلك بعد اشتراكه فى العمليات العسكرية للقوزاق فى إقليم كردستان. اشترك بعد ذلك فى الحملات الموجهة ضد العشائر المعادية فى لورستان وخراسان فأصبح يعرف بين أقرانه برضا خان مكسيم نسبة إلى مدفع المكسيم الذى أجاد استخدامه. وفى سنوات الحرب العالمية الأولى تدرج رضا خان فى الرتب العسكرية، فقد أصبح ياورًا، أى مقدمًا، فى العام ١٩١٥، ثم "سرهنك دو" أى عقيدًا فى السنة التالية ونقل إلى كرمنشاه ثم إلى همدان وبعدها إلى العاصمة طهران، ومنذ أن رقى إلى رتبته الأخيرة أصبح لرضا خان مركز فى القوازاق يحسب له حسابه، ومنذ ذلك الوقت بدأ يحتك بالحياة السياسية أكثر وازدادت طموحاته وتجسدت. فبمناورة منه وبالتعاون مع أحد قادة القوزاق من الضباط الروس البيض المعادين لثورة أكتوبر بدأ يحتل مواقع جديدة فى قيادة القوزاق، فقد رقى إلى رتبة "سرتيب سوم" أى الزعيم أو العميد وعهدت إليه قيادة أورطة بطهران أجرى فيها إصلاحات عديدة جلبت الأنظار، ولاسيما أنظار الضباط الشباب من الإيرانيين الذين بدأوا يرنون إليه ويتمنون أن يحل محل الضباط الأجانب فى قيادة القوزاق. ويومذاك بدأ رضا خان يهتم بالشئون السياسية للبلاد أكثر وأكثر، فأخذ يتابع الصحف الإيرانية التى قطعت شوطًا لا بأس به منذ أيام الثورة الدستورية، وكانت الديمقراطية منها تشن حملة واسعة على النفوذ الأجنبى فى البلاد، ومنذ العام ١٩١٣ بدأ بمطالعة جريدة "رعد" "الليبرالية" التى كان يصدرها الصحفى المعروف ضياء الدين طباطبائى[lxxvii].

ومنذ أن كان يخدم فى القوازق أطلع رضا خان على أوضاع البلاد عن كثب، فقلما وجدت منطقة مهمة فى إيران لم يخدم فيها أو لم يشترك فى حملة موجهة ضد عشائرها. كما احتك أيضًا بالأجانب بحكم مهنته. فقد كان الضباط الروس هم الذين يشرفون على القوازق، كما عهدت إليه حراسة البعثة الأمريكية ثم السفارة الألمانية وأخيرًا المصرفين البريطانى والروسى، فأعجب بالألمان وأصبح حساساً تجاه الانجليز. وبصورة عامة ما كان رضا خان يميل كثير للأجانب، ولكن، لم يبلغ به الأمر حد أن يعلن أمام عدد من كبار الضباط البريطانيين عشية انقلاب شباط ١٩٢١ بأن "من واجب كل ضباط القوزاق فى قزوين وطهران أن يتحدوا لطرد الأجانب من إيران وإبادة الموالين لهم"[lxxviii].

سارت سياسة رضا بهلوى (خان) فى اتجاهين: داخلى خارجى.

فبالنسبة للاتجاه الداخلى: فقد أقام رضا بهلوى العديد من الإصلاحات الاقتصادية لتعزيز سلطته، وترسيخ دعائم المجتمع الجديد تحت السيادة العليا للدولة التى يتربع على قمتها. فسعى لاستصلاح الأراضى الزراعية البور أو المهملة عن طريق تملكيها لصغار الفلاحين. كما أصدر قانون العلاقة بين المالك والمستأجر عام ١٩٢٨. لكن فقر الفلاح وضعف موارده أسقطاه عنوة تحت سطوة كبار الملاك القادرين بأموالهم على تغطية احتياجات الزراعة بصفة عامة، وتكلفة إصلاح الأراضى البور بصفة خاصة. ولم تتحسن كثيراً أحوال المزارعين رغم صدور القانون، على الجانب الآخر، فقد ظهرت ارستقراطية جديدة من كبار موظفى الدولة والإقطاعيين والتجار وأنصار الشاه الذين حصلوا على إقطاعيات كبيرة مكافأة لإخلاصهم لنظامه، ولم يختلفوا بدورهم عن الآخرين فى إرهاق مستأجرى الأرض من الفلاحين. بالإضافة إلى الارستقراطيين المغتصبين للأرض بوضع اليد قبل تولى الشاه عرش إيران، فقد كافأهم الشاه بإصداره قانونًا يسمح لمن وضع يده على أرض فى القرى والأقاليم لمدة ثلاثين عامًا أن تصبح ملكًا خالصًا لهم من تاريخه فأضفى الشرعية على اغتصاب الأراضى بعيدًا عن رقابة الدولة من وقتها. كما سعى رضا بهلوى لرفع إنتاجية المحاصيل الزراعية سواء باستقدام خبراء زراعيين من الخارج أو استيراد البذور عالية الجودة. كما تم إدخال محاصيل جديدة كالشاى والقطن والتبغ، فضلاً عن إعفاء بعض المنتجات من الضرائب. كما أسس كلية للزراعة فى كرج على بعد خمسين ميلاً من طهران. وأنشأ عددًا من المدارس الزراعية فى القرى الكبيرة. وأرسل بعثات علمية لدراسة الزراعة والرى فى الخارج لإعداد كوادر عالية من خبراء الزراعة الإيرانيين. بالإضافة إلى تشكيل المجلس الأعلى للزراعة بهدف رسم السياسة الزراعية، وتأسيس غرف زراعية فى الأقاليم والتشجيع على إجراء البحوث الزراعية العملية فى الحقول التابعة للمجلس الأعلى فى عام ١٩٣١. كما أصدر قانون حظر تملك الأجانب للأراضى الزراعية فى العام نفسه، ثم قانون حماية الغابات.

وتم بناء صوامع كبيرة تابعة للدولة فى العاصمة طهران وسبع صوامع أخرى فى عواصم الأقاليم لتخزين الحبوب الزائدة لاستخدامها إذا ما انخفض إنتاج الحبوب بسبب الظروف المناخية فى أرجاء إيران(lxxix).

لكن استحواذ رضا بهلوى على أجود أنواع الأراضى الزراعية فى شمال إيران، ثم احتكاره لزراعة الأرز المحصول الرئيسى للطعام، وكذا "الترياك" (الأفيون) والتبغ التى تدر أرباحًا هائلة أدى إلى تضخم ثروته ومؤيديه من كبار الإقطاعيين، فى الوقت الذى حرم على الفلاح زراعة تلك المحاصيل وفرضت عليه أنواع بعينها، مما أدى إلى تدنى مستوى معيشته على الدوام. كذلك ساهمت ندرة المواصلات وسوء حالة الطرق فى صعوبة تسويق الفلاح البسيط لمنتجاته فى المناطق المجاورة. كما أن مقاومة (رضا بهلوى) للعشائر وإجبارهم على الانتقال للعيش فى مناطق بعينها كانت غير صالحة للزراعة غالبًا فضلاً عن منعهم من الانتقال بين مراعيهم الشتوية والصيفية، كل ذلك ساهم بدوره فى ندرة الحيوانات والخيول، مما أضر بالثروة الزراعية والحيوانية وأضر بالفقراء على الدوام(lxxx).

أما عن الصناعة فقد أولى رضا بهلوى جل اهتمامه للصناعة والجيش، ولهذا حظيت الزراعة بالمرتبة الثالثة فى سلم اهتماماته. وانطلق يدعم الصناعات اليدوية التراثية فى إيران بعد إهمال طويل بإعفاء المواد الأولية والآلات المطلوبة لتطويرها من الضرائب والجمارك. وفرض على المصرف الوطنى فى طهران مهمة إقراض المؤسسات الصناعية الصغيرة بالمال سنة ١٩٣٠، كما شجع الاستثمار فى الصناعة ووفر المناخ المحلى لاستخدامها. وبدأ المبادرة بتأسيس "الشركة الإمبراطورية"، و"الشركة المركزية" المملوكتين للدولة لتصدير المنتجات الصناعية المحلية. كما أسس شركة "المنسوجات القطنية" لاحتكار الواردات القطنية. وألزم المستثمرين بتسجيل شركاتهم فى وزارة الاقتصاد عام ١٩٣١، ثم أصدر قانون إنشاء الشركات الصناعية ووسائل عملها فى عام ١٩٣٢، وكانت جميعها شرايين تغذى الإنتاج الصناعى الإيرانى. كما ظهرت ثمار التوسع الصناعى حيث ارتفاع عدد المصانع الحكومية إلى ثمانين مصنعًا، علاوة على مائتى مصنع صغير للقطاع الخاص. وازدهرت الصناعات اليدوية التقليدية وأصبحت قادرة على المنافسة الأجنبية. كما تم تأسيس مصنعين حكوميين لصناعة السكر من البنجر الذى عممت زراعته فى شمال إيران. بالإضافة إلى بناء معامل لتكرير السكر وتجهيزه تم استيرادها من فرنسا. وبالرغم من الجهود المضنية لإقامة ركائز صناعية إيرانية خالصة فإن بطء الإدارة وضيق أفق المسئولين وقلة خبرة المديرين عوقت النهضة المرجوة للصناعات المحلية. بالإضافة إلى ارتفاع أسعار المنتج المحلى فى مواجهة المنتج المستورد الأكثر جودة. حتى البعثات الإيرانية الصناعية للخارج، وكذا البعثات التأهيلية للإداريين لم تفرز جيلاً من الخبراء الصناعيين، لأن المسافة كانت شاسعة بين المستهلكين الإيرانيين والسوق الإيرانى المغلق وبين الخبراء الإيرانيين العائدين بوجهة نظر صناعية وتسويقية لم يستوعبها أو يفهمها المشترى الإيرانى العادى. كما لا يمكن إغفال صعوبة المواصلات وسوء أحوال الطرق وانتشار اللصوص، مما عوق دون شك ازدهار الصناعة المحلية بين الأقاليم الإيرانية باعتبارها سوقًا استهلاكيًا كان بمقدوره استيعاب جزء كبير من المنتجات الوطنية(lxxxi).

أما عن التجارة فقد ظلت القوى الأجنبية تغرق السوق الإيرانية بالبضائع الاستهلاكية كالنسيج والسكر والشاى والحلويات، وجميعها بأسعار لا تقبل المنافسة. وبدلاً من زيادة الدخل الحكومى والفردى من المصنوعات المحلية التى دعمها الشاه رضا بهلوى فقد وصل العجز فى ميزانية الدولة عام ١٩٣٦ إلى عشرة ملايين جنيه استرلينى، غطته بالكاد عائدات شركة النفط الأنجلوإيرانية. وانخفضت قيمة العملة فى العام نفسه إلى الثلث تقريبًا، مما أشعل الأسعار فى السوق المحلى وانخفض على أثره دخل الأفراد.

فاضطرت الحكومة الإيرانية إلى عقد اتفاقات تجارية قائمة على مبدأ (المقايضة) كانت أهمها الاتفاقية التجارية مع الاتحاد السوفييتى الشريك الرئيسى للتجارة الإيرانية منذ عام ١٩٢١ ثم جددت فى الثلاثينيات والأربعينيات على التوالى، حيث كان الاتحاد السوفيتى يستورد جميع المنتجات الزراعية الموجودة فى شمال إيران ويورد لهم المصنوعات الرخيصة. لكن الرسوم الجمركية العالية التى فرضها شاه إيران قلصت حجم المستورد وهددت استمرار التجارة بين البلدين وخلقت العديد من الأزمات التى ستستفحل أثناء الحرب العالمية الثانية. كما حاولت الحكومة الإيرانية زيادة مواردها المالية بتوسيع نطاق تصدير المنتجات النقدية – "الترياك" والتبغ والشاى – برغم الاعتراضات الدولية الموجهة لسياستها الاقتصادية نظرًا لما اتخذته من إجراءات لتخفيض المستورد من السيارات والآلات الكهربائية غالية الثمن. واستبدالها بالآلات الصناعية والماكينات

الزراعية، لتقليل حجم العجز فى الميزانية وتوفير سيولة مالية استغلتها الحكومة الإيرانية فى تمويل مشروعات السكك الحديدية القليلة التى بدأت فى تشييدها[lxxxii].

ورغم دور الشاه فى النهوض بالصناعة والزراعة، وازدياد أعداد العمال فى المجالين المذكورين، إلا أنه لم يصدر أى قانون يحمى حقوق العمال من أرباب العمل، أو يؤمن حياتهم ضد مخاطره رغم تصاعد مطالبة العمال بذلك، فاضطر رضا شاه أن يصدر قوانين تنظيم المؤسسات الصناعية، وقد حوت القوانين العديد من التشريعات المفيدة للعمال، ولكنها ظلت حبراً على ورق، ولم ينفذ منها شئ، مما زاد من سوء أحوال العمال. ولما قام العمال بالتظاهر من أجل تطبيق القوانين اعتقل الشاه سبعة عشر عاملاً من قواد التظاهرة وسجنهم عام ١٩٣٦ وظلوا فى السجن حتى عزل الشاه[lxxxiii].

لكن فى الواقع اتسمت سياسة رضا بهلوى بالاستبداد المطلق النابع من ديكتاتورية القرار، وأحادية التفكير، فبالرغم من أن مشروعاته الإصلاحية جميعها استهدفت تحديث إيران. فإن وسائل تحقيقها قامت على القهر، وفرض التغيير عنوة دون تأهيل عقلى أو نفسى للمواطنين، مما دفعهم لمناوأتها وعدم الإخلاص فى تنفيذها، فباتت قشرة سطحية لم تتغلغل لتشمل قاع المجتمع، لما نتج عنها من سلبيات لمسها بقوة فقراء الناس فى الريف والحضر على حد سواء. واستفاد منها كبار التجار والزراع وقواد الجيش وارستقراطية إيران[lxxxiv].

أما عن الإصلاحات الإدارية فقد ألف رضا خان وزارة جديدة أدخل فيها مجموعة من الارستقراطيين المعروفين من أمثال مشاور الدولة ومستشار الدولة ومحمد على فروغى ومعتضد السلطنة، بينما أبعد منها الوزيرين الليبراليين سليمان مرزا والدكتور مصدق. ثم ضم إلى وزارته الجديدة الزعيم البختيارى المعروف سردار أشد. وقد أكد رضا خان فى منهج وزارته الجديدة على ضرورة "تطوير العلاقات الطيبة مع الحكومات الصديقة" وعلى قضايا تتعلق بتطوير الجيش وتوحيد المقاييس والموازين ووضع سجلات للوثائق الرسمية وتأسيس شركة للطيران والاهتمام بالتعليم والصحة. ودون تأخير باشر "بتنظيف" أجهزة الدولة من العناصر غير الموالية له، ولاسيما فى جهازى الشرطة والقضاء[lxxxv].

أما عن الاتجاه الخارجى فقد اهتم رضا بتوقيع اتفاقية مع شركة سنكلر الأمريكية منحتها بموجبها امتيازًا لاستغلال نفط الشمال. وعبر رضا خان عن أمله فى أن يفضى التعاون مع الشركة الأمريكية إلى أن تتخلص إيران من "السيطرة الاقتصادية لبريطانيا وروسيا"، وأضاف يقول "أن حكومته ستبذل من جانبها كل ما هو ممكن لإدامة الروابط الجيدة الحالية" مع الولايات المتحدة الأمريكية و"يراودها الأمل بأن شعب الولايات المتحدة المخلص لتقاليده القومية فى مساعدة الشعوب الأخرى سوف يستغل هذه الفرصة السعيدة ويمد لنا يد العون لبناء إيران مرفهة ومزدهرة". وقد وقفت لندن، وكذلك شركة "ستاندرد أويل" الأمريكية ضد الاتفاقية الجديدة باعتبارها غير قانونية لأنه سبق لإيران أن منحت امتيازًا مشابهًا لستاندرد أويل ثم ألغته بدعوى مخالفة الشركة لنص الامتياز عندما أشركت معها شركة النفط الأنجلو- إيرانية. وقد تمكنت "ستاندريد أويل" من أن تعزز موقعها بفوز الجمهوريين فى انتخابات ١٩٢٠، من إثارة ضجة صحفية ضد إيران التى تصدت صحافتها للرد على الصحف الأمريكية. وقد أدلى رضا خان لجريدة "إيران" بتصريح ذكر فيه أن الحملة الصحفية المتبادلة بين طهران وواشنطن لا تخدم سوى مصلحة البريطانيين الذين، يحاولون كما قال، "إصابة عصفورين بحجارة واحدة: التشهير بإدارتى وتشويه سمعة الأمريكان فى البلاد". ومن جانبه أوعز رضا خان بوقف الحملة، وأغلق بعد يومين صحيفتين لاستمرارهما فى التهجم على الولايات المتحدة. وبعدها عرض امتياز سنكلر على المجلس، وبعد يومين فقط استلمت حكومته مذكرة الاحتجاج البريطانية التاسعة عشرة.

لم يكتف رضا خان بذلك، بل أنه منح الشركات الأمريكية سلسلة امتيازات أخرى لبناء السكك الحديدية، وطرق السيارات وغيرها داخل إيران. وفى خضم هذه الأحداث ثار الجنوب والغرب ومن ثم قتل وكيل القنصل الأمريكى روبرت إيمبرى فى إحدى ضواحى طهران. ومن جانب أخر فتح رضا خان أبواب إيران من جديد أمام المصالح الألمانية التى تمكنت بسرعة من استعادة مواقعها القوية التى كانت تحتلها فى البلاد قبل الحرب العالمية الأولى[lxxxvi].

وهكذا استمرت "السياسة الإيرانية" إلى أن التقت الأطراف الأساسية فيها عند النقطة الحاسمة. وقد جاءت الإشارة الأولى من وزير الخارجية البريطانى اللورد كرزن عندما اعترف فى مايو ١٩٢٤ أمام البرلمان بان سمعة بلاده فى إيران قد تدنت كليًا. لكنه أضاف قائلاً: "علينا أن

نهادن روح التمرد القومى" التى تفجرت هناك. وبدأت المهادنة فعلا على صورة تراجع واضح أمام طموحات رضا خان. فقد ترك البريطانيون الشيخ خزعل وغيره من حلفائهم وشأنهم، وسحبوا قواتهم الموجودة فى دوزداب لحراسة خط السكة الحديدية هناك لتحل محلها قوات إيرانية، وفى أواسط ١٩٢٥ سلموا جميع دوائر البريد الموجودة فى الموانئ الجنوبية إلى وزارة البرق والبريد الإيرانية، كما سحبوا حرسهم الخاص الذى كان مكلفًا بحماية مؤسساتهم الدبلوماسية فى مختلف أنحاء البلاد.

جاءت خطوات الطرف المقابل بمستوى المساومة و"الحدث الكبير" الذى كان له بعد. ففى أغسطس ١٩٢٥ أجرى رضا خان تعديلاً وزارياً أدخل بموجبه نصرت الدولة وقوام الدولة فى وزارته، وكلاهما كانا من أكثر ساسة إيران ارتباطاً بالبريطانيين، لاسيما الأول منهم الذى لعب دورًا كبيرًا فى عقد معاهدة ١٩١٩ بصفته وزيرًا للخارجية فى عهد وثوق الدولة وأحد مفاوضى الجانب الإيرانى، وقد بقى مخلصًا للمعاهدة وللإنجليز حتى النهاية وعهد إلى زميله قوام الدولة بوزارة الداخلية. كما خفف رضا من حماسه لشركات النفط الأمريكية إلى حد كبير ووافق على توسيع أعمال شركة النفط الأنجلو - إيرانية فى الجنوب، ثم منح شركة طيران الإمبراطورية البريطانية شبه الحكومية حق استخدام الأجواء الإيرانية فى رحلة جديدة ومهمة تبدأ من لندن وتمر بالقاهرة وتنتهى بكراتشى، هذا الخط الذى كان يؤلف حلقة وصل مهمة بين مستعمرات انجلترا والبلدان التى إنْتُدِبتْ هى لادارتها مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، وكان بالإمكان تحويله للخدمات العسكرية عند الضرورة. وبما أن أهداف هذا الخط كانت واضحة فإن رضا خان أجرى المفاوضات بصدده بسرية تامة خشية أن يؤثر الأمر على سمعته، وضمن المخطط نفسه حاول رضا خان فى الفترة نفسها إضفاء برود واضح على علاقات حكومته بالاتحاد السوفيتى. وبأسلوب ما تلقفت الصحافة الغربية ذلك وبدأت تتهم موسكو بموالاة أحمد شاه القاجارى لدرجة أن وكالة تاس اضطرت إلى أن تنشر بيانًا تؤكد فيه أن "الحكومة السوفيتية تتبع سياسة عدم التدخل المطلق فى شئون إيران وتحتفظ بعلاقات صداقة كاملة مع الحكومة الوطنية الإيرانية التى يقف على رأسها رئيس الوزراء سيادة رضا خان"[lxxxvii].

وكل ذلك كان يعنى، فى الواقع، أن الطريق أصبح مفتوحًا أمام رضا خان ليخطو خطواته الأخيرة نحو العرش، فبعد أن قضى على حركتى خزعل فى عربستان وسمكو فى كردستان، وبعد أن صفى العديد من خصومه، وأثر زيارته للنجف وكربلاء أعلن رضا خان أمام المجلس رغبته ثانية فى ترك مهمته لعدم إمكان استمرار التعاون مع القاجاريين حسب تأكيده، أما إذا أريد له الاستمرار فى العمل حينئذ "يجب إعادة تنظيم موقعه"، وكان يقصد بذلك جعله القائد الأعلى لجميع القوات المسلحة، بما فيها جهاز الشرطة، المنصب الذى كفلته المادة ٥٠ من الدستور لشخص الشاه وحده. وقد منح رضا خان المجلس مهلة أربعة أيام فقط، فإذا لم يتخذ فى الوقت المحدد الإجراء المطلوب حينذاك يضطر إلى أن "يشكو أمره" للشعب الإيرانى، بعدها أقر المجلس رغبته ومنحه كافة الصلاحيات[lxxxviii].

وتعتبر هذه أول خطوة عملية على درب خلع الأسرة القاجارية". والدليل على ذلك أن زار رضا خان المجلس وشكر أعضاءه على "قرارهم". وبعد كل هذا التمهيد بدأت حملة جديدة وواسعة ضد الأسرة القاجارية وضد شخص أحمد شاه وولى عهده وغيرهما حتى لا يبقى شخص واحد من العائلة المالكة يكون جديرًا بعرش إيران. وظهرت هذه المرة إعلانات وملصقات جدارية ليلية كانت تحمل أسماء جمعيات ومنظمات مختلفة من قبيل "جمعية قوميى إيران"، حاولت جميعها أن تثبت، كما كان يرد فى عناوينها البارزة، إن "الأسرة القاجارية ممقوتة" وأن أحمد شاه "يتسكع فى فنادق أوروبا وملاهيها" وأن ما قدمه الحكم القاجارى لإيران على مدى قرن ونيف لا يعادل "ما قدمه رضا بهلوى لها خلال أربع سنوات فقط". لم تفقد القوى التقليدية مع ذلك مواقعها وتأثيرها نهائيًا. فقد تمكنت أن تثبت وجودها حتى فى تلك الأيام العصيبة بالنسبة لها، إذا استغلت نبأ عودة الشاه وأزمة الخبز لإثارة قلاقل خطيرة فى البلاد. ففى ١٦ سبتمبر ١٩٢٥ تلقى رئيس الوزراء برقية من أحمد شاه يخبره فيها عن عودته قريباً إلى "إيران العزيزة وعن غاية امتنانه لأنه سيكون قادرًا فى القريب على أن يناقش الأمور مع فخامته شخصيًا"[lxxxix].

بعد ثلاثة أيام رد رضا خان بأسلوب لم يخل من استهزاء: "حملت البرقية لمباركة أنباء طيبة من جلالتكم. قوبل نبأ عودتكم الميمونة، وبخاصة تنفيذها العاجل، بالغبطة. هو أن نعلم أمركم السامى عن الميناء الحدودى الذى يتشرف بمقدمكم"، انتشر النبأ بسرعة بين الناس، وقد صادف ذلك أزمة خبز حادة فى العاصمة جراء الجدب الذى حصل فى الموسم الزراعى الأخير والذى أدى إلى أن "يموت الناس أفواجاً فى الطرقات". وكان سعر الخبز قد ارتفع بمعدل ٢٠% على أقل تقدير، الأمر الذى استغله أعداء رضا خان من اليمين المتطرف، فقاموا بتنظيم مظاهرات عنيفة

رفع المشتركون فيها شعار "الشاه والخبز"، واحتلوا حديقة المجلس، وهاجموا الدوائر الحكومية، ثم أقام حوالى ١٧٠ منهم فى باحة السفارة السوفيتية اضطروا إلى تركها بعد ثلاثة أيام تحت ضغط مسئولى السفارة.

استغل رضا خان هذه الأحداث لوضع اللمسات الأخيرة على خطة خلع الأسرة القاجارية. فقد اعتقل ما بين ٨٠٠ و ٩٠٠ من الساسة الذين كان معظمهم من أشد المتحمسين للحكم القاجارى. وأعاد منصب الحكم العسكرى الذى اضطر لالغائه قبل ذلك بفترة وجيزة، كما بدأ بتحريض أنصاره فى مختلف أنحاء البلاد التى شهدت سلسلة من المظاهرات المعاكسة. ففى تبريز مثلاً نظمت مسيرات واجتماعات واسعة بعث المشتركون فيها ببرقيات إلى المجلس وأعضائه وإلى رئيس الوزراء والزعماء السياسين فى ٤٤ مدينة يعربون فيها عن تأييدهم المطلق لرضا بهلوى وعن احتجاجهم الشديد على قرار عودة الشاه ويؤكدون قطع صلاتهم بالعاصمة وقرارهم لجمع المتطوعين للزحف عليها وفى أصفهان أغلقت الحوانيت والدوائر الحكومية أبوابها. وفى طهران اجتمع التجار أمام دار رئيس الوزراء وفى المدرسة العسكرية ودعوا الإيرانيين إلى قلب الحكم الإيرانى وتأسيس حكم "ملكى" منتخب مكانه. وانضمت جماعات كثيرة منها "المجموعة الزرادشتية" و"المجموعة الأرمنية" و"المجموعة اليهودية" و"التجار الشباب" والأصناف المختلفة. وظهرت النشرات الليلية من جديد وقد بدأت تطالب هذه المرة صراحة بخلع أحمد شاه واختيار رضا بهلوى مكانه. وكل هذه النشاطات سواء فى العاصمة أو فى المدن الأخرى كانت تجرى تحت إشراف ما عرف بـ"لجان الحركة الوطنية". وفى هذه الفترة نشر حزب التجدد منهاجه الذى وردت فيه شعارات وأهداف كثيرة كانت إيران بأمس الحاجة إليها يومذاك، من قبيل إصلاح الجهاز الإدارى والقضائى وتطوير التعليم ومنح حرية الكلام والصحافة والاضراب. ووضع قانون جديد يعتمد الاقتراع السرى والتصويت العام أساسًا لانتخابات المجلس. والاهتمام بالتجارة والصناعة والزراعة. ومنع التلاعب بقوت الشعب. وتوزيع الأراضى الأميرية على الفلاحين وإصدار القوانين لتنظيم علاقاتهم مع الملاك على "أساس عادل" وتحديد ساعات العمل بالنسبة للعمال بثمان فقط. وقد جاء كل هذا "السخاء" من جانب حزب رضابهلوى فى أوراق صفحات الجرائد من أجل نقطة أساسية وردت فى منهاجة والتى كانت تطالب بـ"إعادة النظر فى الدستور من قبل مجلس تأسيسى"، مما كان يعنى تغيير نظام الحكم صراحة[xc].

لكن بدأ التفكير بعد ذلك العملى فى إزاحة الشاه رضا بهلوى عن عرش إيران بدعوى انفراده بالسلطة والقرار دون الوزراء، وعدم تعاونه مع الحلفاء بطرد عناصر المحور المختلفة من بلاده، ومن الجنسيات اليابانية والإيطالية، ثم البلغاريين والمجريين، متعمدين إغفال الاتفاقيات المعقودة بين تلك الدول والحكومة الإيرانية، وفرضوا عليه وزراء بعينهم رأوا أنهم غير متعاطفين مع المحور، كما عمدت القوات المحتلة إلى إفقاد الشاه هيبته أمام الإيرانيين والأجانب على حد سواء، باستمرار قذف المدن الكبرى رغم توقف المقاومة الإيرانية العسكرية. وتم إجبار رضا بهلوى على التنازل عن العرش لابنه محمد رضا فى ١٩ سبتمبر ١٩٤١، حيث ترك طهران واستقر لفترة فى أصفهان لتصفية ممتلكاته بها قبل مغادرة وطنه نهائيًا، ثم رحل إلى جزيرة موريشيوس على بارجة بريطانية ثم نفى إلى جوهانسبرج فى جنوب أفريقيا حتى وفاته عام ١٩٤٤[xci].

ومن الجدير بالتنويه أن وضع إيران فى عهده قد ظهر فى طياته عدة ملامح نوضحها على النحو التالى وهى[xcii]:

١- عبرت عن مصالح محددة أكثريتها داخلية عكست تطورات وقعت فى عمق المجتمع الإيرانى. فإن تأسيس الأسرة البهلوية كان يعنى، فى الواقع انتهاء حكم الارستقراطية التقليدية وظهور عهد جديد يعتمد أساسًا على الملاك شبه الإقطاعيين والبورجوازيين الجدد، التجار منهم أولاً، الذين كانوا يؤلفون فئات اجتماعية جديدة ومؤثرة موقعها أيضًا فى أعلى الهرم الاجتماعى. ففى الظروف الاجتماعية والسياسية التى سادت إيران فى الربع الأول من القرن العشرين كان الملاك شبه الاقطاعيين والتجار يؤلفون القوة الاجتماعية الوحيدة التى بإمكانها تسنم السلطة والقضاء على النظام القاجارى الاقطاعى. وأن الأعمال التى حققها رضاخان بهلوى، لاسيما قضاؤه على التسيب الإقطاعى وتقوية السلطة المركزية وحماية الاستقلال السياسى للبلد، دفعت بالأوساط المذكورة إلى الالتفاف حوله أكثر فأكثر ذلك لأنها، بحكم مصالحها، كانت مهتمة يومذاك أكثر من غيرها بتلك الإجراءات. مع ذلك فإن دور القوى الخارجية فى تحديد مسار الأحداث الإيرانية خلال العقد الثالث من القرن العشرين لم يكن قليلاً.

٢- اتسمت إصلاحاته الاقتصادية بطابع فوقى توخى منها الدعاية للعهد الجديد. فإن قرار تخفيض سعر الخبز، مثلاً، كان تقليداً قديماً اتبعه العديد من ملوك إيران فى ظروف مشابهة، ثم أن مفعوله لم يسر على جميع المناطق ولم يستمر طويلاً فى أى مكان. أما قرار منع تداول المشروبات الروحية فإنه لم يؤد سوى إلى رواجها فى السوق السوداء، بينما لم يتخذ الشاه البهلوى أى إجراء ضد الأفيون لأن مئات التجار و أعوانه كانوا يجنون أموالاً طائلة من ورائه على حساب حياة الإيرانيين وغيرهم.

٣- لم يجر رضا شاه تغييراً كبيراً فى الجهاز الإدارى السابق، حتى أن معظم القاجاريين بقوا داخل إيران واستمروا فى خدمة العهد الجديد واحتفظوا، كالسابق، بجانب غير قليل من امتيازاتهم، بل أن عددا منهم أصبحوا يتمتعون فى العهد البهلوى بنفوذ أكبر من العهد القاجارى.

٣- محمد رضا بهلوى (١٩٤١- ١٩٧٩) والأوضاع الدينية

صارت إيران فى أواخر العهد البهلوى سكانًا من مختلف الديانات فحسب الإحصاءات الرسمية على النحو التالى: بلغ عدد المسلمين حوالى ٣٤ مليوناً شخص (أى ٩٨% من مجموع السكان). بلغ عدد المسيحيين حوالى ٣٥٠ ألفاً شخص كان أغلبهم من الأرمن (حوالى ٢٨٠ ألفاً) ومن الأثوريين النسطوريين (حوالى ٣٢ ألفاً) وغيرهم. ٨٥ ألف يهودى. وحوالى ٢٠٠ ألف ينتمون إلى طوائف وديانات أخرى.

وتؤلف الشيعة حوالى ٩٠% من مجموع مسلمى إيران، أما ١٠% الباقية فتتألف من المنتمين إلى المذهب السنى السائد بين قسم كبير من الأكراد والتركمان والبلوش. وحسب الإحصاء الرسمى العام الثانى بلغ عدد رجال الدين المحترفين فى إيران عام ١٩٦٦ أكثر من ١٢ ألف شخص، ١٧٤ منهم كانوا من العنصر النسائى، وبعد سبع سنوات ارتفع الرقم الأول إلى ١٥ ألف شخص. وفى العام ١٩٦٣ بلغ عدد المدارس الدينية فى إيران ٢٢٩ مدرسة، تضم حوالى ١٤٠ ألف طالباً، كان أكثر من ٦ آلاف منهم فى مدينة قم وحدها. يبلغ عدد المساجد فى المدن الإيرانية وحدها حوالى ٥٤٠٠ مسجد يقع حوالى ألف منها فى العاصمة طهران و١٥٥ مسجدًا فى مدينة قم و٩٧ مسجداً فى مدينة كاشان، وأكثر من ١٥٠٠ مسجدًا فى المدن الواقعة وسط البلاد، هذا إضافة إلى عدد كبير جدًا من المساجد الموجودة فى أرياف إيران وقراها. ومن المهم أن نشير إلى أن هذه المساجد والعاملين بين جدرانها كانوا مرتبطين مباشرة، ومن جميع الأوجه، ماديا ومعنويًا، بقمة المؤسسة الدينية.

فى السنوات الأخيرة من عهد الشاه ارتفع عدد الحجاج والزوار والإيرانيين بصورة ملموسة للغاية، الأمر الذى لم يخل عن بعض التوجهات السياسية للقمة الدينية التى زاولت نشاطاً واسعاً بينهم بهدف ربط أكبر عدد منهم بنفسها. ففى العام ١٩٦٣ بلغ عدد الحجاج الإيرانيين ١١ ألف شخص فقط، ارتفع عددهم خلال حوالى عقد واحد إلى أكثر من ٥٢ ألف شخص، وبعد سنتين أخريين بلغ حوالى ٧٠ ألف شخص. وفى العام ١٩٦٧ بلغ عدد زوار ضريح الإمام رضا فى مشهد ٣٣٢ ألف شخص، وخلال خمس سنوات فقط ارتفع الرقم إلى حوالى مليونى شخص ومن ثم إلى ثلاثة ملايين فى العام ١٩٧٥ – ١٩٧٦ أى بنسبة ١٠٠٠%. وقد كرس لخدمة هؤلاء فى مشهد عشرون فندقًا وأكثر من ٢٠٠ دار ومكتبة دينية ومستشفى ومتحف خاص[xciii].

تتمتع "المؤسسة الدينية" فى إيران بإمكانات اقتصادية هائلة تأتيها منذ زمن بعيد من الوقف الخاص والعام الذى لم يقتصر على الأرض الزراعية وحدها بل امتد ليشمل قنوات الرى والخانات والدور والدكاكين والحمامات وغيرها من الأموال غير المنقولة. ولتوضيح ذلك هناك مثلين. فقد بلغ عدد قرى الوقف التابعة بصورة مباشرة إلى كبار رجال الدين حوالى ستة آلاف قرية قبل قيام محمد رضا شاه بإصلاحه الزراعى الأخير. وفى أواخر الستينات بلغ المورد السنوى لكبار رجال الدين فى مدينة مشهد وحدها حوالى ٤٥٠ مليون ريال، وهو مبلغ ضخم للغاية حسب جميع المقاييس وكل الاعتبارات. منحت هذه القوة الاقتصادية الكبيرة رجال الدين إمكانية أن يؤلفوا على طول تاريخ إيران (منذ أواخر العصر الوسيط وفى كل العصرين الحديث والمعاصر) فئة مستقلة عن الشاه والسلطة إلى حد كبير، يأخذون الرواتب من خزينة الدولة، وكبار آيات الله ما كانوا على اتصال مباشر بالشاه، أنهم عند الضرورة كانوا يدعون إليهم من يريدون من كبار المسئولين ويسلمونه ما يريدون ليقوم بإيصاله إلى الشاه، وكان يستثنى من ذلك فى العقود الأخيرة إمام الجمعة فى مسجد الشاه بطهران الذى كان يعين من قبل الشاه ويأخذ راتبًا منظمًا من خزينة الدولة كأى موظف أخر. ومما زاد من نفوذ "المؤسسة الدينية" بين الإيرانيين أنها ظلت تسير لغاية العقود الأولى من القرن العشرين على الجانب

الأساسى من السلطة القضائية، فإن النظر فى كل ما كان يتعلق بحياة الناس، فيما عدا قضايا السرقة والقتل والتمرد، كان من اختصاص كبار رجال الدين الذين كانت أحكامهم قطعية لا يحق لأحد التدخل فيها سوى مرجع دينى أعلى. كان رجال الدين يسيطرون تقريبًا على كل شئون التعليم فى البلاد. وحتى حينما قام رضا شاه بإصلاحاته المعرفة فى مجال التعليم فإن رجال الدين ظلوا يحتفظون ولمدة طويلة نسبيًا بحق تدريس مادة الدين فى المدارس الرسمية.

ومما كان يقوى من نفوذ كبار رجال الدين بين الإيرانيين على مدى قرون طوال هو ظهور الظاهرة الغريبة المعروفة بالـ"به ست" التى كانت تمنح حق الحماية الكاملة لكل خارج على القانون ولكل مناهض للسلطة يلجأ إلى بعض المساجد المعروفة، أو إلى دور كبار رجال الدين دون أن تتمكن السلطة من اتخاذ أى أجراء بحقه[xciv].

كل هذه الامتيازات وكل هذا النفوذ دفع كبار المتنفذين فى المجتمع الإيرانى إلى الانخراط فى المؤسسة الدينية فأصبحوا يؤلفون أساس قمتها وقيادتها. فعلى طول القرون الأخيرة كان كبار رجال الدين الإيرانيين ينتمون بالأساس إلى الارستقراطية الإقطاعية وكبار ملاكى الأرض وكان معظمهم على اتصال وثيق بالسوق وبالرأسماليين الفرس منذ ظهورهم. وحتى صغار جال الدين فإنهم كانوا فى أغلبيتهم الساحقة ينتمون إلى الفئات الاجتماعية الوسطى كصغار التجار والحرفيين، وفى حالات قليلة فقط، ولاسيما فى الريف، كانوا ينتمون إلى الوسط الفلاحى.

من كل ما سبق نستطيع القول أننا نجد فى "المؤسسة الدينية" الإيرانية صورة مطابقة إلى حد كبير للبابوية الكاثوليكية فى أوربا، ويستطيع المرء أن يلمس فى صراع القمة الدينية من أجل السلطة الدنيوية بعض ظواهر هذا الصراع فى أوروبا القرون الماضية.

لكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو لماذا استفحل الصراع بين قمة "المؤسسة الدينية" والسلطة الدنيوية الإيرانية فى ظل حكم الأسرة البهلوية بالذات؟. قبل الخوض فى الموضوع لابد من التأكيد أولاً على أنه كان من الطبيعى أن يحاول النظام الشاهنشاهى استخدام "المؤسسة الدينية" لتثبيت مواقع أقدامه ولتحويلها إلى أداة لقمع الحركة الوطنية، وقد حقق نجاحًا غير قليل فى هذا المضمار، ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة حينما أعاد محمد رضا شاه امتيازات مهمة لكبار رجال الدين. بل إن هذا العامل ذاته، أى محاولة تحويل "المؤسسة الدينية" إلى مجرد أداة تنفيذ بيد الشاه هو الذى أجَجَ نار الصراع بين الطرفين، ذلك لأن الأمر كان يقتضى تجريد كبار رجال الدين من إمكاناتهم الاقتصادية الهائلة لاضعاف نفوذهم ولربطهم بعجلة النظام أكثر فأكثر. ثم أن السلطة كانت تنظر دائمًا بعين الحسد والغيرة إلى نفوذ كبار رجال الدين، لاسيما إلى إمكاناتهم الاقتصادية فى وقت كانت خزينتها تعانى من عجز مستمر وتحتاج إلى كل ريال من أجل تثبيت دعائمها، خاصة قبل ظهور الموارد النفطية الضخمة. وعليه فإن تطور الدولة المركزية الحديثة المتوافقة مع روح العصر ـ كان يتطلب فى ظروف إيران تجريد "المؤسسة الدينية" من استقلاليتها، وكان من الطبيعى جدًا أن يتحول كبار رجال الدين إلى أعداء ألداء لكل من يحاول حرمانهم لأى سبب كان من ثرواتهم الطائلة ونفوذهم اللامحدود. وقد حاول رضا شاه أن يقوم بذلك فعلاً. فقام بإجراءات من شأنها تقليص نفوذ القمة الدينية فى مجالى التعليم والقضاء. ففى العام ١٩٣١، مثلاً، منع المحاكم الدينية من النظر فى قضايا بسيطة ونادرة من قبيل زواج رجل غير مسلم من إمراة مسلمة. وقلص عدد المدارس الدينية إلى حد كبير بحيث لم يتجاوز عدد طلابها فى أواخر عهده ٧٨٤ شخصًا. والأخطر من ذلك أن رضا شاه فرض سيطرة الدولة على أراضى الوقف المسجلة باسم ضريح الامام الرضا فى مشهد. وجاء رد فعل كبار رجال الدين على إجراءات رضا شاه قويًا، فقد وقفوا بحماس ضد اصلاحاته ورفعوا شعار "ضرورة الجهاد المقدس لحماية الإسلام من تدخلات السلطة الدنيوية، إلا أن رضا شاه الذى قدر الأمور بصورة صحيحة عرف كيف يضع حداً لمعارضة الزعامة الدينية التى ضربها بشدة، ولكنه بعمله هذا دق أيضًا خلافًا بين "المؤسسة الدينية" والأسرة البهلوية. ولعوامل معلومة انتهج محمد رضا شاه فى المرحلة الأخيرة من حكمه نفس نهج والده فى أمور عديدة تتعلق بالمؤسسة الدينية. فإنه مثلاً حاول أيام إصلاحاته أن يفرض سيطرة أقوى للدولة على أراضى الوقف وموارد "المؤسسة الدينية"، فأقام لهذا الغرض مؤسسة خاصة للأوقاف مرتبطة بشخص رئيس الوزراء مباشرة أصبح رئيسها أحد نواب رئيس الوزراء المتنفذين. لكن لماذا جاء حسم الصراع لصالح "المؤسسة الدينية"؟.

يمكن تلخيص عوامل ذلك، على ما نعتقد، فى النقاط الرئيسة التالية[xcv]:

١- تحلل نظام الشاه وضعفه رغم جميع مظاهر القوة البادية عليه.

٢- وجود فراغ سياسى كبير بسبب ضعف البورجوازية الوطنية ممثلة بجماعة مصدق، وبسبب ضعف اليسار الكبير لاسباب معلومة، وكذلك لعجز اليسار المتطرف فى ظروف إيران من أحداث تغيير جذرى.

٣- تحييد الجيش.

٤- أساليب عمل "المؤسسة الدينية"

ومن أجل توضيح هذه الأمر ونشير إلى الملاحظات التالية التى من شأنها إلقاء أضواء على النقاط المذكورة أعلاه[xcvi].

- من الطبيعى جداً أن تتحول "المؤسسة الدينية" الإيرانية بامكاناتها وتأثيراتها الواسعة إلى محط أنظار القوى الخارجية المهتمة بإيران، وهذا عامل مهم أثر دائمًا على تصرفات "المؤسسات الدينية" الإيرانية. ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن مكان الشريعة ومضامين الدستور. وقد تمكن هؤلاء فعلاً من تنظيم إضراب عام فى سوق طهران فى عام ١٩٦٢.
- عرفت الزعامة الدينية كيف تستغل كل ثغرة اجتماعية واقتصادية وسياسية للنفوذ من خلالها إلى صفوف الجماهير فاستغلت بنجاح الفقر الذى كانت تعانى منه الأوساط الاجتماعية المدنية الدنيا، لاسيما تفشى البطالة بينها، واستغلت كذلك الظروف الصعبة للحرفيين وصغار التجار الذين كانوا يعانون بشدة من ضغط كبار الرأسماليين المحليين والبضاعة الأجنبية. فقد أدانت سياسة الشاه الخارجية فكسبت بذلك قطاعًا واسعًا من المثقفين. والتاريخ ملئ بالشواهد التى تدل على حالات مشابهة حينما تمكن قائد ما من كسب قطاعات مختلفة وشرائح متناقضة فى المجتمع. على الرغم من ذلك فقد قام محمد رضا بهلوى بعدة إجراءات بهدف تقوية الإسلام حي أسس فى ١٩٧١ فرقة إسلامية، كما جاء فى قرار إقامة الفرقة التى ضمت خريجى فروع الفقة من الجامعات الإيرانية الذين عينوا فى الجيش للقيام بالدعاية للشاه فى صفوفه. ومن إجراءاته كذلك أنه رصد الأموال أكثر من مرة لترميم الأضرحة المقدسة، وتبرع بمليون ونصف مليون ريال لشيعة لبنان، ومليون باون استرلينى لترميم المساجد فى عمان، كما أنه أهدى المسجد الحرام سجادة نادرة تبلغ مساحتها ٨ آلاف متر مربع[xcvii].

ومع تولى محمد رضا بهلوى حكم إيران تصاعدت الأحداث الداخلية والخارجية ببلاده أدت إلى انفجار الثورة الإيرانية وما صاحبها من ظهور تيارات دينية حملت عناصرها خلافات سياسية، ودينية، واجتماعية. لعب آية الله الخمينى دور فى إشعال هذه الثورة فقد عين لكرسى الإمامة الدينية والزعامة السياسية فى آن واحد وكانت هذه الولاية تعتبر الأولى من نوعها فى تاريخ إيران الحديث من حيث جمع القضية سلطات دينية سياسية فى آن واحد[xcviii].

وبدأت الثورة بإضراب المحامين والقضاة والكتاب وطلاب الجامعات فى نهاية عام ١٩٧٧ احتجاجًا على حبس الحريات، مطالبين بتنفيذ القوانين الدستورية الصادرة فى عام ١٩٠٦ حتى ١٩١١، وتصاعدت الثورة بشكل ملحوظ أوائل عام ١٩٧٨ حين قامت تظاهرت عارمة فى شوارع طهران بقيادة رجال الدين والتجار تطالب بعودة الخمينى، وبإلغاء رقابة الدولة على الأسعار وتطالب المسئولين برفع يد الدولة عن النقابات، وأن تسمح بعقد المؤتمرات السياسية. ثم تصاعدت حركة الإضراب لتشمل موظفى الدولة والعاملين فى البنوك والمدرسين ورجال الجمارك ورجال الصناعة والفنيين فى المصانع وعمال مصانع البترول والنسيج وعمال البناء. وشل الإضراب الأوضاع العامة فى الدولة. لكن الغريب فى الأمر أن تلك التظاهرات الأخيرة لم تطالب بإعادة المنح السنوية للعمال والموظفين، أو تطالب بحل مشكلة البطالة أو تعترض على زيادة الأسعار والتضخم، بل كانت تطالب بعودة الخمينى وإلغاء الأحكام العرفية، كما كانت تطالب بمعاقبة المسئولين عن قتل المتظاهرين فى التظاهرات السابقة التى شملت معظم شهور عام ١٩٧٨. وبالرغم من كراهية الإدارة الأمريكية للشاه فقد كانت حريصة على بقائه مؤقتا فى السلطة، حتى يتوافر البديل المناسب حرصًا من جانبها على مصالحها البترولية فى المنطقة. لكن ضخامة الأزمة الإيرانية واستمرارها أربك الإدارة الأمريكية. إذ انقسم صناع القرار فيها إلى قسمين: القسم الأول يمثل الصقور ويرأسه الدكتو زبيجنيو بريجنسكى مستشار الأمن القومى، والذى كان يشجع الشاه على مزيد

من العنف والقسوة حتى يتمكن من سحق المعارضة، بدعوى أن سقوط الشاه فجأة سيؤدى إلى خسارة فادحة لمصالح الولايات المتحدة فى الخليج، وفريق آخر يمثل الحمائم وعلى رأسه سفير الولايات المتحدة فى طهران وليام سوليفان الذى رأى "أن الشاه لا ينبغى له استعمال القوة مع المعارضة لسببين: أن المعارضة الإيرانية شديدة الانتشار شملت جميع أرجاء الدولة واصبح من الصعب سحقها. وكذلك الجيش لم يعد يهتم بأمر البلاد يتدخل لانقاذه بعد قرار المجلس الأعلى للضباط بالتزام الحياد فى يناير ١٩٧٩، واقترح سوليفان أن يمد الشاه يده للمعارضة الداخلية المعتدلة حتى يستطيع جذبها لجانبه وإبعادها عن القيادات المناوئة له، كما اقترح أن يمد الشاه يد الصداقة للخمينى وكان الرئيس كارتر من المؤيدين لرأى الحمائم[xcix].

أما على صعيد المخابرات الأمريكية فقد أدركت منذ زمن بعيد أن نهاية الشاه باتت قريبة، وبالتالى كانت تتابع بدقة تحركات الخمينى وتنشر الصحف الأمريكية تصريحاته وصوره فى أعمدتها الرئيسية بجوار بيانات المعارضة الإيرانية فى الولايات المتحدة. بالإضافة إلى نشاط رجال المخابرات المركزية المنتشرين فى ربوع إيران الذين كانوا يجمعون البيانات ويستطلعون رأى الشعب الإيرانى حول تصريحات الخمينى، وفى محاضراته الصوتية التى يروج لها رجال الدين فى أرجاء الدولة الإيرانية. فى ذلك الوقت لازمت الشاه حالة من القلق الشديد والارتياب من جراء تصريحات الدبلوماسيين الأمريكيين فى طهران. وعندما طلب من السلطات الأمريكية فى واشنطن مرارًا أن توضح موقفها، كانت ردودها غامضة خالية من التحديد، منها على سبيل المثال "أن الولايات المتحدة ملتزمة بتعهداتها". وعندما بدأت الأحوال تتدهور بصورة أكثر حدة منذ يوليو ١٩٧٨ قام سوليفان سفير الولايات المتحدة فى طهران، وكذا السفير البريطانى هناك، بزيارة ودية للشاه ليؤكد من جديد دعم بلديهما لعرشه دون توضيح لوسائل الدعم المزعوم أو خطواته العملية. وبالرغم من التعهدات الأمريكية والبريطانية الدبلوماسية فقد صدر تصريح رسمى من وزارة الخارجية الامريكية فى ٧ ديسمبر ١٩٧٨، تعلن فيه "أن الولايات المتحدة لا تنوى التدخل فى شئون إيران بأى شكل من الأشكال". مما أزعج الشاه بشدة وجعله يؤكد فى مذكراته على التضليل الذى تعرض له من قبل الأمريكيين والبريطانيين على حد سواء، كما أشار إلى المقابلة التى جرت بينه وبين ممثل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى إيران التى لم يطمئن فيها على نفسه أو عرشه. كذلك فوجى الشاه بوجود الجنرال هاوزر فى إيران فى الخامس من يناير ١٩٧٩، وقد بقى بها حتى ٨ فبراير أى بعد رحيل الشاه من طهران نهائيًا.

وقد انحصرت مهمة هاوزر نائب القائد العام لقوات حلف الأطلنطى فى أوروبا فى منع الجيش من القيام بانقلاب لإنقاذ العرش، لكى يظل الجيش الإيرانى جاهزًا أمام الأمريكيين عند الحاجة إليه. وقد أوضح هاوزر للعسكريين الإيرانيين بجلاء أن الولايات المتحدة لن تساند انقلابهم، برغم تيقن السفارة الأمريكية من عدم ولاء الجيش للشاه، وكان هدف الإدارة الأمريكية منصبًا على إبعاد القوات المسلحة عن التحرك نهائيًا. أما بالنسبة لبريطانيا فقد ساندت هيئة الإذاعة البريطانية الخمينى بشدة وكانت تبث الدعوة لقلب نظام حكم الشاه بصورة مباشرة، بالإضافة إلى إذاعة بياناته وخطبة ومحاضراته لتحريض الشعب ضد محمد رضا[c].

كانت التيارات السياسية جميعها تطالب بالقضاء على النظام الملكى واقتلاعه من الجذور معتمدة على سياسة كشف فضائح الأسرة المالكة بالوثائق والمستندات. فاكتسبت المعارضة الجديدة جدية شديدة أمام رجل الشارع، فاضطرت الحكومة لترويج إشاعة للوقيعة بين رجال الدين، مفادها أن خلافاً فى الرأى قد نشأ بين رجلى الدين الكبيرين الخمينى وشريعة مدارى، وأن الثانى يعد رمزًا للاعتدال والتعقل، أما الخمينى فإنه مصر على شن حرب مسلحة لإنهاك الحكومة وإرغامها على التسليم لأوامر المعارضة، المتمثلة فى أن تُستبدل بحكم الشاه حكومة إسلامية تحكم بالقرآن، وكأن الحكومة قد أعلنت اعترافها بمطالب رجال الدين والخمينى ولو بطريقة غير مباشرة. وزاد الأمر سوءًا محاصرة قوات الأمن العراقية لمنزل الخمينى فى مدينة النجف بناء على طلب الشاه، حيث كان يعيش فى المنفى خمسة عشر عامًا، نتيجة لرفض الخمينى الكف عن نشاطه المعادى للشاه، وإصراره على استقبال مراسلى الصحف الأجنبية والإدلاء بالتصريحات لهم، وكذلك إصدار التعليمات لأتباعه بالتظاهر فى إيران. فاضطر الشاه إلى أن يطلب من الحكومة العراقية محاصرة الخمينى وتخييره بين الكف عن نشاطه المعادى للشاه وبين مغادرة العراق. ولقد رفض الخمينى الانصياع سواء لرغبة بغداد أو طهران، ورحل إلى الكويت التى رفضت حكومتها استقباله، فاضطر للتوجه إلى فرنسا التى أرادت استثمار ضيافته له بعد خروج الشاه. وقد نجح تخطيطها، كما اتضح بعد الثورة، خصوصًا أن سفير فرنسا فى طهران كان قد أرسل لحكومته فى مايو ١٩٧٨

تقريرًا يؤكد فيه أن أيام الشاه فى السلطة باتت معدودة. وفى أول فبراير ١٩٧٩ وصل آية الله الخمينى إلى طهران على متن طائرة فرنسية، وعقد مؤتمرًا صحافيًا فى الخامس من فبراير ١٩٧٩ فى مقر إقامته بمدرسة علوى بطهران، حدد فيه برنامجه السياسى على أساس أن الرأى العام والشعب قد اعترفوا به زعيمًا للبلاد، وأنه عين حكومة مؤقتة لإجراء الاستفتاء، ومعارضة الحكومة وبدأ الخمينى بتنفيذ سياسته طبقًا للنقاط المذكورة فى مؤتمره الصحافى، ثم أعلن تكليف مهدى بازرجان رئاسة الوزارة المؤقتة فى ٥ فبراير ١٩٧٩، كما كلفه إجراء استفتاء للرأى العام حول تغيير النظام السياسى للبلاد من الملكية إلى الجمهورية الإسلامية، وتشكيل مجلس تأسيسى من ممثلى الشعب بغرض المصادقة على الدستور الجديد، وكذلك انتخاب مجلس نواب الشعب وفقًا للقانون الأساسى الجديد. فى التاسع من فبراير ١٩٧٩، كانت رئاسة الأركان العامة وقيادة القوات المسلحة قد أعلنت أنها ستبقى على الحياد فى الصراع الدائر على السلطة بين بختيار ورئيس الوزارة المؤقتة بازرجان، وعليه سلمت طهران وبقية المدن الإيرانية إلى الجماهير الثائرة وإلى الخمينى ونظامه. وشكلت اللجان الثورية لمحاكمة أعداء الثورة فى جميع أحياء طهران وغيرها من مدن إيران، وأصبح بأيدى الشباب عديمى الخبرة أحدث الأسلحة. وبدأت المحاكم تعقد فى كل مكان لتحكم بالإعدام رميًا بالرصاص على قيادات الجيش الموالية للإمبراطور، وجميع الرموز السياسية التى عرفت بالتعاون معه أو العمل تحت قيادته أو فى نظامه، حيث كانت سلطة مجلس قيادة الثورة بقيادة آية الله الخمينى فوق كل السلطات بما فيها مجلس الوزراء، وحلت الدولة الدينية محل الدولة العلمانية، وانتهى عصر بهلوى نهائيًا[ci].

وعلى الفور اعترف الاتحاد السوفييتى بالخمينى زعيم الثورة الإيرانية وبالنظام الجديد، كما أعلن كارتر تأييده لحكومة بازرجان، وعليه أعلن الخومينى فى خطابه الذى ألقاه بمدينة قم أول مارس ١٩٧٩ أنه أصدر تعليماته بمصادرة أموال وممتلكات الأسرة البهلوية ومن كان يدور فى فلكها، وتخصيص أموالهم للمستضعفين (الفقراء) من أجل بناء مساكن لإيوائهم، وأعلن مجانية استهلاك الكهرباء والماء والمواصلات لذوى الدخل المحدود، كما طرحت بعض الرموز الوسطى فى القيادة فكرة تشكيل وزارة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمكافحة الفساد، وإصلاح الصحافة والإذاعة ودور السينما لصبغها بالصبغة الإسلامية. وجاءت دعوة الخمينى لإقامة حكومة إسلامية فى وقت كانت فيه أوضاع الشيعة فى إيران قد استقرت من الناحية التنظيمة، كما كانت المؤسسات الدينية تعيش فراغًا سياسيًا كبيرًا نتيجة لسياسة القمع التى اتبعها الشاه. وبات الإيرانيون يشعرون بأن دينهم قد أصبح فى خطر بعد نزوع الشاه لإحياء العصبية الفارسية والتقاليد المجوسية، وبعد أن ألغى التقويم الهجرى وتزايد نفوذ البهائيين واليهود فى الدولة. فى الوقت الذى كانت فيه محاضرات الخمينى الصوتية تتضمن الدعوة لنهاية عصر الانتظار السلبى، والانتقال لعصر الانتظار الإيجابى، الذى يتطلب إقامة حكومة إسلامية فى ظل ولاية الفقيه. وكانت بيانات الخمينى الرسمية فى طهران شهرى فبراير ومارس، وممارسته الفعلية للسلطات الزمنية تعد إعلانًا رسميًا لزعامة الفقيه السياسية والروحية فى آن واحد، ولأول مرة فى تاريخ إيران. لهذا أضحى من الضرورى تبيان مختلف التيارات الدينية فى الثورة الإيرانية وأهم المسائل الدينية عند الشيعة[cii].

من المعروف أن الإمامة عند الإيرانيين تعد من أركان المذهب الشيعى، بل إنها أهم ما يميز الشيعة الإمامية عن غيرها من فرق الشيعة الأخرى، خصوصًا أن الامامية تعتقد أن الله سبحانه وتعالى لا يخلى الأرض من "حجة على العباد، من نبى أو وصى ظاهر مشهور أو غائب مستور". كما يعتقدون أن الله أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن ينص على الإمام على وينصبه علمًا على الناس، وأن الإمامة استمرت بالنص حتى الإمام الثانى عشر "المهدى المنتظر". وطوال مرحلة الانتظار الطويلة للإمام المنتظر، تلك المرحلة التى امتدت قرونًا عديدة لم يكن أمام الشيعة سوى الفقهاء ليحتموا بهم للقيام بدور الدولة المدنية، خصوصًا أن الفقيه عند الشيعة لا يقتصر دوره على الإرشاد الدينى والروحى، بل يتجاوزه إلى دور المتلقى للزكاة والخمس. وعليه أصبح الفقيه وثيق الصلة بالحالة الاقتصادية للمجتمع، كما توطدت صلة الفقيه بالتجار ورجال المال، فهم المصدر الأول للزكاة والخمس وما يتم وهبه من الأوقاف والتكايا. وقد اعتمدت تعاليم الشيعة على ما يعرف بـ"التقية"، أى إخفاء أسرار الموقف السياسى للطائفة ضد الأنظمة الحاكمة، ولهذا تميزت تنظيمات الفرق الشيعية بالسرية والحرص الشديد، برغم أنها كانت المذهب الرسمى للدولة خوفًا من الاضطهاد أو التشرد على يد الشاه بعد أن أخذ فى إحياء التقاليد المجوسية وشجع المذاهب الدينية الأخرى كاليهودية والبهائية والزرادشتية على ممارسة شعائرها فى العلن. وعليه ظل دور فقهاء الشيعة يعادل دور ضباط الاتصال بين أتباع المذهب الشيعى[ciii].

وبناء على تلك الأسس الجوهرية فى المذهب الشيعى كان للمرجع الدينى مكانة عالية وسلطان واسع على أتباعه ومريديه. والمرجع يتعلم فى "الحوزة العلمية"، والحوزة هى النواة الأساسية فى مدارس الشيعة، وهى أشبه ما تكون بالحلقة الدراسية بالأزهر وإن تميزت عن الأزهر فى ترتيب الدرجات الفقهية لخريجها، ففى البداية يكون طالب العلم أى دارس، وينتهى من دراسته بحصوله على الدرجة العلمية "مجتهد" التى يمنحها له أحد المراجع. وإذا أجيز الاجتهاد يلقب بحجة الإسلام، وعندما يمارس عملية الاجتهاد داخل حلقات الدرس ويؤسس قاعدة شعبية فى الحوزة يلقب بآية الله. وتعد الحوزة مؤسسة تعليمية ودينية فى آن واحد، بالإضافة إلى استقلالها الاقتصادى. وقد اختلف الفقهاء الكبار حول حدود ولاية الفقيه، وهل تشمل الحكم وإقامة الدولة أم لا؟ حيث وقف معظم الأئمة ضد فكرة إقامة الدولة، على اعتبار أنها مسئولية الإمام الغائب، أى الإمام الثانى عشر المنتظر. وأيد معظمهم قصر حدود ممارساتهم الدينية بحيث تتراوح بين ولاية الفتوى والقضاء، وإقامة الشعائر ومباشرة الأوقاف، ومطابقة القوانين السارية بالشريعة الإسلامية. وأعلن بعض فقهاء الشيعة تأييدهم لزعامة الخمينى السياسية واختلافهم الشديد حول زعامته الفقهية، نظرًا لأن الخمينى قد نادى بالولاية المطلقة للفقية وبإقامة دولة إسلامية تحت قيادته السياسية وإمامته الفقهية، وأكدوا أن الولاية المطلقة مقصورة على الإمام الغائب، وأنه على عاتقه وحده تقع مسئولية إقامة الدولة[civ].

من هذه الزاوية اشتد الخلاف بين الفقهاء الكبار، وبخاصة من حملوا ألقاب المراجع، أى أصحاب المدارس الدينية الكبرى والمكلفون بالدعوة بعد أن منحوا حق ممارسة الاجتهاد، من أمثال شريعة مدارى ومنتظرى والخمينى ورافسنجانى، ومن السادة أى المنتسبين لرجال الدين وليسوا من أبناء الحوزة العلمية فى قم مثل بنى صدر، وابن آيه الله الخمينى (أحمد)، وصهره جعفر إشراقى. غير أن الفقهاء لم يكن يخطر على بالهم بأن ينجح آية الله الخمينى فى تفجير الثورة وقيادة الدولة فى آن واحد، وعليه نشأت حساسية شخصية وعلمية بينه وبين المراجع الآخرين، وخصوصًا أن ولاية الخمينى السياسية تؤدى إلى صيغة المرجع الأوحد كما ستؤدى إلى سيادته المرجعية عليهم، وتكونت تبعا لذلك جماعة الحجتية أى المنادين بأن الإمام الغائب هو حجة الزمان. وبمعنى آخر أن وضع الخمينى الفريد قد أدى لظهور تيار كان أنصاره ضد الاشتغال بالسياسة وكانوا معنيين بأمر الدعوة فقط. وقد ضاق الخمينى ذرعاً بأنصار تيار الإمام المنتظر وترك قم وعاش فى شمال طهران. وكان على رأس المعارضين آية الله شريعة مدارى الذى اتهم بالتآمر على الإمام، كما اتهم بالتخابر مع السفارة الأمريكية فى طهران. وبرغم الخلاف الفقهى بينهما فإن نجاح الثورة فى البداية قد جذب الكثير من الفقهاء، ومن بينهم المعارضون لمبدأ ولاية الفقيه لأنها ستتيح لهم فرصة أكبر للعمل فى المجال السياسي، وما يتبعه من مكانة مرموقة فى المجتمع، لهذا لم يجاهروا برفض ولاية الخمينى الفقهية عند قيام الثورة.

كانت باكورة المعارضين سراً لولاية الخمينى الفقهية تيار الإمام المنتظر، لكنهم حصروا خلافاتهم معه داخل الاجتماعات المغلقة لكبار رجال الدين فقط، وحالوا دون وصولها حتى لرجال الدين الصغار، لكى لا تنقصم عرى التحالف أمام أعداء الثورة الدينية[cv].

وبالرغم من أن جميع الظروف الداخلية والعالمية قد هيأت للخمينى فرصة زعامة الثورة التى اشتعلت قبل وصوله بعامين، وبالرغم من وجود خلافات أساسية بينه وبين جناح لا يستهان به من رجال الدين حول حدود ولاية الفقيه السياسية، بالإضافة إلى مثقفى وسياسيى إيران السابقين، فإن جناحه قد تفوق على نظرائه من التيارات الدينية الأخرى لأسباب عدة أهمها[cvi]:

١- أن الشاه كان قد نجح نجاحًا ملموسا فى القضاء على الأحزاب السياسية الإيرانية ولو بطريقة رسمية، كما أغلق الجمعيات المهنية والنقابات العمالية وصهرها فى بوتقة الحزب الواحد المعروف بـ"رستاخيز"، ولكنه فى الوقت نفسه أهمل تمامًا قوة رجال الدين سواء من خلال ذاكرته الواعية أو خوفًا من خلق جناح كبير للمعارضة لا يمكن التصادم معه آنذاك، ومن ثم تركهم داخل أروقة المساجد يشحنون طلابهم بما يريدونه داخل حلقات الدرس سوءا فى الحوزة العلمية أو خارجها، كما تركهم يدعمون أواصر صلاتهم بالبازارات المنتشرة فى جميع أرجاء الدولة.

٢- لجوء الشاه للقوة العسكرية فى إخماد التظاهرات التى بدأت مع مطلع عام ١٩٧٧، وازدادت فيما عرف بمذبحة الجمعة السوداء (٨ سبتمبر ١٩٧٨)، فأجج دون أن يدرى الميول الثورية، واستخدام العنف المضاد، مما هيأ للخمينى فرصة نادرة ليعلن مبدأه الأساسى الرافض لحلول الوسط والداعى لردع العدوان بأشد منه تحت مظلة الجهاد الإسلامى، حتى أن تصدى الشاه المبالغ فيه للمعارضة قد أفقده جناحًا من المعارضة المعتدلة، مثل الجبهة الوطنية، وبعض رجال الدين المشاهير من أمثال آية الله شريعة مدارى، وغيرهم، مما

دفعهم للالتحام بالخمينى ورجاله، رغم التباين الفكري القائم بينهم، وجمعهم على صيغة واحدة تستهدف الإطاحة بالشاه.

٣- فى ظل المناخ الصاخب لم تستطع المجموعات الوطنية التقليدية التى كانت تضم أهل الفكر العلمانى ومثقفى إيران أن تعمل وسط جماهير المدينة، وكان رجال الدين يطلقون عليهم ألقاب "ذوو ربطات العنق" أو "موظفو الحكومة الموالون للشاه"، كما كانوا ينعتونهم بأنهم أهل التقليد العمى للغرب، وبأن الليبراليين بصفة إجمالية معادون للإسلام، تجب مقاومتهم، ومن ثم لم يجدوا المناخ الصالح لنشر مبادئهم الموضوعية، فاحتكر رجال الدين جميع المنابر للعدوان عليهم ووصمهم بالمتحالفين مع الغرب الذى أعاد الشاه وقضى على ثورة مصدق.

٤- أن الخمينى استغل فترة الاغتراب فى المنفى لرسم أيديولوجية بسيطة وملائمة لطبقات الشعب الإيرانى الفقيرة، مما سلح رجال الدين الإيرانيين بموضوعات شديدة القبول من رجل الشارع، فى الوقت الذى انشغل فيه رجال الدين الأثرياء بعلاقاتهم المتشعبة بالبازارات مما أبعدهم عن المستضعفين. ولهذا لم تجد مطالبتهم بالديمواقراطية والليبرالية آذانًا صاغية لدى الفقراء، بينما نادى أنصار الخمينى بإعادة توزيع الثروات، ونقل السلطة من الأثرياء للفقراء، والقضاء على الفساد المستشرى فى كل مكان، وتسهيل تقديم قروض لصغار المزارعين، وإمداد القرى بالتيار الكهربائى، وضمان تقديم القروض بفوائد ضئيلة، علاوة على بناء المدارس والعيادات الطبية والطرق وتوفير المسكن المناسب للمستضعفين (الفقراء)، فاكتسبوا من وراء ذلك شعبية تضاءلت أمامها شعبية التيارات الأخرى.

٥- بالإضافة إلى صفات الخمينى المعروفة والتى تمثلت فى الذكاء والوقار والقدرة على جذب المستمعين بحديثه الخلاب، فإن طريقة معيشته المتقشفة التى تشبه حياة المتصوفة فى عصور الإسلام الأولى قد جمعت حوله المستضعفين، وكانت انتقاداته لحياة الرغد التى يعيشها الأثرياء ومحترفوا السياسية شديدة القبول والاقناع لديهم. وكان الخمينى نموذجًا للحدة والثبات على المبدأ ورفض كل أنواع الرشوة والمحسوبية لدرجة قوله إنه سيحكم على أولاده بالقصاص لو ارتكب أحدهم ما يخالف الشرع، كما تميز بالديناميكية الشديدة والقدرة على انتهاز الفرصة المناسبة، فسدد ضرباته كالمطرقة على مفاسد النظام الحكام، ولقبته الجماهير بالإمام وهو لقب لم يحصل عليه فى التاريخ الشعبى إلا إثنا عشر إمامًا فقط، لذلك أضفت صفاته القيادية عليه الزعامة المطلوبة التى أنجحت الثورة فى مراحلها الأولى وحتى وفاته عام ١٩٨٩.

الفصل الثالث

الفلبين وماليزيا

أولاً: الفلبين

١- الإسلام فى الفلبين.

٢- الاستعمار الأسبانى للفلبين ومقاومته

٣- الاتفاق بين الطرفين

٤- أطماع إنجلترا فى الفلبين.

٥-أمريكا والفلبين.

ثانيًا: ماليزيا

١- الإسلام فى ماليزيا

٢- التنافس الاستعمارى الأوروبى حول ماليزيا

أ- الاستعمار الأسباني والهولندى.

ب- الاستعمار البريطانى.

٣- استقلال ماليزيا

الفصل الثالث

الفلبين وماليزيا

أولا: الفلبين

١- الإسلام فى الفلبين

وصل الإسلام إلى الفلبين عن طريق التجارة البحرية، ورسخ أقدامه بصورة عامة أولاً فى جزر المحيط الهندى القريبة إلى مراكز الإسلام القديمة، فقد وجد التجار المسلمون فى أكثر جزر المنطقة الماليزية أو أرخبيل الملايو (الذى يشمل جزر الملايو، وجزر إندونيسيا وبرنيو، والفلبين)، وفى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى وجدت جالية إسلامية كبيرة فى شمال سومطرة، وما أن حل القرن الرابع عشر حتى كان حكام ووجهاء بعض المقاطعات فى سومطره، وربما جاوه أيضًا من المسلمين، وطبقًا للدراسات الأثرية، والمعلومات التاريخية بشأن ذلك يمكن القول أنه فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى تم العثور على مستوطنات للمسلمين فى جزيرة هولو جنوبى الفلبين، وأخرى فى شمال سومطرة. ولعل القبر الذى لا يزال موجودًا فى جبل داتو فى جزيرة سولو والذى كتب عليه بالعربية (من مات غريبًا مات شهيدًا هذا قبر الشهيد تمهار وأنه توفى فى شهر رجب المعظم سنة ٧١٠هـ) يدل على أن الإسلام قد وصل إلى الفلبين فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى، وإن كثيراً من المسلمين قد وصلوا إلى الفلبين، وعملوا على تبليغ الدعوة الإسلامية، واعتنق الإسلام بعض أبناء الفلبين[cvii].

ولقد سلك المسلمون الذين قدموا إلى جزر الفلبين أقوم السبل لنشر الإسلام فى هذه البلاد فتعلموا لغة السكان وعرفوا كثير من عادات الأهالى وتزوجوا من نسائهم واشتروا العبيد ليرفعوا من قيمتهم الشخصية ونجحوا آخر الأمر فى أن يصيروا من زمرة الزعماء الذين يتبوءون أرفع مكانة فى الدولة وعملوا على توحيد كلمتهم بحذق وتناسق أكثر مما كان بصنعه الأهالى فزاد ذلك من قوتهم شيئًا فشيئًا، وساعدهم امتلاكهم لعدد من العبيد على أن يؤلفوا فيما بينهم نوعًا من الحلف ويؤسسوا ضربًا من الحكومات الملكية وجعلوها وراثية فى أسرة واحدة. وزادوا من قوتهم بأن تراضوا على شروط ودية من الطبقات الغنية القديمة ضمنت لهم حريتهم وأكسبتهم تأييد هذه الطبقات لهم. ومن هنا نرى أن المسلمين الذين استوطنوا أرخبيل الملايو قد وضعوا أساسًا سياسيًا واجتماعيًا ثابتًا لجهودهم فى سبيل نشر تعاليم الإسلام أنهم لم يقدموا على هذه البلاد غزاة كما فعل الأسبان بعد ذلك فى القرن السادس عشر، ولم يستخدموا السيف أداة لتحويل الناس إلى الإسلام بل لم يدعوا لأنفسهم حقوق جنس أسمى يتمتع بالغلبة والسيادة لكى يحطوا بذلك من شأن السكان الأصلين ويسلبوهم حقوقهم. بل قدموا فى زى التجار واستخدموا كل ما لديهم من ذكاء ومدنية مزدهرة فى سبيل دينهم ونشره أكثر من أن يستخدموا ذلك وسيلة لتوسيع نفوذهم الشخصى أو لتنمية ثرواتهم[cviii].

وقد استطاع التجار جذب قلوب الأهالى بتعلم لغتهم، ومجاراتهم فى أخلاقهم وعاداتهم ساعدهم على أن ينشروا معارف دينهم فى رفق وتدرج بأن بدءوا يحولون إلى الإسلام نساء البلاد اللاتى تزوجوا منهن والأشخاص الذين ارتبطوا معهم بعلاقات تجارية. وبدلاً من أن يعتزلوا الأهالى فى أنفه وكبرياء امتزجوا شيئًا فشيئًا فى مهمة الشعب واستخدموا كل ما يتميزون به من تفوق فى العقلية والحضارة فى القيام بأعمال التحويل إلى الإسلام وطبقوا مبادئ دينهم وسلوكه تطبيقًا حاذقًا واجتهدوا فى أمور كانوا يرونها لازمة لتقريب هذا الدين إلى أذهان الشعب الذى كانوا يرغبون فى هدايته ومن هذا الواقع "كان دعاة المسلمين على جانب عظيم من الحكمة والروية. وإلى جانب التجار كانت هناك جموع ممن يصح أن نسميهم الدعاة المحترفين وهم الفقهاء والقضاة والحجاج، وكان الحجاج فى السنين الأخيرة نشطين فى نشر تعاليم الدعوة بنوع خاص وذلك بحث مواطنيهم على لون من الحياة الدينية أكثر نشاطًا وأشد تمسكًا وبتطهيرها من بقايا عادات الوطنية ومعتقداتها، وأن عدد الذين يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج من كل جهات الأرخبيل آخذة فى الزيادة على الدوام وتبع ذلك نمو التأثير الإسلامى والفكرة الإسلامية نموا مناسبًا[cix].

وتعزى الزيادة فى عدد الحجاج إلى اليسر فى المواصلات بين مكة وأرخبيل الملايو وأدى ذلك إلى أن كثيراً من هؤلاء الحجاج صار أكثر الماماً وأشمل معرفة بمبادئ الإسلام وأكثر حماسًا لنشر مبادئ الإسلام وحث غير المسلمين على الدخول فى الإسلام.

وإلى جانب الحجاج الذين كانوا يقنعون بمجرد زيارة البقاع المقدسة وتأدية الشعائر اللازمة يوجد الذين يقضون وقتًا أطول فى مكة والمدينة لاتمام دراساتهم الدينية كما يوجد فى مكة فى الوقت الحاضر جالية كبيرة من أهالى الملايو الذين اتخذوا مقامهم فى المدينة المقدسة واستقروا فيها وهم على اتصال دائم بمواطينهم فى أوطانهم. ولجهودهم أثر فعال فى تطهير الإسلام فى أرخبيل الملايو من شوائب العادات الوثنية ووسائل التفكير الوثنى التى بقيت من العهود القديمة. كذلك طبعت فى مكة مجموعة كبيرة من الكتب الدينية باللغات المختلفة التى يتكلمها مسلمو الملايو وأرسلت إلى كل جهات الأرخبيل، وفى الواقع أن تأثير مكة فى الحياة الدينية فى هذه الجزر كان أقوى منه فى تركيا أو الهند أو بخارى. وأصبح الحجاج العائدون من مكة سواء أكانوا تجارًا أم معلمين دينيين دعاة إلى الإسلام فى البقاع التى كانوا يتصلون فيها بالأهالى الوطنيين - أضف إلى ذلك أن الجماعات الدينية بسطت نظامها على أرخبيل الملايو بل لقد وجدت أحد هذه الجماعات عهدًا وهى السنوسية أتباعا لها فى أقصى الجزر ومما يدل على تأثيرها أن كثيراً من سكان الملايو يتسمون باسم سنوسى على حين كانوا فى مكة يبدلون أسماءهم الوطنية بأخرى عربية. وقد ذكر أحد المؤرخين أن أمريكا بعد احتلالها للفلبين سنة ١٨٩٨م طلب والى الفلبين إلى الحكومة العثمانية إرسال مرشدين يهذبون مسلمى الفلبين وينورون أفكارهم نظرًا لما هم عليه من الجهل ،وكانت الدولة العثمانية وقتئذ تعتنى بأمور المسلمين بقدر إمكانها فأرسلت المشيخة الإسلامية أحد مأموريها وهو الفاضل المرحوم وجيه أفندى زيد الكيلانى النابلسى أشبه بشيخ الإسلام فى الفلبين. وقد وصل إلى الفلبين سنة ١٩١٢م واستقبله المسلمون بفرح يفوق الوصف واستمر فى الفلبين إلى سنة ١٩١٦م حيث بذل جهودًا كبيرة لتعليم الناس أمور دينهم. وبعد الكيلانى توالى قدوم المرشدين والعلماء من الأقطار العربية والإسلامية منهم الشيخ محمد منيب كزبرى من دمشق وهو مصلح يجيد قراءة القرآن الكريم وتعلم منه عدد كثير من أهل لاناو وكثر فى عهده المسلمون. ومنهم الشيخ محمد سمنودى وهو مدرس القرآن بالحرم المكى الشريف وتعلم منه عدد كبير من أهل كوباتو ومنهم العالم الحاج نور من الملايو وتعلم منه بعض طلبة العلم الفقه والتفسير والحديث[cx].

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ المسلمون فى الفلبين يرسلون أولادهم إلى الحجاز من سنة ١٩٤٨م حتى بلغ عدد المنتسبين منهم فى مختلف المدارس والمعاهد بمكة المكرمة إلى ثمانية وعشرين طالبًا معظمهم فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. كما أرسلوا إلى القاهرة أولادهم ليدرسوا اللغة العربية والعلوم الإسلامية مع الثقافة الحديثة حتى بلغ عدد المنتسبين منهم فى مختلف المعاهد والجامعات إلى مائة وتسعة عشر طالبًا معظمهم فى الجامعة الأزهرية وذلك منذ سنة ١٩٥١م وما زالت البعثات الخارجية من طلاب العلم تتدفق إلى مصر والسعودية حتى الآن كما كانت هناك بعثات لطلاب العلم قدمت لمسلمى الفلبين من البلاد العربية الأخرى مثل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب والأردن وسوريا والسودان والبحرين وقطر والكويت وغير ذلك من الدول الإسلامية مثل باكستان واندونيسيا[cxi].

كما قام الأزهر بدور واضح فى نشر الإسلام فى الفلبين حيث قدم منح لأبناء والمسلمين بالفلبين للدراسة فضلاً عن العلماء الذين أرسلهم أيضًا للفلبين لتعليم المسلمين، وتثقيفهم فى شئون دينهم[cxii].

٢- الاستعمار الأسبانى للفلبين ومقاومته

وصل الأسبان إلى الفلبين فى ١٧ مارس ١٥١٢م عندما وضع ماجلان قدمه على جزيرة جنوب جزيرة سمر بالفلبين. ثم بدأت رحلة ماجلان فى ٢٥ مارس نحو الجنوب الغربى فوصل إلى جزيرة ليماساوا فى ٢٨ مارس واستطاع أن يعقد اتفاقًا مع حاكمها كان بمثابة أول اتفاق فلبينى أسبانى فى التاريخ. بذل ماجلان جهدًا كبيراً لنشر المسيحية بالجزر المكتشفة بالفلبين، فاعتنق ملك سيبو وأتباعه المسيحية كما تنصر حوالى خمسمائة من أهل سيبو فى ١٤ أبريل سنة ١٥٢١، وقد أقيم صليب كبير على الشاطئ، وزاد عدد المتنصرين ثمانمائة من رجال، ونساء، وأطفال، وبعد عدة أيام طلب ماجلان من أهل سيبو أن يحرقوا صنمهم، لكنهم رفضوا ذلك لأنهم مازالوا يقدمون الضحايا لأجل أن يشفى الصنم أخا الملك، من مرض خطير، ولكى يحمى ماجلان عقيدة المسيحيين الجدد ذهب إلى الرجل المريض وعالجه ثم نصره هو وأسرته ففقد الناس ثقتهم فى الصنم، وأشعلوا فيه النار.

وبعد النجاح الذى حققه ماجلان فى سيبو والجزر المجاورة ظهر لابولابو حاكم جزيرة صغيرة بجوار سيبو وهى جزيرة مكتن الذى رفض الخضوع لماجلان فقرر مقاومة الأسبان فأرسل ماجلان رجاله، وأحرقوا القرى هناك لكن لم يستسلم لابولابو فقرر ماجلان إعلان الحرب لكنه حاول فى بداية الأمر أن يرسل إلى لابولابو ليعطيه فرصة أخيرة للسلام وطلب منه الاعتراف بسيادة الأسبان، ودفع الجزية فأجاب لابولابو بجرأة أنه لا يخضع لأى ملك ولا يدفع الجزية لأى قوة، وإذا كان العدو يملك رماحًا فنحن نملك رماحًا أيضًا، وشعلاً نارية[cxiii].

فأمر ماجلان بعض رجاله بحرق بيوت أهل مكتن ليخيفهم فيذعنوا له، ولكن ذلك أتى بنتيجة عكسية لأنهم عندما رأوا منازلهم تحرق ضاعفوا شجاعتهم، وهاجموا المغيرين بجرأة وبسالة أدت إلى رجحان كفتهم فلما رأى ماجلان أن النجاح ليس فى صفة أمر رجاله بالانسحاب، لكنه لقى مصرعه فى هذه المعركة فكان انتصار لابولابو فى مكتن صدمة وكارثة للأوربيين فهذا أول نجاح للدفاع عن استقلال الفلبين ضد الاستعمار الغربى وأول نصر سجله الجيش الفلبينى على الغرب بفضل لابولابو أول بطل يستطيع فى تاريخ الملايو، ويهزم ماجلان هازم البحار. وبعد موت ماجلان سنة ١٥٢١ آثر الأسبان العودة إلى بلادهم مكللين بذل الهزيمة، والخزى، ولكنهم حاولوا العودة ثانيًا لاحتلال الفلبين عدة مرات، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك إلى أن وصل القائد الأسبانى (ليجزبى كانونا) فى مارس سنة ١٥٦٥ على رأس حملة حربية مجهزة بالمدافع المحمولة على عجلات واستطاع أن يخضع ملكى جزيرة بسهول، وجالا ويوضح لهما أنه ليس كالبرتغاليين وأنه إنما جاء قاصدًا السلام، ولا يبغى سلبًا، أو نهبًا، أو إفسادًا فى الأرض، وبذلك استطاع خداعهم، وتمكن من أن يعلن معاهدة صداقة معهم. اختار ليجزبى سيبو مقرًا لحملته لما تتمتع به من موقع استراتيجى كميناء طبيعى، لكنه دخل فى نزاع مع أهل هذه الجزيرة تمكن من التغلب عليهم فانسحب أهل سيبو إلى الجبل تاركين ممتلكاتهم وبيوتهم تأكلهما النيران، وفى ٤ يونية سنة ١٥٦٥م استطاع القائد الأسبانى أن يعقد معاهدة صداقة مع أهل سيبو اعترفوا له فيها بسيادة أسبانيا عليهم، وبدفع ضريبة لهم مقابل حمايتهم من أعدائهم، وبإقامة علاقة تجارية بينهم وبين أسبانيا. وبذلك تفرغ القائد الأسبانى لبناء مستعمرة أسبانية فى سيبو لتكون حصنًا منيعًا للأسبان كما حفر بئرًا تزودهم بالماء النقى، وأقام كنيسة للقسس، وبيوتًا للجنود الأسبان، وسمى هذه المدينة (المدينة المقدسة).

لكن قامت حروب طاحنة بين الأسبان وبين المسلمين فى الفلبين استمرت فترة طويلة.

من الحروب الطاحنة فى الفلبين تلك الحروب المنكرة التى وقعت بين الأسبان وبين مسلمى الفلبين، ومما أدى إلى بشاعتها أنها كانت حربًا دينية بين الهلال والصليب كما يقولون حتى إن الأسبان حملوا مسيحى الفلبين على قتال إخوانهم مسلمى الفلبين كما كانت كل قوى الأسبان هناك معدة لقتال المسلمين الذين صمدوا وحاربوا فى منداناو وسولو أكثر من ثلاثة قرون والمسلمون يحاولون خلال هذه الحرب أن يحموا حرية دينهم وثقافتهم من أن يعتدى عليها الأسبان أو أن يتمكنوا من استعمار بلادهم.

وقد أطلق الأسبان على المسلمين فى الفلبين كلمة مورو بمعنى المسلمين ويطلقها الأسبان قديمًا على المسلمين فى أسبانيا وشمال أفريقيا وأخيرًا أطلقوها على المسلمين فى الفلبين والمورو أو المسلمون الذين يقطنون فى جنوب الفلبين يقسمون إلى[cxiv]:

١- ماجنداناو: الذين يسكنون كوتابانو.

٢- مرناو: الذين يسكنون حول بحيرة لاناو.

٣- سمال: الذين يسكنون على شاطئ سمونجا والجزر القريبة شمال سمونجا وتاوى تاوى.

٤- سانجل: الذين يسكنون خليج داباو.

٥- يكن: الذين يسكنون باسيلان.

٦- هلوانو: الذين يسكنون سولو.

ويمكن أن نرجع أسباب الحروب بين الأسبان وبين المسلمين إلى ما يأتى[cxv]:

١- الخصومة التى يراها المسيحيون بين المسيحية والإسلام ومن هنا اتصلت الحرب واستمرت عندما حضر الأسبان بصليبهم إلى سكان لا يدينون بالصليب.

٢- دفاع المسلمين عن أرضهم عندما جاءت حملات الأسبان إليها ليحموا أرضهم ويحافظوا على حريتهم ولذلك دافعوا بدون خوف عنها.

٣- حب مسلمى الفلبين للمغامرات الجريئة وممارسة الحرب منذ فجر التاريخ.

وقد وجه الملك فيليب الثانى ملك أسبانيا إلى الحاكم الأسبانى للفلبين خطاباً وضح مقصد الأسبان من هذه الحرب ويوضح هدف الأسبان منها فيقول فيه: "لقد سمحنا لك بأن تستعبد المسلمين وأن تستولى على ممتلكاتهم وتصادرها ويمكنك أن تجعلهم عبيدًا لكم خاصة إذا أرادوا أن يبشروا بدينهم المحمدى (الإسلامى) أو يحاربوك أو يحاربوا الهنود رعايانا". وقد أجابه الحاكم بخطاب يطلب فيه المدد لأجل القضاء على الدين المحمدى (الإسلامى). ومن هنا يتضح لنا أن الحرب التى شنها الأسبان على المسلمين فى الفلبين كانت حربًا صليبية يبغون منها القضاء على الإسلام هناك ثم استعمار البلاد واستغلال ثرواتها ونهب خيراتها. وقد شجع الأسبان على مواصلة الحرب ما خدعوا به أنفسهم من اتصافهم بالشجاعة، كما غرهم انتصارهم السريع على سكان البسايا ولوزون فى الشمال الذين لم يكونوا على درجة كبيرة من النظام بخلاف المسلمين الذين كانوا يقطنون الجنوب فى سولو ومنداناو. حيث هب المسلمون فى سولو ومنداناو ليدافعوا عن دينهم وعن حريتهم الوطنية التى لا يجدون أغلى منها ولكن يبذلوا فى سبيلها دماءهم ويسترخصوا أرواحهم حفاظًا عليها ودفاعا عنها وأن يقدموا فى سبيل ذلك كل ما يملكون[cxvi].

وبعد أن استقر الأسبان فى سيبو بدأوا يوسعون نفوذهم الاستعمارى المسيحى فيها فقامت معركة فى سنة ١٥٦٩ قريبًا من سيبو بين الأسبان وبين المسلمين من هولووبرنيون. كما قامت معركة أخرى فى سنة ١٥٧٠م بين الأسبان وحلفائهم من البسايا وبين المسلمين فى جزيرة مندور وقد تمكن الأسبان فى هذه المعركة من التغلب على المسلمين وحرق قراهم والاستيلاء على كثير من متاعهم. ولقد شجع هذا الانتصار القائد الأسبانى ليجازبى على أن يستمر فى توسيع نفوذه نحو الشمال فى جزيرة لوزون حيث تقع مملكة مانيلا الإسلامية ومملكة تندر الإسلامية وهما يعدان من أقوى الممالك الإسلامية فى الشمال وكان يحكم الأولى الملك راجا سليمان كما يحكم الثانية عم راجا سليمان الملك "راجالاكان دولا". وقد وجه القائد الأسبانى إلى هاتين المملكتين حملة مكونة من ستمائة جندى من البسايا الفلبينيين ومائة وعشرون جنديًا من جنود الأسبان حيث توجهت من جزيرة بناى إلى مانيلا فى مايو سنة ١٥٧٠م. وكما هى عادة الاستعمار فى خداعة ومكره نزل قائد الحملة جايتى إلى الشاطئ لكى يتفاوض مع الملك راجا سليمان وعمه زاعمًا لهما أنه جاء لمصادقتهما وبدؤا فى عقد اتفاقية بينهم غير أن راجا سليمان رفض أن تتم الاتفاقية عندما تبين له أن الصداقة مع الأسبان تعنى دفع الضريبة والعبودية لأسبانيا. ولذلك ثار الملك راجا سليمان معلنا أنه سيقاتل بدلاً من أن يدفع الضريبة ويقبل الحماية الأسبانية.

وقد اشتعلت نار الحرب عندما أطلق القائد الأسبانى نيران مدافعه على سفينة لكى يدعوها إليه فظن الملك راجا سليمان أن المملكة قد احترقت فبدأت الحرب بشراسة ووحشية. ولكن لسوء الحظ تغلب الأسبان المجهزون بأسلحتهم مع جنود البسايا على جنود راجا سليمان. واضطر الأخير إلى الانسحاب تاركاً منازله تشتعل فيها النار بعد أن استشهد من رجاله مائة شهيد وأسر ثمانون منهم بعض الصينيين واليابانيين كما غنم الأسبان بعض المدافع والسفن الحربية. ولكن رئيس الحملة لم يستقر فى مانيلا طويلا خوفًا من هبوب العواصف مع احتمال رجوع راجا سليمان لكى يسترد مملكته. فرجع إلى جزيرة بناى فخورًا بهذه الانتصار العظيم والغنيمة الثمينة[cxvii].

سر القائد للحملة الأسبانية بالانتصار على راجا سليمان ولذلك قرر نقل مقر القيادة من سيبو إلى مانيلا. وفى إبريل سنة ١٥٧١م تحركت الحملة الثانية بقيادة القائد العام ليجازبى مبحرة من جزيرة بناى بأسطول مكون من سبع عشرة سفينة عليها مائتان وثمانون جندياً أسبانياً وعدة مئات من جنود البسايا بالإضافة إلى قوات الحملة السابقة واتجهت كل هذه القوى إلى خليج مانيلا حيث قابل لاكان دولا – حاكم مملكة تندو وعم راجا سليمان – الحاكم العام الأسبانى فى سفينة شراعية ورحب به فقابله الحاكم الأسبانى بلطف ووعده أنه سوف يعفو عن راجا سليمان لمقاومته للقائد الأسبانى فى العام السابق. ولكن شخصًا خائناً يدعى ديمندول ذهب إلى القائد الأسبانى وأخبره أن راجا سليمان يستعد للحرب.

فاتجه ليجازبى إلى مانيلا فتمكن من السيطرة عليها ونصب نفسه حاكمًا عليها. لم يتنازل راجا سليمان عن مملكته سلميًا وبدون قتال بل قاتل إلى آخر قطرة من دمه بكل شجاعة وبسألة وقدم روحه فى سبيل وطنه وأثر الموت الشريف على الحياة الذليلة حياة العبودية والتبعية. فبينما كان القائد العام الأسبانى مشغولاً بإعادة بناء مانيلا والعمل على استقرار حكمه. جمع راجا سليمان المحاربين من رجال فى القوارب عند خليج بجوار قرية من مانيلا واستعان بحكام الأقاليم فلبى نداءه للحرب دفاعًا عن حرية الوطن داقو مكابيب حاكم هانجانوى وداتوبرانجايس حاكم بمنجا. وفى يونية سنة ١٥٧١م زحف راجا سليمان بقواته البحرية إلى الشاطئ الشمالى لخليج مانيلا وتقابل مع القائد الأسبانى فى قنال بنكوساى. حيث دارت رحى الحرب الضروس فى هذا النهر وقاتل الأسبان بأسلحتهم الحديثة يعاونهم حلفاؤهم من البسايا حتى كسبوا المعركة. وسقط راجا سليمان شهيدًا فى ميدان الحرب دفاعًا عن حرية وطنه كما استشهد معه ثلاثمائة جندى وأسر الباقى من رجاله بعد المعركة وكان من الأسرى ابنه وابنى أخت الملك لاكان دولا. وباستشهاد راجا سليمان بطل مانيلا وهزيمته فى الموقعة فى يونية ١٥٧١م أعلن سقوط المملكة الإسلامية فى مانيلا، وفقدت مانيلا حريتها وصارت المقر الرئيسى للاستعمار الأسبانى حيث بنى فيها كنيسة للقسس وقصراً للحاكم الأسبانى ومائة وخمسين منزلاً للمستعمرين الأسبان، كما أقيم حصن راجا سليمان ثانيًا وهكذا أقيمت مدينة أسبانية على حطام المملكة الإسلامية فى مانيلا. وبنهاية هذه الحرب لم يقم للمسلمين قائمة بعد ذلك فى أكبر جزيرة فى شمال الفلبين وهى جزيرة لوزون[cxviii].

استطاع الأسبان أن يقضوا على المسلمين فى شمال الفلبين ويزيلوا منها المملكة الإسلامية وبعد سبع سنوات من قضائهم على المسلمين فى لوزون واستقرارهم فى مانيلا راودهم الأمل فى أن يقضوا على سلطان المسلمين فى جنوب الفلبين كما قضوا عليه فى شمال البلاد وبذلك يتحقق لهم امتداد استعمارهم إلى جميع جزر الفلبين وتختفى الراية الإسلامية منها لا يرتفع فيها إلا الراية المسيحية ولذلك تتابعت حملات الأسبان بضراوة وعنف على المسلمين فى الجنوب. ولكن المسلمين قابلوا هذه الحملات بإيمان ثابت وقلب غيور على حماية بلادهم ودينهم وجميع مقدساتهم واستمرت الحرب الضروس أكثر من ثلاثة قرون مملوءة بالدماء والأشلاء لإرضاء نزعات دينية مسيحية حاقدة على الإسلام والمسلمين وموغلة فى التعصب للقضاء على المسلمين وطمس التعاليم الإسلامية. وقد تتابعت الحملات الأسبانية المجهزة بالأسلحة الحديثة التى وجهوها نحو المسلمين فى الجنوب حيث اعتصم المسلمون بدينهم وتمسكوا بعقيدتهم وكتبوا بدمائهم الطاهرة الزكية أعظم واجل صفحات مضيئة فى التاريخ الفلبينى والتى تشهد بحبهم للحرية واستمساكهم بها وإيثارهم الموت على أن تستعمر بلادهم أو يعتدى على عقيدتهم الصحيحة فى صدق الدين الإسلامى الحنيف الذى يدينون به.

هذا ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تتابعت المعارك بين الطرفين، ففى سنة ١٥٧٨م أرسل القائد الأسبانى العام حملة أسبانية تحت قيادة الضابط أستيبان دى فيجورا لتهاجم مدينة هولو فوصلت إليها فى يونية سنة ١٥٧٨م، وتولى السلطان محمد حليم بنجرين سلطان سولو قيادة المسلمين للدفاع عن المدينة ومع أن الأسبان استطاعوا أن يستولوا على جزء من المدينة إلا أنهم فشلوا فى الاستيلاء عليها نظرًا لما قام به المسلمون من مقاومة عنيدة، وأقسم السلطان بالانتقام من الغزاة فأعلن حرباً شاملة ضد الأسبان الذين آثروا الانسحاب من هولو. وفى سنة ١٥٩٦ حصل الضابط "دى فيجيور" من الحاكم العام الأسبانى على حق مطلق لاستعمار جزيرة منداناو وأن يكون الحاكم الأسبانى عليها ومن ثم توجه من جزيرة أيلو أيلو فى فبراير سنة ١٥٩٦. حملة حربية كبيرة مكونة من ألف وخمسمائة جندى فلبينى ومائتي وأربعة عشر جنديًا أسبانيا واثنين من القساوسة - قاصدًا جزيرة منداناو، واستطاع أن ينزل الحملة فى ريجراندا فى كوتابانو ومن هناك سار إلى بوهاين حيث قامت معارك حامية ومناوشات متتالية قاد المسلمين فيها داتو سيلانج واستطاع أوبل أخو القائد المسلم أن يقتل قائد الحملة الأسبانية ولكن الحملة عززت بقوة أخرى من مانيلا لتتابع مشروعها الاستعمارى فى منداناو.

غير أن المسلمين استطاعوا مع حلفائهم أن يقذفوا بالأسبان فى البحر فاضطر القائد الأسبانى "رنجيلو" أن يحرق الاستحكامات والحصون التى أقامها الأسبان قريبًا من كوتابلتو وانسحب إلى كلدرا قريبًا من سمونجا حيث بنى حصناً فيها وكان بناء هذا الحصن هو نتيجة الحملة الأولى لاستعمار منداناو بعد خيبتهم فى أن يحتلوا كوتاباتو[cxix].

وقد أثار غزو الأسبان للأرض الإسلامية فى كوتابوتو هياج المسلمين فى منداناو سولو وحرك عداوتهم وحقدهم وأشعل نار غيظهم فأعلنوا الحرب والجهاد الدينى ضد الأسبان وبدأوا مشروعًا لتخريب كل المدن والقرى الأسبانية المسيحية فى لوزون وبسايا.

وفى يولية سنة ١٥٩٩م جهز اثنان من أمراء المسلمين حملة مكونة من ثلاثة آلاف مسلم أقلعت بهم خمسون سفينة للانتقام من الأسبان فى الشمال حيث تمكنوا من سلب ونهب قرى الشواطئ فى جزر بناى، ونجروس. وسيبو. وأثاروا الرعب فى تلك الأماكن وأحرقوا المنازل والكنائس وأسروا الرجال والأطفال وقتلوا كثيراً من أهلها بقسوة وعنف وانتهكوا حرمتها جزاء لاعتداء الأسبان على بلادهم. ثم قاموا بحملة أخرى سنة ١٦٠٠م عدتها تسعون سفينة وأربعة آلاف مقاتل للانتقام من الأسبان ولكن لم يحالفهم النجاح كما حالفهم النجاح فى الحملة الأولى. وقد أثارت أخبار تحرك المسلمين بغاراتهم على الجزر السابقة للثأر من الأسبان حفيظة الأسبان وخاصة الحاكم الأسبانى العام فى مانيلا فأخذ يرسل حملة بعد الأخرى للهجوم على أرض المسلمين فى الجنوب وكانت أولى هذه الحملات بقيادة قائد محنك هو الضابط كاليناتو وبقوة تعدادها مائتا جندى أسبانى وأعداد كثيرة من جنود الفلبين المسيحيين. وقد توجهت تلك الحملة إلى هولو فى فبراير سنة ١٦٠٢م وحاولت أن تحتل المدينة وضربت حولها الحصار ثلاثة ولكن المسلمين صمدوا لتلك الحملة ما اضطر القائد إلى فك الحصار والعودة من حيث أتى. وقد تتابعت الحملات الأسبانية بعد ذلك على هولو بغية الانتصار على المسلمين فيها وحملهم على اعتناق المسيحية. وقد بلغ عدد تلك الحملات من سنة ١٥٧٨م إلى سنة ١٨٧٦م أكثر من ستة عشرة حملة كلها كانت تبوء بالفشل سوى الحملة الأخيرة التى تمكنت من احتلال سولو. وكما وجه الأسبان حملات أخرى إلى منداناو. وقد مكن الأسبان من ذلك استيلائهم على سمونجا وجعلها مركزًا استراتيجيًا لهم تسهل الإغارة منه على المسلمين فى هولو ومنداناو. ومن الحملات التى استطاع الأسبان أن ينتصروا فيها على المسلمين ويحققوا بعض النصر الحملة التى توجهت مرة إلى لاناو ومرة إلى هولو بقيادة القائد الأسبانى كركورا[cxx].

٤- الاتفاق بين الطرفين

عندما عجز الأسبان عن كبت قوى المسلمين وهزيمتهم بدأت القوات الأسبانية تتفاوض مع المسلمين وقد عقدت عدة معاهدات بينها وبين المسلمين منها اتفاقية سنة ١٧٢٥م وبمقتضاها أصبحت التجارة حرة بين المسلمين والأسبان ويتعهد المسلمون بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين.

وفى سنة ١٧٣٧ وقع السلطان علم الدين الأول سلطان سولو والحاكم الأسبانى العام اتفاقا مكونًا من خمس مواد ويقتضى[cxxi]:

١ – بإقامة سلام دائم بين الدولتين وكل مخالفة أو ظلم أو تعد من القوتين يسوى سلميًا.

٢ – أن يقدم كل منهما للأخر العون ضد أى عدو أجنبى والدول الأوروبية مستثناه من هذا الشرط.

٣ – حرية التجارة بين الدولتين للتجار الذين يحملون جواز سفر، من الدولة.

٤ – أن تكون كل دولة مسئولة عن هتك السلام بين الدولتين بأحد رعاياها.

٥ – تبادل الأسرى بين الدولتين وإعادة تماثيل الكنائس وزخارفها التى يملكها أهل سولو.

وهناك معاهدات أخرى أبرمت فى سنة ١٧٤٦، ١٨٠٥، ١٨٣٦، ١٨٥١، ١٨٧٨.

وقد قام السلطان علم الدين سلطان سولو بإصلاحات كثيرة منها تهذيب قانون أهل سولو ونظم القضاء فيها وترجم بعض نصوص القرآن الكريم وكتب اللغة العربية إلى لغة أهل سولو. كما حث الناس على إتباع دينهم وإقامة الصلوات الخمس. وأمر العلماء بأن يتعلموا العربية وأن يعدوا قاموسًا عربيًا سوليًا كخطوة أولى لجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية كما سك النقود ونظم جيشاً صغيراً وحاول أن يقيم أسطولاً بحريًا ولذلك يتذكره أهل سولو دائمًا ويذكرون عظيم أعماله.

وفى اتفاق سنة ١٧٤٦ حضر رسول خاص من مانيلا إلى السلطان علم الدين يحمل رسالة من الملك فيليب الخامس ملك أسبانيا يرجو فيها أن يسمح للقسس بأن يأتوا إلى هولو ويعظوا بالمسيحية لأهل هولو وقد عمل السلطان لرسول الملك حفله تكريم، ووافق على أن يعظ القسس فى هولو بل ذهب إلى أبعد من ذلك إذ سمح لهم بأن يقيموا كنيسة فى هولو. وفى مقابل ذلك على أسبانيا أن تساعد السلطان فى إقامة أسطول

بحرى بمبلغ ستة آلاف بيزو وتمده باثنى عشر مدفعًا عيار ١٢٣ رطلاً وكمية من المسامير والحديد وقد حضر القسس الجزويت إلى هولو تنفيذا لهذه الاتفاقية. ومع رضا السلطان عن ذلك إلا أن الناس قابلوا ذلك باستياء عظيم وتكون حزب معارض بقيادة الداتو بانتيلان الذى قاد حملات منظمة ضد الأسبان حيث تركت خرابًا فى كل مكان واستطاع أن يدخل الرعب والفزع فى كل القرى المسيحية فى منداناو وبسايا ولوزون حتى شوارع مانيلا نفسها حيث نزل المسلمون إلى شاطئ مانيلا تحت سمع وبصر السفن الحربية الأسبانية واستطاعوا أن يردوا على الحملات المسعورة التى قادها الأسبان على المسلمين فى الجنوب[cxxii].

وفى سنة ١٨٤٨ بنى حاكم الفلبين الأسبانى ثلاث سفن بخارية وسفينتين استكشافيتين وثلاث سفن نقل للجنود وقد بنت إنجلترا هذه السفن لحاكم الفلبين وهى سفن تسير أسرع من السفن الشراعية التى يستعملها المسلمون وكان ظهور هذه السفن فى المحيط الهادى بداية لنهاية سيادة المسلمين على البحار إذ بهذه السفن وبقوة كبيرة من الجنود تهاجم الأسبان المسلمين فى هرل ودمروا استحكاماتهم واستولوا عليها فاضطر سلطان هولو والأمراء أن يعقدوا معاهدة مع الأسبان فى ١٨٥١م اتفق فيها على سيادة الأسبان على هولو وأن يرفع السلطان العلم الأسبانى وألا يعقد اتفاقا مع أية دولة أخرى وفى مقابل ذلك يقدم الأسبان للسلطان وللأمراء معاشًا لأجل الحياة وأن يسمحوا للمسلمين بمزاولة شعائرهم الدينية ويضمنوا للسلطان أن يرث أبناؤه عرش هولو. ومع ذلك فإن هذه المعاهدة لم تنه الحرب بين الأسبان والمسلمين إذ بمجرد جفاف حبر هذه المعاهدة عاود المسلمون حربهم ضد الأسبان وهزموا الأسبان فعاود الأسبان الكرة على المسلمين فى سنة ١٨٧٦م حيث هاجموا هولو بقوة كبيرة مكونة من تسعة آلاف جندى أسبانى وفلبينى بسفن بخارية حربية مجهزة بمدافعها. وقد دافع المسلمون عن المدينة دفاع الأبطال ولكنهم منوا بمذبحة فظيعة من الأسبان. وفى هذه المرة سقطت هولو سقوطًا تامًا واستولى عليها الجنود الأسبان ونقل المسلمون السلطة إلى ماينبون فى جانب سولو الأخر ووقع السلطان معاهدة سلام مع الأسبان سنة ١٨٧٨م ولكن ذلك لم يمنع المسلمون الأحرار من أن ينغصوا على الأسبان حياتهم وجعلوا إقامتهم فى هولو جحيمًا ففى سنة ١٨٨٢م ذبح المسلمون كثيراً من جنود الأسبان فى شوارع هولو قدر الذين قتلوا من الجنود المسيحيين بأيدى المسلمين من سنة ١٨٩١ إلى سنة ١٨٩٩ بثلاثمائة جندى مسيحى. أما فى منداناو فقد جرد الأسبان حملة عليها فى سنة ١٨٨٦م تمكنت من تخريب بعض استحكامات المسلمين وبيوتهم ولكنهم فشلوا فى احتلال أرض المسلمين فعادوا لأسباب الكره سنة ١٨٩١، حيث استطاعوا أن يستولوا على كوتاباتو ولكن بعد وقت قصير تمكن المسلمون من طردهم منها وأرغموهم على الرجوع إلى سمونجا. فجرد الأسبان حملة أخرى سنة ١٨٩٥ ضد المسلمين فى لاناو ولكنها باءت بالفشل. وأخيراً قامت الحرب بين أمريكا والأسبان سنة ١٨٩٨م حيث كان الأسبان والمسلمون يموتون فى الغابات لما اتصف به الأسبان من اعتداء وتعصب ولما آمن به المسلمون من دفاع عن أرضهم ووطنهم وحفاظًا على دينهم وعقيدتهم وبعد أكثر من ثلاثمائة سنة من الغارات المحمومة والحملات المتكررة فشل الأسبان فى أن يحتلوا أرض المسلمين أو يتمكنوا من تنصير المسلمين الشجعان. وفى مايو سنة ١٨٩٩ احتل الجيش الأمريكى هولو ثم سمونجا وعاد الجنود الأسبان من ميدان القتال إلى أسبانيا بخفى حنين يحملون الخيبة والفشل[cxxiii].

٥- أطماع انجلترا فى الفلبين

استطاعت إنجلترا أن تحتل مانيلا سنة ١٧٩٢م بدعوى حمايتها من غارات المسلمين والصينين ولكنهم عادوا وسلموها للأسبان بموجب معاهدة باريس سنة ١٧٦٣ وفى سنة ١٧٧٢م ظهر طمع الإنجليز فى سولو وطلبوا من السلطان السماح لهم أن يقيموا مصنعًا فى هولو ولكن السلطان رفض طلبهم. فعمدوا إلى جزيرة صغيرة فى أرخبيل سولو واستولو عليها وأقاموا فيها الاستحكامات وجعلوها قاعدة حربية وقد استطاع الإنجليز البقاء فى هذه الجزيرة. ولكن فى سنة ١٧٧٥م هاجم داتو تنتج - ابن أخت السلطان - المستعمرة الإنجليزية فى تلك الجزيرة وقتل المستوطنين الإنجليز وكل من فى المعسكر ولم ينج من الإنجليز سوى ستة أفراد هربوا فى سفينة صغيرة وغنم المسلمون غنائم كثيرة منها خمسة وأربعون مدفعا وعدة سفن إنجليزية. وقد عاو الإنجليز مهاجمة سمونجا سنة ١٨٠٢م ولكنهم فشلوا فاحتلوا بقوة كبيرة الجزيرة السابقة التى طردوا منها فى أرخبيل سولو وأقاموا مركزا تجاريًا ومعسكرا حربيًا. ولكن عداوة المسلمين والأسبان لهم وعدم نجاح المركز التجارى جعلهم يتنازلون عن مشروعهم الاستعمارى ويجلون عن أرض المسلمين فى ديسمبر سنة ١٨٠٦م[cxxiv].

٦- أمريكا والفلبين

بعد أن انتصرت أمريكا على الأسبان فى الفلبين دفعت أمريكا إلى أسبانيا مائتى مليون دولار لتحل محلها فى الفلبين وتحرر بذلك عقد أبرم فى باريس فى ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨م وقد قاوم المسلمون الغزاة الجدد من أمريكا بدون هوادة وقدموا الشهداء من أبنائهم وأمرائهم فى السنين المتتالية فقد تقابل المسلمون مع قوى الاحتلال الأمريكى فى موقعة قريبة من هولو سنة ١٩٠٦ حيث استشهد من المسلمين أكثر من ستمائة شهيد من الرجال والنساء والأطفال وكانت الموقعة الثانية من هولو أيضًا فى سنة ١٩١٣ وقدم فيها المسلمون كثيراً من الشهداء وثبت خلال هذه المعركة تفوق الأسلحة الأمريكية على أسلحة المسلمين وغيرت أمريكا بعد هذه الموقعة من سياستها فاختارت حكامًا من المدنيين لتهدئة شعور المسلمين واستطاع (فرانك كرينتر) أول محافظة أمريكى لجزيرة سولو ومنداناو أن يظهر الصداقة ويكون سنة ١٩١٤ وزارة خاصة بشئون منداناو وسولو للإشراف فى المناطق الإسلامية ، واستطاع (فرنك كرينتر) أن يعقد معاهدة مع السلطان جمال الكرم سلطان سولو فى سنة ١٩١٥ تنازل فيها السلطان عن سلطاته الدنيوية واعترف فيها بالنفوذ الأمريكي فى بلاده مقابل إعطائه معاشًا والاعتراف به سلطان روحى لمسلمى الفلبين. وبذلك أفل نجم السلاطين المسلمين. ثم بذلك الوزارة الخاصة بشئون منداناو وسولو وضمت إلى مكتب شئون القبائل سنة ١٩٣٠م. لقد استطاع (فرانك كرينتر) بحسن إدارته وحكمته وتقديره لشخصية المسلمين أن يحقق فى سنين قليلة ما لم تستطع سيوف الأسبان أو مدافع الأمريكيين تحقيقه من نشر السلام والطاعة فى أرض المسلمين.

وفى سنة ١٩٢٦ وافقت أمريكا على استقلال الفلبين تدريجيًا مع الإبقاء على المصالح الأمريكية. وبعد استقلال الفلبين ١٩٤٦م جعلت إدارة شئون المسلمين فى يد رئيس الدولة الكاثوليكى اعتباراً من سنة ١٩٥٠م فأخذ يعمل على تفتيت القوى الإسلامية وحرمانها من الحقوق التى تتناسب مع تعدادها بالنسبة لمجموع سكان الفلبين. وكان ذلك من الأسباب التى أدت إلى تأخر المسلمين لعدم قيام الدولة بأية مشروعات إصلاحية تؤدى إلى تقدمهم كما أدى ذلك إلى ضياع كثير من أراضيهم، ففى عام ١٩٠٨م كان المسلمون يسيطرون على ٩٢% من مجموع مساحة ميناداناو ولكنهم فى سنة ١٩٧٠ نتيجة لسياسة القهر والاضطهاد وإخراج المسلمين من أراضيهم ومنحها للمهاجرين المسيحيين فإن مساحة الأرض التى يعترف لهم بها لا تزيد على ٣٥% وإن كانوا يضعون أيديهم فعلاً على ٦٥% من مجموع مساحة الأرض كلها. والمسلمون لا يتركون أرضهم إلا بعد أن يقدموا كثيراً من أبطالهم شهداء فى مقاومة جماعة (ايلاجاس) وهى تنظيم سرى هدفه الاستيلاء على الأرض التى يملكها المسلمون وقد درب أفراد هذه الجماعة على حرب العصابات فى إسرائيل ووجد كثير من المدافع الرشاشة الإسرائيلية فى حوزتها وهذه الجماعة تعد من أخطر الجماعات الكاثوليكية تعصبا ضد المسلمين حيث يصلون على إبادة المسلمين والاستيلاء على أرضهم. وتحت ضغط قواهم المتفوقة على المسلمين فى العدد والسلاح يترك المسلمون أرضهم لينضموا إلى معسكرات اللاجئين المسلمين التى تضم اليوم ما يزيد على خمسين ألف لاجئ[cxxv].

ثانيًا: ماليزيا

١- الإسلام فى ماليزيا

تقع ماليزيا بين منطقتين تفصل بينهما مسافة ٧٥٠ كيلو متراً، الأولى هى شبه جزيرة الملايو، والثانية هى شمالى جزيرة بورنيو حيث توجد ولايتان تبلغ مساحتهما معًا ١٩٨,٨٤٧ كيلو مترًا مربعًا وهى ولاية صباح، وولاية ساراواك. يتألف سكانها من مجموعات متعددة من السكان وهم الملايو ويشكلون ٥٦%، والصينيون يشكلون ٣٢%، والهنود يشكلون ١٠%، ومجموعات محلية يشكلون ٢%. وصل الإسلام إلى ماليزيا فى القرن الثالث عشر الميلادى نتيجة التجارة المستمرة بين شبه جزيرة الملايو، وأطراف شبه جزيرة العرب التى انطلق منها الإسلام.

ورغم تعدد الديانات فى ماليزيا، فإن المسلمين كانوا يشكلون الأكثرية بنسبة ٥٢% من مجموع السكان، وغالبًا ما ترتبط الديانات بعناصر السكان، فالملايويين غالبًا مسلمون، والصينيون بوذيون، والهنود هنادك، وإن كان بعض الصينين، والهنود مسلمون، وكذلك فإن بعض الملايويين غير مسلمين سواء أكانوا بوذيين أم هنادك أم عبدة أرواح، وهم أهل الغابات، وتبلغ نسبة النصارى فى ماليزيا ٨% من مجموع السكان.

وقد نص الدستور فى البلاد على أن الدين الإسلامى هو الدين الرسمى للدولة[cxxvi].

٢- التنافس الاستعماري الأوروبي حول ماليزيا.

انطلقت البرتغال من قاعدة جوا، على سواحل الهند الغربية – ووصلت إلى مالقا فى عام ١٥٠٩ وفشل هجومهم، وبعد عامين عاودت الكرة بقيادة البوكيرك، حيث سقطت فى أيديهم عام ١٥١١ وكان لسقوط مالقا أثر كبير فى أوروبا حتى استدعى الأمر إلى إقامة "قداس شكر" فى روما عام ١٥١٥[cxxvii].

أ- الاستعمار الأسبانى والهولندى

عند وصول الأسبان إلى الشرق كان التجار المسلمين من جزيرة بورنيو يقومون بتجارة نشطة رائعة مع بقية الجزر، كما أن الدعاة إلى الإسلام كانوا يبذلون جهودًا واسعة للدعوة وللتوعية بأهداف المستعمرين وعملهم ضد الإسلام، كما أن إمارة (برونى) قد أطلقت صيحة الدعوة لإسلام جارتها، وكان مسلمو (بورنيو) يمدون يد المساعدة للمسلمين فى القسم الجنوبى من الفلبين بعد أن توقف التوسع الإسلامى فى الجزر الشمالية نتيجة احتلال الأسبان لمدينة (مانيلا). وعندما وصلت هذه المعلومات لحاكم الفلبين الأسبانى (فرنسسكودى سندى) كتب لسلطان بورنيو (سيف الرجال) يطلب منه التوقف عن إرسال الدعاة للفلبين وأواسط بورنيو وأن يقبل منصرين كاثوليك فى بورنيو، ولكن هذا الطلب قد رفض بحزم، وكان ذلك عام ١٥٧٩. ولم تستطع إسبانيا أن تقوم برد فعل لعدم توفر الإمكانات لديها وقتذاك. هذا علاوة على تحطم أسطولها فى يوليو ١٥٨٨ على يد الأسطول البريطانى فى الموقعة المعروفة باسم الارمادا **Armada**، وهو ما مهد الطريق لدول أخرى أن تتقدم نحو الساحة، وخشيت أوروبا أن تفقد ما حصلت عليه إذا ما انطلقت حركة جهاد ضدها تدعم ما يقوم به العثمانيون من توغل فى شرق أوروبا، لذا أسرعت الدول البحرية الأوروبية لتملأ هذا الفراغ مما أدى إلى نشوب نزاع فيما بينها لبسط نفوذها. فكانت هولندا فى حرب مع الأسبان سادتها وحكامها السابقين، وأصبحت السفن الهولندية – بعد موقعة الارمادا – تنتقل فى تلك البحار دون خوف من منازع قوى، فاتجهت أربع سفن هولندية نحو الهند عام ١٥٩٥، وبعد عام وصلت إلى سومطرة وجاوة لأول مرة وحدثت اشتباكات مع الأهالى، كما حدث مع البرتغاليين من قبل، وحاول البرتغاليون التصدى للأسطول الهولندى، فأمروا سفنهم بالتحرك من ملقا وجاوه لهذا الغرض، وعدوا كل سفينة لاتتبعهم غنيمة لهم يأخذونها، ومنها السفن الإندونيسية، فاصطدم البرتغاليون مع الأندونيسيين، وعجز الأسطول البرتغالى عن تحقيق غايته، وفى الوقت نفسه اعتبر الإندونيسيون الهولنديين حلفاء لهم ضد البرتغاليين. وهكذا بدأت البرتغال تتزحزح عن مواقعها فى تلك الجزر، وإن احتفظت بمركز ملقا مدة أربعين سنة أخرى، إلا أنها بقيت ضعيفة لا يهتم بها أحد وبدأت هولندا تسيطر على المنطقة فأسست "شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢" على غرار شركة الهند الشرقية البريطانية التى تأسست عام ١٥٩٩، عندما استولوا على مدينة (مانيلا)، وقد أطلقوا سراحه، وتنازل للشركة عن منطقة فى شمالى جزيرة بورنيو لتقيم عليها مركزًا لتجارتها، ولكن هذا المركز كان خاسرًا فلم يعوض تكاليف إقامته. وعملت الشركة بعدئذ لإقامة قاعدة لها فى شبه جزيرة الملايو، وقد تمكنت من ذلك بسهولة إذ تملك (فرنسيس لايت) باسم الشركة جزيرة (بينانغ) التى تخضع لإمارة (قدح) وذلك عام ١٧٨٦، وبعد خمسة أعوام حاولت إمارة (قدح) استعادة الجزيرة، فوافقت الشركة على أن تدفع لسلطان إمارة (قدح) وخلفائه من بعده مبلغ عشر ألف دولار ماليزى سنوياً مقابل اقتطاع جزيرة (بينانغ)، وكذلك فإن الشركة تمكنت من شراء ميناء سنغافورة عام ١٨١٨[cxxviii].

وهكذا صار لشركة الهند الشرقية البريطانية ثلاثة مراكز تجارية فى جنوب شرقى آسيا وهى: مالاقا، وبينانغ، وسنغافورة فوحدتها بعضها مع بعض عام ١٨٢٥، وألفت منها مستعمرة للأفواج القادمة من بريطانيا إلى جنوب شرقى آسيا، وأصبحت هذه المستعمرة تدار من قبل حكومة الهند، وفى عام ١٨٦٧ سلمت المستعمرة إلى وزارة المستعمرات البريطانية. اتخذ البريطانيون طريق المكر فى الإدارة فلم تتدخل أول الأمر فى شئون الحكومات الملايوية المحلية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر لأن شركة الهند الشرقية البريطانية التى كانت لها السيطرة فى بداية الأمر ولا الحكومات المتعاقبة على السلطة فى بريطانيا بعد أن سلمت المستعمرة إلى وزارة المستعمرات البريطانية، غير أن السياسة قد تغيرت بعد أن استقر الوضع للبريطانيين، وغدوا دون منافسين. وأخذ الاستعمار البريطانى منذ عام (١٨٧٣م) يتوسع فى شبه جزيرة الملايو، وقد توطد على شكل معاهدات مع سلاطين الولايات واستمر نشاط الشركة ووجدت الفرصة مناسبة للعمل لانشغال إنجلترا فى حروبها مع الأسبان كما أن هولندا اتجهت إلى تلك المنطقة بعد أن انهارت تجارتها مع الهند بسبب منافسة إنجلترا وفرنسا لها، وقد أحست بالثراء وضرورة الاستمرار فى الاستعمار.

واشتد التنافس بين هولندا وإنجلترا فى المنطقة وكانت النتيجة أن اضطرت هولندا إلى إلغاء كل احتكاراتها فى تلك الجهات، ولكنها كانت قد احتلت ملقا عام ١٦٤٢. وأخيراً احتلت فرنسا الأراضى الهولندية فى أوربا عام ١٧٩٥ فضعف أمر هولندا وزالت واستسلمت ملقا للإنجليز. وانتهت الحرب بين هولندا وإنجلترا إبان الحروب النابليونية وبعد هزيمة بونابرت، عادت هولندا فاستولت على ممتلكات الشركة الهولندية السابقة ولم تعد إلى مركز ملقا إلا فى مناسبتين لمدة محدودة فى كل مرة ثم تنازلت عنها نهائيًا فى عام ١٨٢٤، مقابل إعطائها مركزًا فى غربى جزيرة سومطرة[cxxix].

ب- الاستعمار البريطانى

بدأت المصالح البريطانية فى الملايو من الناحية التجارية أولاً، مثلما بدأت مصالح سابقيتها (البرتغال وهولندا) من قبل، ففى النصف الأول من القرن الثامن عشر كانت شركة الهند البريطانية الشرقية بحاجة إلى مركز لتجارتها مع الصين، وكانت أول محاولة لإقامة هذا المركز فى شمالى جزيرة بورنيو، وكان هذا الجزء يتبع لسلطان (صولو). وصولو مجموعة جزر فى جنوبى الفلبين، وكان هذا السلطان قد وقع فى أسر البريطانيين أو الدويلات فى شبه الجزيرة كلها حيث غدوا حكامًا محليين يرتبطون بالنفوذ البريطانى ويخضعون له، وفى عام (١٨٧٦م) جرت مفاوضات بين البريطانيين وبين حكام ولاية (بيرق) وعقدت معاهدة بين الطرفين كان الهدف منها أن يأخذ سلطان (بيرق) برأى المقيم العام البريطانى، ويعمل بموجبه فى كل الأمرو خلا ما يمس الإسلام والعادات الملايوية، على أن العادات غالبًا ما تنبع من العقيدة، وفى العام نفسه دخل سلطان (سلانغور) فى معاهدة مشابهة، وقبل بالمقيم البريطانى فى ولايته، وكذلك اتخذت ترتيبات مشابهة فيما بعد سلاطين (نيغرى سميلان) و(باهانغ) ثم راحت بريطانيا تجمع هذه الإمارات وتقسمها كما تشاء، وكما يحلو لها، ففى عام (١٨٩٤م) شكلت اتحادًا من كل من (بيرق) و(سلانغور) و(نيغرى سميلان) و(باهانغ)، وأصبحت هناك الولايات الأربع ذات مقيم عام بريطانى واحد، وحكومة مركزية واحدة[cxxx].

وقبلت ولاية (جوهور) الحماية البريطانية عام (١٨٨٥م). وبموجب معاهدة (بانكوك) عام (١٩٠٩م) سلمت (تايلاند) كل حقوق السيادة، والإدارة، والحماية، والسيطرة على الدول الشمالية الأربع وهى: (كيلانتون) و(ترينغانو) و(بيرليس) و(قدح) إلى البريطانيين. وعلى الرغم من أن شروط المعاهدة المعقودة مع سلاطين هذه الدول كانت مشابهة تمامًا لشروط المعاهدات السابقة فى ولايات شبه جزيرة الملايو الأخرى فإن هذه الدول قد بقيت خارج الاتحاد السابق، وإن شكلت فيما بينها اتحادا عرف باسم (اتحاد الملايو). وقبلت كل دولة فى الوقت نفسه مستشارًا بريطانيا لديها. ولم تصبح أية ولاية من هذه الولايات الملايوية مستعمرة بريطانية بل بقيت السيادة فى كل منها إلى سلطانها رغم وجود رباط إدارى بين الولايات والجاليات البريطانية المقيمة فيها، حيث كان المفوض السامى لدول الملايو حاكماً لهؤلاء المقيمين. وكانت هناك مجموعة ثالثة من دول الملايو سمتها بريطانيا (مستوطنات المضيق)، وتشمل: (بينانغ) و(مالاقا) و(ويلسلى). وأما بقية الولايات الملايوية وهى (جوهور) فقد عقدت بريطانيا عام (١٩١٤م) معها معاهدة جديدة قبل بموجبها السلطان مستشارًا عامًا بريطانيا[cxxxi].

٣- استقلال ماليزيا

كانت بريطانيا قد فرضت سيطرتها التامة على الولايات الماليزية كلها سواء أكان ذلك فى شبه جزيرة الملايو أم فى جزيرة بورنيو، وبسطت حمايتها عليها، وجزأتها بالشكل الذى يحلو لها وحسبما تقتضيه المصلحة الاستعمارية:- والتى قامت على أساس "فرق تسد"، فتقرب غير المسلمين من هندوس، وبوذيين، وهم ذو نسبة كبيرة نسبيًا، وتقصى المسلمين من أعمال الدولة، وتضع غيرهم مكانهم، وتستولى على املاكهم، وتضغط عليهم، وتفسح المجال على نطاق واسع للإرساليات التنصيرية، وتقدم لهذه الإرساليات كل ما تحتاج إليه، واستمر ذلك حتى الحرب العالمية الثانية. عقد أخيراً اتفاق ماليزيا بين اتحاد الملايو، وسنغافورة، وساراواك، وبورنيو الشمالية وبين الحكومة البريطانية بتاريخ (٩ يوليو ١٩٦٣م)، بعد إعلان الاتحاد الماليزى فى ١٩٦٢، وقد نص هذا الاتفاق على انتقال السيادة فى بورنيو الشمالية التى أصبح يطلق عليها اسم (صباح) وفى ساراواك، وسنغافورة من يد البريطانيين إلى حكومة ماليزيا بتاريخ (٣١ أغسطس ١٩٦٣م)، كما وضح الاتفاق العلاقات بين سنغافورة والاتحاد الجديد. ولكن سنغافورة عادت فانسحبت من الاتحاد، ولم يمض عامان على قيامه. وكانت كل من إندونيسيا والفلبين تعارضا الاتحاد، فإندونيسيا ترى أن جزيرة بورنيو كلها إندونيسية، ولذا فهى لا تسمح بأن تنزع منها أجزاؤها الشمالية، وتمانع فى ضم تلك الأجزاء إلى ماليزيا أو أية جولة

أخرى، وأما دولة الفلبين فلها أطماع فى شمالى جزيرة بورنيو، وخاصة بروناى حيث يتوفر النفط، لذا فهى تعارض فى ضم تلك الأجـزاء إلى ماليزيـا، أو إلى أندونيسيا، أو استقلالها وإبعادها عنها.

وبعد اجتماعات متكررة أعلنت إندونيسيا والفلبين أنهما توافقان على قيام اتحاد ماليزيا فيما إذا وافق شعبا صباح وساراواك على قيامه، حيث لا تعارضان رغبات الشعوب، ولكن تشترطان على الإبقاء على الحكم الذاتى فيهما، إذ تأمل كلتاهما بفرض عقد الاتحاد بعد مدة أو ترغبان بالإبقاء على جزء من الأمل للمستقبل وحتى يحصل الاتحاد على موافقة إندونيسيا والفلبين بقيامه وافق على تحقيق رغبات كلتا الدولتين، وطلب من الأمين العام للأمم المتحدة التأكد من رغبات شعبى صباح وساراواك فى قيام الاتحاد، وحمل الأمين العام المسئولية على عاتقه، وقام بالمهمة، (١٣ مايو ١٩٦٣م) رفع الأمين العام الأمم المتحدة تقريرًا يؤكد فيه دعم شعبى صباح وساراواك لاتحاد ماليزيا الذى أصبح واقعيًا فى (١٦ مايو ١٩٦٣م)[cxxxii].

ولكن إندونيسيا بالواقع لم ترض عن قيام اتحاد ماليزيا، وقد أعلن أحمد سوكارنو رئيس جمهورية إندونيسيا آنذاك عن مجابهة ماليزيا، وتدخلت الأمم المتحدة فى ذلك، وشكل سوكارنو فرقًا شبه عسكرية لسحق ماليزيا، غير أن هذه الفرق قد استغلتها العناصر الشيوعية فى تدريبها وتسليحها، وأسرعت فى إعلان ثورتها عام (١٩٦٥م)، ولكن هذه الثورة فشلت، ونحى سوكارنو على أثرها عن الحكم حيث اتهم بدعم تلك الثورة. وبعد سقوط سوكارنو ألغيت فكرة المجابهة، وحدث الاتفاق بين ماليزيا وإندونيسيا، وعادت إندونيسيا للأمم المتحدة، وكانت قد تركتها بسبب انتخاب ماليزيا عضواً فى مجلس الأمن. لم تكن حكومة الملايو تخشى انضمام سنغافورة إليها خوفًا من طغيان العنصر الصينى الموجود فى سنغافورة إضافة إلى ما هو موجود فى الملايو، ولا من سيطرة الشيوعية إذ أن الأمن كان لا يزال من مهمة بريطانيا، ولكن تانكو عبدالرحمن رئيس الحكومة الملايوية كان يتوقع أن استقلال سنغافورة إذا تم فسيسيطر عليها الشيوعيون، وستتخذ قاعدة للهجوم على الملايو، لذا فأفضل حل هو دمجها مع اتحاد الملايو. وكانت حكومة الملايو ترى من وجهة نظر ثانية أن انضمام شمالى جزيرة بورنيو (صباح، ساراواك، بروناى) سيعيد توازن العنصر العرقى بسبب العنصر الملايوى هناك. وفى (أوائل عام ١٩٦٢م) صوتت الفلبين ضد اتحاد ماليزيا، إذ كان رئيس الفلبين (ماكابغال) يعد شمالى جزيرة بورنيو جزءًا من الفلبين، ويدعى أن ذلك الجزء كان عام (١٨٧٨م) يتبع جزر صولو التى هى جزء من الفلبين، وأن انفصال شمالى بورنيو عن صولو إنما كان على صورة استئجار لا على أساس بيع، وكانت الشركة البريطانية تدفع دفعات نظامية سنوية. وفى شهرى يوليو وأغسطس ١٩٦٢م). جرت لقاءات بين رؤساء إندونيسيا والملايو فى مانيلا من أجل الوصول إلى صيغة من التسوية، ولكن لم يتم التوصل لقرار. وفى (مايو ١٩٦٣م) أعلن الاتحاد الماليزى، وقطعت إندونيسيا والفلبين علاقتها مع دولة الاتحاد التى نشأت، وجرت اشتباكات وغارات على الحدود فى بورنيو. وفى (أغسطس ١٩٦٥م) استطاع ممثلو البيت الماليزى إقرار لائحة تعديل دستورى يمكن فيها لسنغافورة الانسحاب من الحزب. أصبحت ماليزيا اتحاد يتألف من دول الملايو التسع: جوهور، قدح، كيلانتون، يرق، باهانغ، نيغرى سمبلان، سلانغور، بيرليس، ومن المحميات البريطانية السابقة: مالالقا، بينانغ، ومن المستعمرات البريطانية السابقة: صباح، ساراواك. وعلى الرغم من أن دساتير هذه الدول الأعضاء فى الاتحاد تختلف بعضها عن بعض فى بعض التفصيلات، فإن أسسها واحدة، وهى المحافظة على نظام الحكم الملكى الذى يعتمد على الحياة النيابية، وينتخب الرئيس الأعلى لماليزيا وهو الملك، من قبل مجلس الحكام لمدة خمس سنوات.ويتألف المجلس النيابى الاتحادى لماليزيا من مجلسين: مجلس الشيوخ، ومجلس الممثلين. ويعين الملك رئيس مجلس الوزراء الذى يختار الوزراء الذين يجب أن يكونوا أعضاء فى المجلس التمثيلى، ويوافق عليهم الملك.

ويكون رئيس الوزراء هو الرئيس التنفيذى للحكومة الاتحادية، وقد اختير أول رئيس للوزارة تانكو عبدالرحمن، أما الملك الأول فكان اليانغ دى برتوان أغونغ وهو ابن سيد حسن الجمال، وتتم الانتخابات كل خمس سنوات، والسلطة بيد تحالف يشمل معظم الأحزاب فى البلاد باستثناء الحزب الإسلامي وحزب العمل الديمقراطى[cxxxiii].

الفصل الرابع

الشيشان

أولاً: المسلمون فى الشيشان.

ثانيًا: التوسع الروسى فى القوقاز والشيشان.

ثالثًا: الشيشان فى ظل الشيوعية.

رابعًا- أوضاع الشيشان حتى الاستقلال سنة ١٩٩١.

الفصل الرابع

الشيشان

أولاً: المسلمون فى الشيشان

تعتبر بلاد "الشيشان" بجبالها الوعرة وغاباتها الكثيفة من المناطق التى لم تخضع عبر التاريخ لأى فاتح أو غاز بما فيها الفتوحات الإسلامية، وحتى بداية القرن السابع عشر، فقد بقى "الشيشان" بدون ديانة ولكن اعتناقهم للإسلام بدأ على يد الدعاة من "جمهورية الداغستان" المجاورة، و"من شبه جزيرة القرم" و"بخارى". ومنذ اعتناقهم الإسلام فقد أصبح "الشيشان" من أكثر شعوب "شمال القوقاز" تمسكًا بدينهم، وتاريخ صراعهم مع القياصرة يؤكد تمسكهم بالدين الإسلامى فلا القياصرة المسيحيون استطاعوا تنصيرهم ولا الشيوعيون نجحوا فى إبعادهم عن دينهم رغم تحريم الشيوعيين للمساجد والعبادة فيها مما اضطر الشيشانى إلى أن يكون بيته هو المسجد وخلال حرب القوقاز الأولى فإن المقاتلين الشيشان والداغستان الذين كانوا يحاربون صفًا واحدًا مع "الإمام شامل" كانوا يتوجهون للمعارك مع الروس وهم يرتلون القرآن الكريم وينشدون الأناشيد الدينية. كما يلاحظ أنه كان فى بلاد الشيشان فى عام ١٨٣٧م (٣١٠) جوامع مفتوحة للعبادة، وقد وصل هذا العدد عام ١٩٧٨م فى أثناء الحكم الشيوعى إلى النصف إلا أن هذا العدد أخذ فى الصعود مرة أخرى فى عهد جورباتشوف[cxxxiv].

ثانيًا: التوسع الروسى فى القوقاز والشيشان

بعد حروب "نابليون" ظهرت روسيا القيصرية كأقوى قوة عسكرية فى أوروبا، خصوصًا أن بروسيا (ألمانيا حاليًا) و"النمسا" و"بولندا" كانت تابعة لروسيا القيصرية وتحكمها عائلات تمت بقرابة الدم لأسرة "رومانوف القيصرية". وبهذا الوضع العسكرى البارز لروسيا القيصرية بدأ "القيصر نيقولا" يعد العدة لغزو الهند. وكان عليه فقط إخضاع القبائل الإسلامية فى "شمال القوقاز" حتى لا يترك ظهره مكشوفًا لقوات معادية، خصوصًا أن "تركيا" و"إيران"، ورغم هزيمتهما فى "جنوب القوقاز" بقيتا معاديتين لروسيا القيصرية رغم سكوتهما المؤقت. وبحلول عام ١٨٢٨م أصبحت جميع بلاد ما "وراء القوقاز" تابعة للروس، ويوجد خلفها منطقتان كبيرتان مستقلتان، فكان يوجد "الشيشانيون" و"الأنجوشيون"، و"الداغستانيون" الجبليون على الجناح الشرقى، و"شراكسة أنجازتا" على الجناح الغربى. وفى سنتى ١٨٢٨م- ١٨٢٩م حارب الروس "الأتراك" فى أول حملة رئيسة "قوقازية" واستولوا على "بوتى"، و"أنابا" وسيطر الروس هذه المرة على البحر الأسود بسبب معركة "نافارينو"، وهى ميزة لم يتمتع بها الروس فى الحروب القوقازية التالية[cxxxv].

كما انتصر الروس على الجبهة الرئيسية، حيث جاءت معظم المقاومة من مسلمى "جورجيا"، وكسب الروس بعض الأراضى عندما أبرم الصلح، فضموا "سخيتيا" الواقعة فى جبال "جورجيا الجنوبية" وكان يقطن مسلمو "جورجيا" فى "سخيتيا". وكانت المنطقتان الإسلاميتان الكبيرتان، وراء الخطوط الروسية على درجة كبيرة من الاختلاف فى طابعهما:

- كان كبار البكوات، وملاك الأراضى يحكمون "الشركس"، وعلى اتصال مستمر بـ"تركيا".
- أما الشيشانيون والأنجوشيون، فقد تمتعوا بقدر أكبر من الحياة الديمقراطية فى بلادهم الجبلية، وأصبحوا أكثر التصاقًا بحركة المريدية التى كانت تقم على الطهارة والتقشف والمساواة. وكان الشيشان قد وقفوا من قبل ضد الروس بناء على دوافع دينية، وذلك فى الحرب الروسية التركية عام ١٧٦٩م[cxxxvi].

وعندما قرر القيصر "الكسندر" احتلال القوقاز، اختار "يرملوف" لإخضاع "الشيشان"، بلد "الإمام منصور الشيشانى"، الذى تصدى لجيوش جدته الإمبراطورة "كاترينا الثانية" عندما أرسلت جيوشها لاحتلال "القوقاز الشمالى" عام ١٧٨٥م، إذ كان "الإمام منصور" أو "أشورما" كما كان يسميه الروس الشوكة التى أدمت "كاترينا" الملقبة بالعظيمة فى "شمال القوقاز"، حيث هزم جيوشها طوال ست سنوات من خلال فرسان "الشيشان والداغستان والنوغاى والشراكة الذين لبوا نداء الجهاد الذى أعلنه الإمام منصور من قريته "الداى" مسقط رأسه فى بلاد

الشيشان"[cxxxvii].

وكانت الخطوة الأولى التى شرع "يرملوف" فى إنجازها اختياره قرية شيشانية على ضفاف "نهر السونجا"، وهو أحد الأنهار التى تجرى فى بلاد "الشيشان"، واسم القرية كان "سونجارغالا"، وقام بهدمها وبنى على أنقاضها قلعة ضخمة عام ١٨١٨م أطلق عليها اسم "جروزنى"، وهى كلمة روسية تعنى الرهيب أو المهدد، وهو لقب كان يطلق على القيصر "إيفان" الملقب "بإيفان الرهيب" وهو أحد القياصرة الأوائل الذين أرسوا دعائم "روسيا القيصرية". ويرملوف كان يهدف من إطلاق اسم "جروزنى" على قلعته فى بلاد "الشيشان" إبلاغ الشيشان وبقية شعوب "شمال القوقاز" بأن قلعة "جروزنى" ستكون قاعدة الانطلاق لقواته لتهدد وترهب كل من لا يطيع أو يخضع "للقيصر العظيم". وبالفعل كانت "جروزنى" نقطة انطلاق الجيوش الروسية فى جميع الاتجاهات فى "شمال القوقاز". ورغم بطش يرملوف وقسوته فى التعامل مع "الشيشان" واستخدامه سياسة "الأرض المحروقة" لإخضاعهم فقد فشل فى تحقيق مهمته، وتم عزله عام ١٨٢٧م من قبل القيصر "نيقولا" الذى خلف والده القيصر الكسندر الأول. وفى عام ١٨٣٠م أشعل "الإمام غازى ملا"، ثورة فى البلاد التى كانت قد أثارت حفيظتها الحملات التأديبية. ودمر العديد من الوحدات العسكرية الروسية، كما جرى اختراق لخط "القوقاز" فى عدة نقاط وتعرضت المدن الواقعة وراء "نهر تيرك" للغارات، ودامت الروسية التى تلت ذلك ثلاثة أعوام قبل أن يتمكن الروس من الاستيلاء على "غمرى" عاصمة المريدين، ومن قتل الإمام. وتسلم القيادة من بعده الإمام حمزة لفترة قصيرة، ثم قتل(cxxxviii).

أما الإمام التالى فكان الإمام "شامل" الذى تسلم قيادة الحركة المريدية الإسلامية عام ١٨٣٤م والتى نشأت فى بلاد "الداغستان" وتحديدًا فى إقليم "أفاريا" مسقط رأس مؤسس الحركة الإمام غازى محمد الذى استشهد فى معركة غمرى عام ١٨٣٢م. وعندما تسلم "شامل" قيادة الحركة المريدية فى "الداغستان" كانت معظم بلاد "الشيشان" تحت الاحتلال الروسى لكن السيطرة الروسية لم تكن قوية، وغياب القائد الذى يقوم "الشيشان" فى بلادهم جعلهم صابرين على مضض فى انتظار القائد المناسب للثورة؛ واستطاع "شامل" الصمود فى "الداغستان من عام ١٨٣٤م حتى ١٨٣٩م حيث تم القضاء على قواته فى مقر قيادته ببلدة "أضولكو" فى إقليم "أفاريا بالداغستان"، لكن "شامل" تمكن من الهرب. ولم يُعر الروس اهتمامًا لهروب "شامل" لأن غالبية قواته تم القضاء عليها فى معركة "أضولكو". ولم يبق من قواته عند هربه سوى عشرة أشخاص من حرسه الخاص. وكان لخيانة بعض أمراء "الداغستان" لـ"شامل" وانضمامهم للروس دور كبير فى هزيمته فى بلاده "الداغستان". وخلال سنة واحدة بعد هزيمته فى "أضولكو" ظهر "شامل" من جديد على مسرح الأحداث لكن هذه المرة فى بلاد "الشيشان" ونادى به الشيشان "زعيمًا لهم" وتدفق عليه المقاتلون من الجبال جاهزين لمحاربة "الغارو"، "الجاور" أو "الغازقى"، وتعنى الكافر بالداغستانية والشيشانية على التوالى. وخلال ١٨٤٠ - ١٨٤٢م استطاع "شامل" بجيشه الجديد استرجاع "أفاريا" ومعظم الداغستان" من الروس، وعاتب بشدة وبقسوة من خانوه من زعماء القبائل الداغستانية. وشجعت انتصارات "شامل" المتتالية على الروس الشراكسة فى الشمال الغربى من "القوقاز" وعلى سواحل البحر الأسود على الثورة ضد الروس إذا انقضوا على القلاع الروسية فى بلادهم وأبادوا كثيراً من حاميتها وأصبح وضع القوات الروسية فى "القوقاز" حرجًا للغاية مما دفع القيصر "نيقولا" إلى إرسال تعزيزات ضخمة للقوقاز مع أوامر صارمة باحتلال "دارغو" عاصمة شامل فى بلاد الشيشان(cxxxix).

وعندما بدأت حرب "القرم" عام ١٨٥٣م، لم يكن قد تم إخضاع "شامل" والشراكة، وقام "شامل" فورًا بمهاجمة "جورجيا"، فأجبر الروس على تحويل كثير من قواتهم من الجبهة التركية. وفى عام ١٨٥٤م أنزل الروس قوات فى "أبخازيا" وثارت القبائل هناك ضدهم. وفى عام ١٨٥٦م انتهت حرب "القرم" وأصبح فى وسع الروس أن يحشدوا جيوشهم ضد "الشيشان"، و"الداغستانيين". وكان قد مضى على الحرب ضد "شامل" ربع قرن كاملة، واستنزفت موارد "الشيشان"، وبقول أحد الكتاب الروس فى الخمسينيات من القرن التاسع عشر: "أثناء إخضاع شيشانيا تدنى سكان شيشانيا الصغرى السهلية بين عامى ١٨٤٧م- ١٨٥٠م إلى نصف عددهم السابق، وبحلول عام ١٨٦٠م أصبح عددهم ربع ما كان عليه". وبقى "شامل" فى "شمال القوقاز" حتى عام ١٨٥٩م إلى أن تمكن الأمير "ياربسكى" ولى عهد القيصر من هزيمته فى معركة "غونتيب" فى إقليم الداغستان. وبحلول عام ١٨٦٠م تم إخضاع بقية القوقاز عدا الشراكسة الذين كانوا يتمتعون باستقلال كامل فى مناطق تقع حول نهر الكوبان شمالاً. ولم تحقق أول محاولة لإرغام الشركس على الهجرة إلى تركيا أو مناطق أخرى من الإمبراطورية الروسية إلا نجاحًا جزئيًا، وتم إقامة حكومة وطنية شركسية جديدة فى "سوتسن".. وفى عام ١٨٦٢م حشدت القوات الروسية ضد الشراكسة، واستمرت الحرب سنتين، وأخيراً تم طرد حوالى ٦٠٠,٠٠٠ شركسى من بلادهم التى استوطن بها رعايا من الروس بدلاً منهم. وجاء إخضاع "شمال القوقاز"، بعد نصف قرن من قبول "جورجيا" فى جنوب القوقاز للحكم الروسى. وكانت المقاومة فى الواقع مريرة وعنيدة بغض النظر عن عبقرية "شامل" العسكرية إلا أن الشعوب التى خضعت لم

تعتبر خضوعها أمرًا نهائيًا[cxl].

وبرغم إحكام السيطرة الروسية الاستعمارية على المنطقة فى حوالى عام ١٨٦٠م وانطلاق هجرات واسعة من "الشيشان" و"الشراكسة" إلى "سوريا"، و"فلسطين"، و"تركيا"؛ فإن حركات جهاد واسعة ومنظمة قامت ضد القوات الروسية فى بلاد "الشيشان" مثل: حركة الزعيم الشيشانى (باى صونقور)، وحركة الزعيم الشيشانى (أومادوييف) ثم حركة (آطابى آطاييف) ثم حركة (دارة زالماييف). أما أكبر حركات الجهاد الشيشانية ضد الروس فى تلك الفترة فهى حركة الزعيم الشيشانى (على بك حاجى) الذى قضى الروس على حركته وأعدموه، فى العاصمة "جروزنى" عام ١٨٧٨م. وعندما اندلعت الحرب مرة أخرى بين تركيا وروسيا عام ١٨٧٧م، قامت مزيد من الثورات، وتطلب الموقف إرسال ست فرق روسية ونصف إلى "شمال القوقاز"، وأنزل الأتراك مرة أخرى قواتهم فى "أبخازيا" حيث ساندتهم ثورة شعبية كما نودى بإمام جديد "شيشانيا"، وقد قمعت الثورة مؤقتًا، والسبب الرئيس فى ذلك كان البندقية الروسية الجديدة، ولكنها لم تلبث أن هبت نيرانها ثانية، ولم يتم قمعها إلا بعد قتال طويل. وفى عام ١٩٠٥م بدأت اضطرابات فى "شيشانيا" وفى عام ١٩١٧ أدى إنهيار النظام القيصرى إلى المناداة بإمام جديد هناك هو "نجم الدين غوتنسكى"، وظهرت شخصية أقوى، وهو أمير شيشانيا الشيخ "أوزون حاجى"، الذى اقتفى أثر الإمام "شامل" فى إقامة حكم ديمقراطى ولم يتم سحق مقاومة الشيشان حتى سنة ١٩٢٠م[cxli].

ثالثًا: الشيشان فى ظل الشيوعية.

تجربة التوسع الاستعمارى فى القوقاز تركت آثارها لدى السلطة القيصرية، إذ أنها وجدت أنه لا مفر من الإبقاء على كثير من المؤسسات التى استحدثها الإمام شامل بدون تغيير فأبقت المحاكم الشرعية فى بلاد الشيشان، وداغستان حتى عام ١٩٢٦م حين ألغتها السلطة "البلشفية". كما سمحت لأبناء الجبال بحمل السلاح باعتبار ذلك من مظاهر احترامها لتقاليدهم. وأعفتهم من الخدمة العسكرية الإجبارية وقدمت لهم تسهيلات أخرى. وأرادت السلطات بهذا كسب مودة أبناء شمال القوقاز غير المطيعين لها. ونظرًا لعدم ثقتها بالشعوب المحلية فإنها أقامت فى بلاد الشيشان وداغستان شبكة من عشرات الحصون العسكرية. وبعد قيام ثورة فبراير عام ١٩١٧م فى روسيا، بدأت فى شمال القوقاز مرحلة أخرى من الحركة التحررية. ففى المؤتمرين الأول والثانى (مايو، سبتمبر عام ١٩١٧) أسس مندوبو شعوب شمال القوقاز جمهورية اتحاد أبناء جبال القوقاز. وتشكل برلمان وحكومة لهذه الجمهورية. وكان هدفها هو بناء جمهورية شمال القوقاز الديمقراطية الفيدرالية ضمن الاتحاد الروسى الديمقراطى مستقبلاً. وكانت العلاقات مع "القوازق" طيبة جدًا، وعندما أصبح الخطر البلشفى أمرًا واقعًا. عقد تحالف مع قوزاق تيرك، وكوبان فى أكتوبر عام ١٩١٧م وتشكلت حكومة ائتلافية[cxlii].

وفى مايو ١٩١٨م أعلن فى مؤتمر "باتومى" عن تأسيس الجمهورية الجبلية المستقلة بحضور مندوبين من تركيا وألمانيا و"فيدرالية" ما وراء القوقاز – ولم يستمر بقاء الجمهورية الجبلية سوى فترة عامين.أما جبهة النضال الثانية فكانت ضد البلاشفة فى داخل الجمهورية، وفى تلك الفترة المضطربة والمأساوية أصاب الشعب الشيشانى، وقسم من الداغستانيين اليأس من تحقيق آمالهم فى الحرية، ولكنهم واصلوا النضال ضد قوات "دينيكين" ضد الجيش الأحمر دون أن يحالفهم النجاح.

حتى أوائل عام ١٩١٨ كانت هناك جمهورية مستقلة باسم "جمهورية الجبل المتحدة" وتضم كل جمهوريات شمال القوقاز. وضمت هذه الجمهورية إلى الاتحاد السوفيتى فى ٢٠ يناير عام ١٩٢٠ وبعد هذا التاريخ أخذت تتفكك فقد انسلخت منها داغستان بعد عام من ضمها إلى الاتحاد السوفيتى. بهذا انتهى أمر جمهورية الجبل المتحدة وقد أخذت الحكومة الروسية تُغير وتُبدل وتُهجر منها وتهجر إليها وفقًا لهواها ثم تغير المستوى الإدارى لهذه الجماعات، مرة تعتبرها أقاليم مستقلة ثم لا تلبث أن تحولها إلى جمهوريات ذات حكم ذاتى[cxliii].

وفى يناير عام ١٩٣٤م ضُمت جماعات الشيشان والأنجوش وكونا إقليمًا مستقلاً ثم تطور إلى جمهورية ذات حكم ذاتى، ثم تلغى هذه الجمهورية بتهجير الجماعتين إلى أماكن أخرى متفرقة. ففى مطلع صيف عام ١٩٤١م هاجم الألمان النازيين الاتحاد السوفيتى – واتهم ستالين (حكم ١٩٢٤- ١٩٥٣) (ألمان الفولجا، المسخيتين القرتشاى البلكار، الكالمك، الشيشان والأنجوش، وتتار القرم بالتعاون مع الألمان ضد الدولة الأم). وقام بتهجير هذه الأمم بأكملها رجالاً ونساء وأطفالاً من مواطنيها وكانت أربع من الأمم تقطن فى المنحدرات الشمالية لجبال القوقاز. وهى الشيشان والأنجوش، والقرتشاى والبلكار. وكانت تشكل ثلث عدد المنفيين الكلى. وكان الشيشان أكبر شعب عانى من التهجير أو النفى، وبلغ

عددهم نصف مليون عام ١٩٣٩م وذلك إضافة إلى ذوى قرباهم الأنجوش، الذين كانوا يشكلون جزءًا من نفس الجمهورية الشيشانية الأنجوشية السوفيتية الاشتراكية[cxliv].

رابعًا: أوضاع الشيشان حتى الاستقلال سنة ١٩٩١.

تطورت الأوضاع فى الشيشان مع ظهور جوهر دوداييف الذى ولد عام ١٩٤٤ وبعد مولده مباشرة صدرت أوامر ستالين بتهجير شعب الشيشان جميعه من النساء والأطفال والرجال إلى كازاخستان، حيث مات ٢٠٠ ألف منهم فى المنفى وكانت عائلة دودايف من بين المهجرين، وأمضى الرئيس الـ١٣ سنة الأولى من حياته فى المنفى فى جنوب كازاخستان. وفى عام ١٩٥٧ عندما ألغى خروتشوف إجراءات ستالين القاسية الظالمة سمح للشيشانيين ومنهم عائلة دوداديف عام ١٩٥٧م بالعودة إلى بلادهم، ودرس دودايف حتى المرحلة الثانوية، ثم عمل كهربائيًا وواصل دراسته ودخل جامعة "فيلاديقفقاس" ثم التحق بالكلية الحربية عام ١٩٦٦م وتخرج فى أكاديمية "تامبوف" كطيار حربى، وفى عام ١٩٦٨م أصبح عضوًا فى الحزب الشيوعى كما كان مطلوبًا من جميع الضباط فى ذلك الزمان، ثم التحق بدورة عسكرية عليا فى أكاديمية يورى جاجرين العسكرية للطيران فى موسكو وترقى إلى رتبة لواء، وأصبح مسئولاً عن قوات سلاح الطيران والدفاع الجوى السوفيتى فى منطقة سيبيريا. وبعد مهمات عسكرية فى أوكرانيا وسيبيريا أصبح قائد القوات الجوية السوفيتية فى استونيا ثم قائد فرقة إستراتيجية للطيران الاستراتيجي البعيد المدى، وبعدها قائدًا لأسراب الطيران المسلح بالأسلحة النووية، ومدير الاستخبارات العسكرية فى استونيا.. وقد رفض الأوامر من الحكومة السوفيتية عام ١٩٩١م بمهاجمة برلمان ومحطة وتليفزيون استونيا فى أحداث يناير ١٩٩١م وعاد إلى الشيشان وأصبحت له شعبية كبيرة، وحضر اجتماعات المؤتمر الوطنى للشيشان كمراقب ثم كعضو فى اللجنة التنفيذية للمؤتمر. واستقال من الجيش السوفيتى للتفرغ للعمل السياسى فى بلاده. وقد انتخب رئيسًا للشيشان فى أكتوبر عام ١٩٩١ وكان هدفه الحفاظ على الاستقلال وحمايته والحصول على الاعتراف به. وجوهر دودايف مسلم متحمس للإسلام وهو متصوف يتبع الطريقة النقشبندية ومذهبه شافعى وهو من الداعين إلى وحدة شمال القوقاز "داغستان، الشيشان، الانجوش، أوسيتيا، والكباردين، البلكار" وهو يبحث عن النموذج الإسلامى المعتدل، ولا يميل إلى العنف الدينى بأى شكل من الأشكال. وأمر بإعادة افتتاح ١٥٥٠ مسجدًا كان الشيوعيون قد أغلقوها، واتخذ قرارًا بتبنى الدولة النشاط الإسلامى والدراسات الإسلامية، فأنشأ فى "جروزنى" معهد الدولة للدراسات الإسلامية، كما دعم إقامة معهد الإمام الشافعى للدراسات الإسلامية وبه معلمون مصريون[cxlv].

أما عن تطورات الأحداث منذ إعلان الاستقلال، وحتى آخر فبراير عام ١٩٩٥م فقد أعلنت جمهورية الشيشان استقلالها عام ١٩٩٠ إثر عقد المؤتمر القومى الشعبى الأول للشيشان والأنجوش. وقام بمطالبة برلمان الجمهورية الشيشانية بتبنى إعلان السيادة على الأرض الشيشانية للشيشان، وخلال الأشهر بين عام ١٩٩٠/ ١٩٩١م تم تحريض الروس لشعب الأنجوش بالانفصال عن الشيشان ووعدوهم باستعادة أراضيهم فى جمهورية "أوسيتيا" وأعلن الأنجوش انفصالهم فى جمهورية ذات حكم ذاتى تابع للفيدرالية الروسية وفى شهر يوليو عام ١٩٩١م عقد المؤتمر الشعبى الثانى للشيشان وكان الجنرال "جوهر دوداييف" قد تقاعد من الجيش وأصبح رئيسًا للجنة المؤتمر الشعبى الشيشانى وتم فى هذا المؤتمر تبنى توصية باستقلال جمهورية الشيشان التام وسيادتها على أرضها، وفى شهر أغسطس من نفس العام حدث الانقلاب الفاشل فى موسكو، وعلى إثر ذلك أعلن المؤتمر الشعبى الشيشانى حل البرلمان وإعلان انتخابات برلمانية جديدة وانتخاب رئيس للجمهورية، وجرى ذلك بوجود مراقبين من جمهورية لتفيا وروسيا والدانمارك وكان ذلك بتاريخ التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٩١ وشارك فى الانتخابات ٧٥% من السكان، وفاز بمنصب رئيس الجمهورية الجنرال جوهر دودايف بنسبة ٨٠% من بين ثلاثة مرشحين، وفى الثانى من نوفمبر١٩٩١م أقسم الرئيس اليمين القانونية أمام البرلمان، وتم إصدار قرار استقلال الجمهورية والسيادة على أرضها[cxlvi].

لم يعترف الروس بالاستقلال ولا بالانتخابات، وبتاريخ الثامن من نوفمبر١٩٩١م أعلن الرئيس يلتسين حالة الطوارئ، وقام بإنزال ألفين من قوات أمن وزارة الداخلية فى أراضى الشيشان، مما أدى إلى قيام الشيشان بأسر الجنود، وطلبوا منهم تسليم أسلحتهم، وتم ترحيلهم بعد أيام إلى موسكو عائدين من حيث أتوا، وعلى إثر هذه العملية قام الروس بإلغاء حالة الطوارئ فى جمهورية الشيشان. وبقيت موسكو تحاول الإساءة لسمعة القيادة والشعب الشيشانى باتهامهم بتزعم عمليات المافيا والتجارة بالمخدرات. وتطورت الأحداث فى جمهورية الشيشان عندما أعلنت تشكيلات المعارضة المسلحة يوم السبت ٢٦ من نوفمبر ١٩٩٤م عن عزمها على اقتحام العاصمة، "جرو زنى" وسط مظاهرة إعلامية روسية عن

قرب الخلاص من نظام الرئيس الشيشانى "جوهر داديف" خلال ساعات. ثم أعلن بعد ذلك أن الاستيلاء على "جروزنى" فى الساعة التاسعة والنصف، وأنهم يعدون العدة للاحتفال بانتصارهم. وفى صباح اليوم التالى تبين أن قوات المعارضة المدعومة بالدبابات والطائرات الهليكوبتر قد انسحبت مخلفة وراءها الحرائق والدمار والقتلى والأسرى والجرحى. وإذا كانت المعارضة قد فقدت الكثير فى عملية اقتحام العاصمة الشيشانية "جروزنى" فقد كسب "دوادييف" الكثير وصار على الصعيدين الداخلى والخارجى أفضل وأقوى، لعدة أسباب[cxlvii]:

أولاً: أظهرت عمليات الدمار وقصف العاصمة قوى المعارضة بمظهر سئ أمام المواطن الشيشانى العادى، فانحاز إلى الرئيس "دوداييف" .

ثانيًا: أكد الرئيس "دوداييف" للرأى العام التدخل الروسى السافر لإقصائه عن السلطة وذلك من خلال اعتراف الأسرى الروس.

ثالثًا: أصبح فرض حالة الطوارئ عملية صعبة وسط جو العداء للروس من جانب المواطنين الشيشان، والذى خلفه الهجوم الجوى والبرى على العاصمة الشيشانية.

رابعًا: اقتحام العاصمة الشيشانية وظهور التورط الروسى خلق حالة من الخوف لدى رؤساء جمهوريات القوقاز الآخرين من تكرار نفس الأمر معهم، فطالبوا الرئيس الروسى بوقف نزيف الدم بتاريخ السابع من ديسمبر ١٩٩٤م فالتقى وزير الدفاع الروسى "جراتشوف" مع الجنرال دوداييف فى جمهورية انجوشيا واتفقا على أن القضية الشيشانية قضية سياسية وليست قضية عسكرية ويجب حلها بالمفاوضات السياسية وتم تسليم الأسرى الروس إثر ذلك. وبالرغم من ذلك الاتفاق إلا أنه بدأت العمليات العسكرية البرية تساندها الضربات الجوية المتتالية وظن الروس أنهم سيقتحمون الجمهورية خلال يومين وستنتهى القضية بدون أى ردود فعل داخلية أو خارجية، ويدخل الرئيس يلتسين إلى المستشفى ريثما تنتهى العمليات العسكرية حسب اعتقاده. وتطورت الأمور حتى أصبحت مواجهات عسكرية شاملة ما بين الجيش الروسى والمقاومة الشعبية الشيشانية ودخلت القوات الروسية التى قدرت بمائتي ألف جندى وألف دبابة منها ٦٠٠ دبابة ثقيلة تقدمت على ثلاثة محاور وتتم المفاجأة من القوات الروسية بمقاومة من شعب الأنجوش والشيشان فى الداغستان.

وفشلت القوات البرية الروسية فى الهجوم؛ مما جعل القيادة الروسية تفقد أعصابها وتبدأ بقصف "جروزنى" قصفًا وحشيًا همجيًا، فدمرت المساجد والمبانى والمنشآت الاقتصادية. وأما عن النتائج السياسية لفشل القوات الروسية فى السيطرة على "جروزنى" فقد كانت كثيرة وجعلت الموقف السياسى فى روسيا أكثر تعقيدًا لعدة أسباب[cxlviii]:

أولاً: أصبح الرئيس الشيشانى "دودابيف" هو الجهة الوحيدة التى يمكن لروسيا التفاوض معها فلديه الأسرى.

ثانيًا: بلغ الموقف من التعقيد مبلغًا جعل الرئيس الشيشانى يرفض التفاوض مع يلتسين.

ثالثًا: أظهرت محاولة اقتحام العاصمة الشيشانية وما قبلها من أحداث عدم سيطرة الرئيس الروسى على مقاليد الأمور فيما يخص عملية الشيشان ككل، ذلك أن الرئيس يتحدث عن شئ، وما يحدث فى الواقع شئ آخر مثل وقف الغارات على "جروزنى".

رابعًا: ضعف شديد للروح المعنوية للضباط والجنود، فعلى سبيل المثال: صرح ضابط وقع فى الأسر بأن قيادته أوهمته بأن سيذهب إلى "جروزنى" لنزع سلاح بعض المجرمين، ولكنه على حد تعبيره فوجئ بمقاومة رهيبة تدل على أن الذى يحمل السلاح شعب يدافع عن حقوقه واستقلاله.

خامسًا: تم خلق رأى عام معاد لهذه الحملة العسكرية داخل روسيا جعل موقف القيادة السياسية والعسكرية غاية فى الحرج، بل وجعلها تتصرف بتهور مما أوقعها فى أخطاء قاتلة.

سادسًا: فى مؤتمر القوى الديمقراطية الروسية التى دعمت الرئيس الروسى طوال فترة حكمه السابقة والتى أعلنت فيه عن مرشحيها لخوض انتخابات الرئاسة ولأول مرة تخلو القائمة من اسم الرئيس الروسى يلتسين.

سابعًا: أما من أيد الرئيس الروسى فى هذه الحملة على الشيشان فهم ألد أعدائه من الشيوعيين والقوميين وربما كان التأييد بدافع وطنى، وربما كان مناورة سياسية لتوريط الرئيس يلتسين فى مأزق يعجل بسقوطه.

وقد أظهرت هذه الحرب أن الدستور الروسى ضعيف جدا فى صياغته فهو ينص على حق الشعوب الفيدرالية فى تقرير مصيرها وفى نفس الوقت ترفع السلاح لمنع الشعب الشيشانى من تقرير مصيره.

ثامنًا: أظهرت هذه الحرب أن التوازن بين السلطات فى الدستور منعدم تقريبًا، فلم يستطع لا "الدوما" ولا مجلس الفيدرالية البرلمانى اتخاذ قرار مؤثر وملزم للسلطة التنفيذية الأمر الذى دفع البرلمان الروسى لبحث تعديل الدستور لاستعادة التوازن المطلوب.

وتقوم السياسة الروسية على أساس أن الوحدة الاقتصادية والعسكرية للجمهوريات السوفيتية السابقة، تحت قيادة موسكو، يمكن أن تساعد على عودة روسيا إلى الظهور كدولة قوية فوق كل القوميات وقوة عالمية، ولا تمانع القيادة الروسية الحالية فى احتفاظ هذه الجمهوريات بمظاهر السيادة غير أنها يجب أن تظل تحت رحمة الضغوط الاقتصادية والسياسية والعسكرية الروسية. ويضاعف من خطورة التيار القومى الروسى أن استطلاعات الرأى فى روسيا توضح أن ثلثى الروس يعتبرون أن حل وتفكيك الاتحاد السوفيتى كان خطأ مأساويًا يجب التخلص من آثاره أو السير فى خط معاكس له. وفى أواخر عام ١٩٩٣م، أكدت القيادة العسكرية الروسية حقها الواقعى فى التدخل فى الجمهوريات السوفيتية السابقة إذا أسفرت التطورات هناك عن انتهاك المصالح الروسية أو تهديد الاستقرار الإقليمى أحد الساسة أن خطة موسكو تجاه جيرانها من الدول المستقلة (الكومنولث) اعتمدت على محورين: تجريد هذه الدول تدريجيًا من استقلالها الاقتصادى ومنعها من تكوين قواتها المسلحة المستقلة. وهذا يفسر سلسلة الاتفاقيات الجديدة التى أبرمتها روسيا مع هذه الدول: ميثاق الدول المستقلة الجديدة – معاهدة الأمن الجماعى (التى تمنح روسيا، فى حالات عديدة، حق السيطرة على الحدود الخارجية للاتحاد السوفياتى السابق) – الاتفاقية الجماعية لحفظ السلام (استخدمت لتبرير التدخل فى طاجيكستان) – منطقة الروبل الجديدة (تستهدف إعطاء البنك المركزى الروسى الكلمة النهائية فى الأمور النقدية) – الاتحاد الاقتصادى (ينقل عملية صنع القرار الاقتصادى إلى موسكو) – المؤسسة البرلمانية المشتركة[cxlix].

ويرى عضو فى مجلس "الدوما" ضرورة أن تضع روسيا برنامجها الجديد للأمن القومى، وهو الأمر الذى كان يجب أن يتم بعد حل حلف وراسو مباشرة خشية أن تفقد روسيا سوق مبيعاتها للأسلحة. وفى نفس الوقت، فإنه ليس مسموحًا لأوروبا الوسطى بأن تصبح جزءًا من أوروبا الموحدة وتحالف أوروبى – أطلنطى – وقد أشار المارشال بافيل جراتشيف وزير الدفاع الروسى، بصراحة إلى أن روسيا "لا تستطيع السماح لبولندا بالانتماء إلى حلف الأطلنطى". ويفضل الروس تقديم ضمان روسى – أطلنطى بشأن أمن المنطقة، ذلك أن روسيا تريد نظامًا أوسع للأمن يمتد من فانكوفر إلى فلاديفوستوك، ويذوب فى داخله، تدريجيا، التحالف الأوروبى – الأطلنطى، مما يتيح لروسيا (أن تصبح مرة أخرى القوة الأكبر فى أوراسيا. وتريد موسكو اتفاقية خاصة مع حلف الأطلنطى تضع فى اعتبارها دور ومكانة روسيا فى العالم وفى الشؤون الأوروبية وقوتها العسكرية وأسلحتها النووية. فروسيا، بحجمها وعمقها، يجب أن تكون لها شخصية مختلفة عن الدول الأخرى إذا كانت ستنضم إلى برنامج "الشراكة من أجل السلام" الذى وضعه حلف الأطلنطى، على حد تعبير بوريس يلتسين نفسه[cl].

وهناك عدة عوامل تتعلق بالأهمية الاقتصادية والإستراتيجية لجمهورية الشيشان بالنسبة لروسيا وهى[cli]:

١ – إن موافقة روسيا على استقلال الشيشان هو بداية انهيار روسيا الاتحادية على طريقة أنهيرا الاتحاد السوفيتى، وهذا سيمهد لكل جمهوريات روسيا ذات الحكم الذاتى والمتعددة القوميات والأديان أن تحذو حذو الشيشان خصوصًا جمهوريات القوقاز.

٢ – الشيشان غني بالنفط، هذا فضلاً عن أن الأنابيب التى تحمل النفط الروسى تمر عبر أراضيها فكيف تسمح روسيا لهذه الجمهورية الصغيرة أن تسيطر على المنبع والمصب فى آن واحد.

٣ – خطوط المواصلات "خطوط السكك الحديد" التى تربط روسيا بأذربيجان وجمهوريات القوقاز بجمهورية الشيشان، وسيطرة الأخيرة على خطوط المواصلات هذه سيخنق روسيا.

٤ – تقع فى جمهورية الشيشان أكبر المحطات الكهروذرية التى تمد روسيا والقوقاز بالطاقة الكهربائية.

٥ – استولت جمهورية الشيشان بعد فشل انقلاب أغسطس الشيوعى ١٩٩١م على مخلفات الجيش الأحمر الذى كان يرابط على أراضيها، ومن ضمن ما سيطرت عليه الشيشان عدد من الصواريخ الإستراتيجية.

هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى تتعلق بروسيا الاتحادية بصفة خاصة وأهمها[clii]:

١ – الصدمة النفسية للروس السلاف الذين كانوا بالأمس القريب النخبة الحاكمة، والمسيطرة على كل مجالات الحياة فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى وفجأة فقدوا هذه المكانة، ويتطلعون مرة أخرى لبسط نفوذهم.

٢ – الانهيار الاقتصادى وفشل برامج الإصلاح الاقتصادى، وتعطل ألوف المعامل والورش والمؤسسات، والمصانع العاملة تعمل بطاقة إنتاجية تتراوح بين ٢٠% - ٥٠%. وأصبح المواطن الروسى لا يستطيع توفير احتياجاته من الموارد الغذائية التى كان يحصل عليها بسهولة ويسر فى العهد الشيوعى، بسبب انخفاض قيمة الروبل وارتفاع الأسعار، وظهور طبقة تتحكم فى أسواق السلع، ومحاكاة النمط الاستهلاكى الغربى غير المنتج.

٣ – الانهيار الأمنى وعدم الإحساس بالأمن، وأن روسيا تعيش حاليًا حربًا أهلية خفية تطحن الكبر بلا رحمة ممثلة فى عشرات بل مئات الاغتيالات.

٤ – سيطرة البيروقراطية الإدارية على دفة الأمور، وتجاهل الأوامر والقرارات السيايسة، وبالتالى فوضى فى تسيير شئون الدولة.

٥ – النزعة الانفصالية هى السائدة، وأن السلطة المركزية تكاد تكون مقصورة على موسكو.

للعوامل السابقة الخارجية، وكذلك الداخلية الخاصة بالأهمية الاستراتيجية لجمهورية الشيشان، هذا بالإضافة إلى العوامل الداخلية والخاصة بروسيا الاتحادية رأت القيادة السياسية الروسية اختيار نهاية عام ١٩٩٤م للهجوم العسكرى على جمهورية الشيشان، وسبقه تمهيد إعلامى بأن الشيشان، والقوقازيين مسئولون عن أزمة المواد الغذائية والسلع، وأنهم مافيا وتجار مخدرات وخارجون على القانون ويجب تجريدهم من السلام. وفى نفس الوقت حملة أمنية مكثفة للقبض على القوقازيين ومنهم الشيشانيون لتحقيق ما يلى[cliii]:

١- توجيه رسالة قوية إلى الولايات المتحدة والغرب بأن روسيا مازالت قوة عظمى.

٢- إرهاب دول أوروبا الشرقية والوسطى ولمنعها من الانضمام لحلف الأطنلطى.

٣- إخضاع الجمهوريات المستقلة فى الاتحاد السوفيتى سابقًا "عسكريًا واقتصاديًا لسيطرة موسكو".

٤- توجيه ضربة وقائية ضد القومية الروسية المتطرفة التى يتزعمها "جيرينوفسكى" والتى استفادت من عدم حسم يلتسين موضوع الشيشان.

٥- ضربة قاضية ضد القومية الشيشانية التى هددت بتعطيل المصالح الوطنية للفيدرالية الروسية لو نجح الانفصال.

٦- ضربة وقائية ضد بروز القوميات الأخرى، وضد فكرة الانفصال.

يمكن القول بأن هناك اتجاهين لتكيف العلاقة بين الشيشان والاتحاد الروسى. الاتجاه الأول: أن الشيشان جزء لا يتجزأ من الاتحاد الروسى تقوم هذه النظرية على افتراض أن الاتحاد الروسى يضم عددًا كبيراً من الوحدات المكونة له، والتى تتمتع فى إطار هذه الاتحاد بمراكز قانونية مختلفة. وأنصار هذه النظرية يرون أن وجود الشيشان فى جسم الاتحاد الروسى فى المراحل التاريخية الثلاث القيصرية والشيوعية والحالية قد جعل وجود الشيشان فى الاتحاد حقيقة قانونية وواقعية وأن من حق السلطة المركزية فى موسكو أن تحافظ على وحدة الاتحاد وأن أى خروج على الوحدة يقتضى تطبيق القانون الروسى، وأن حركة الاستقلال فى الشيشان لم تصل فى نظر هذا الفريق لدرجة الثوار أو مرتبة المحاربين، وإنما هم متمردون خارجون على سلطان القانون. كما يرى أنصار هذه النظرية أن وحدة الدولة واستمرارها وبقاءها مقدمة على كافة الاعتبارات الأخرى،

وأنه المبدأ الأول الأولى بالاحترام بين سائر مبادئ القانون الدولى. كما يضيف هذا الفريق حجة أخرى، وهى أن روسيا الاتحادية قد ورثت الاتحاد السوفيتى السابق وراثة كاملة، وهذه الوراثة فى نظرهم تصحح أى خطأ فى العلاقة بين الشيشان والاتحاد الروسى، بل إن سلطة الاتحاد الروسى فى إطار نظرية التوارث على الشيشان أكثر وضوحًا وأهمية من علاقة هذا الاتحاد بسائر الجمهوريات السوفيتية المستقلة من حيث إن الأخيرة كانت تقف على قدم المساواة مع الاتحاد الروسى داخل الاتحاد السوفيتى بينما يعتبر الشيشان مكونًا داخليًا للاتحاد الروسى بصرف النظر عن مصير الجمهوريات السوفيتية السابقة الأخرى[cliv].

أما عن حق تقرير المصير لشعب الشيشان فيرى هذا الاتجاه أن شعب الشيشان يختلف عن بقية شعوب الاتحاد الروسى اختلافًا حاسمًا فى الدين، والعرق، واللغة، والثقافة، والتاريخ، والمزاج. وبذلك فإن الشيشان لم تكن راضية فى يوم من الأيام عن وجودها غصبًا دخل الاتحاد الروسى القيصرى، والسوفيتى، والحالى. وأن الشيشان قد ثارت مرات عديدة بل واستعصت على الغزو منذ البداية مما سجلته صفحات التاريخ الدامى بين الروس والشيشان، ولم تحل سياسات موسكو فى اقتلاع أصل الشيشان من بلادهم وتوزيعهم فى أركان الإمبراطورية الروسية دون استمرار روح الأمة والتماسك والإصرار على المحافظة على حريتهم المتميزة. وتلك حقيقة يعرفها الروس قبل غيرهم كما يعرف الروس أن وجود الشيشان فى الجسم الروسى وجود مغصوب، وليس له أى سند قانونى. كما أنه من المعلوم أن الاتحادات تقوم على أساس الرضا والقبول بين أطرافها، وهو ما لم يحدث فى العلاقة بين الشيشان والروس، ولذلك فإن إعلان دوداييف للاستقلال عام ١٩٩١م كان موجهًا للاتحاد السوفيتى ولروسيا الاتحادية فى وقت واحد وهو بمثابة استرداد لوضع كان يجب أن يستمر دون ضغط أو إكراه، كما أن الشيشان لم تقبل المعاهدة التى عرضها الرئيس "يلتسين" فى مارس ١٩٩٢ لإقامة اتحاد جديد بين (٨٨) وحدة سياسية داخل الاتحاد منها (٢١) جمهورية منحتها الاتفاقية مزيدًا من الحرية. وقد تم التوقيع على هذه المعاهدة فى فبراير ١٩٩٤م من جانب هذه الوحدات، ولم توقع عليها جمهورية الشيشان. وإذا كانت المادة (٦٥) من الدستور الروسى تجيز الانفصال بموافقة ثلاثة أرباع المجلس الأعلى وثلثى المجلس الأدنى فى البرلمان فمن الواضح أن البرلمان الروسى الذى استنكر الغزو لن يوافق على الانفصال تحت أى ظرف من الظروف. وهذا النص الدستورى لا ينطبق على حالة الشيشان لأنها لم تنضم لمعاهدة الاتحاد؛ وبذلك لا يجوز القول بأنه كان يتعين على الشيشان أن يطلب استقلاله بالطرق الدستورية فى البرلمان. وسوف يترتب على ما تقدم أن شعب الشيشان من الناحية الاجتماعية والقانونية اختار فى استفتاء رئاسي الاستقلال ورئيس الجمهورية فى وقت واحد وهو بذلك يعد استفتاء على حق تقرير المصير ومن ثم يعد الغزو الروسى للشيشان عدوانًا وليس عملاً روسيًا داخليًا[clv].

الفصل الخامس

البوسنة والهرسك

أولاً: البوسنة حتى مؤتمر برلين ١٨٧٨م.

ثانيًا: وضع البوسنة من الحرب العالمية الأولى حتى عام ١٩٧٢.

ثالثًا: ميلاد دولة البوسنة الميتة.

البوسنة والهرسك

أولاً: البوسنة حتى مؤتمر برلين ١٨٧٨م.

أغار العثمانيون على البوسنة لفتحها عامى (١٣٧٢، ١٣٨٤م) وقد نتج عن ذلك حصول العثمانيين على العديد من الأسرى والغنائم، بعدها تحالف البوسنة والصرب ضد العثمانيين وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بهم فى بلوشنيك عام ١٣٨٦م، كما اشترك البوسنيون مع الصرب فى موقعة قوصوه الأولى ضد العثمانيين، والتى انتهت بهزيمة الصرب رغم استشهاد السلطان مراد الأول عام ١٣٨٩م[clvi]، وفى عهد السلطان محمد الأول (١٤٠٣- ١٤٢١م) أغارت القوات العثمانية على البوسنة، وسقطت بعض المناطق منها؛ القصبة الصغيرة المسماه (سراى بوسنة) **Sarajevo**، وقد شرع العثمانيون فى جعلها بلدة كبيرة لتكون مركزًا للبوسنة[clvii]، وعندما تولى السلطان محمد الثانى (الفاتح) (١٤٥١- ١٤٨١م) قاد حملة عام (١٤٦٣) تمكن بعدها من فتح البوسنة، وصار البوشناق مسلمين، وقد حاولت المجر أخذ البوسنة ثلاث مرات فى (١٤٦٥، ١٤٧١، ١٤٧٩م) وقد باءت تلك المحاولات بالفشل[clviii] بعدها أصبحت البوسنة ولاية عثمانية.

واستمرت الأوضاع فى البوسنة مستقرة، ولكن مع ضعف الدولة العثمانية بصورة واضحة مع مطلع القرن التاسع عشر قام تمرد فى عام ١٨٠٦ فى الحرب بقيادة بازوندا أوغلو بإعلان التمرد ضد الدولة العثمانية، وقاموا بمذابح ضد المسلمين بقيادة تسيرنى، وجورج بتروفيتش، الذى طلب المساعدة من النمسا روسيا على اعتبار أن الروس سلافيون، وتوسعت هذه الحركة ولكن قضت الدولة العثمانية عليها وتم القبض على زعماء التمرد وتم إعدامهم، إلا أن روسيا قامت بتحريض سكان الجبل الأسود على التمرد ضد العثمانيين، وحقق الثوار انتصارًا باحتلال سمندرة وانتهى هذا الأمر بحصول بلاد الصرب على استقلال ذاتى عام ١٨٣١، وقامت بعد ذلك فى روسيا جمعيات سلافية تهدف إلى حث المسيحيين التابعين للدولة العثمانية فى كل من البوسنة والهرسك والجبل الأسود والصرب وبلغاريا على التمرد. وقامت بإمدادهم بالسلاح والمال والمهمات بشكل غير رسمى، واستعدت إماراتى الصرب والجيل الأسود لأداء دموى، وفى الجانب الآخر قابل إمبراطور النمسا وفدًا أرسله نصارى البوسنة والهرسك وأعطاهم وعدًا فى حالة التمرد بمساعدتهم ضد المسلمين، من هنا نشأ تمرد الهرسك، وحدث بعد ذلك مصادمات عسكرية وتدفقت المساعدات العسكرية من الخارج، وإزداد الأمر تأزمًا، ولعب الإعلام الروسى دورًا أساسيًا فى الدعاية لهذه المسألة، فى الوقت الذى كان فيه أهل البوسنة والهرسك يذبحون، وكانت الغلبة لمسيحى هذه البلاد عن طريق التأييد الواسع من أوروبا[clix].

استمر تمرد الهرسك، فى الوقت الذى لم تستطع فيه الدولة العثمانية أن تفعل شيئًا، وكانت مصلحة روسيا والصرب، والجبل الأسود – والنمسا – وكرواتيا استمرار تمرد الهرسك ضد العثمانيين وقد قررت الدول الأوروبية بعد اجتماع عام ١٨٧٦ إرسال مذكرة احتجاج إلى الدولة العثمانية متهمًا إياها بأنها لم تهتم بالإصلاحات فى البوسنة والهرسك، وعليها لحل تلك المشكلة، الاعتراف بحرية دينية وإقامة الطقوس بشكل تام ومطلق لنصارى البوسنة والهرسك، وإلغاء نظام الالتزام فى ضرائب الأعشار، علاوة على تشكيل مجلس ولاية مختلف من النصارى والمسلمين، ويعطى هذا المجلس حق رقابة الإصلاحات، وأخيرًا تخصص حاصلات الضرائب للاحتياجات المحلية، وعلى الرغم من قبول الدولة العثمانية هذه المقترحات مع تعديلات طفيفة إلا أن التمرد ظل مستمرًا [clx].

وأعلنت صربيا والجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية فى صيف ١٨٧٦ وعندما هزم العثمانيون الصرب على أرض المعركة تدخلت روسيا فى الصراع إلى جانب صربيا والجبل الأسود، معلنة الحرب على الإمبراطورية سنة ١٨٧٧، وبحلول ربيع ١٨٧٨ كانت القوات الروسية قد تقدمت حتى وصلت إلى ضواحى استانبول، وسرعان ما شعرت بريطانيا وفرنسا من خطر احتمال تحقيق الروس لمكاسب على حساب العثمانيين وخاصة بعد فرض الروس للسلام فى سان ستيفانو فى مارس ١٨٧٨، وهو السلام الذى أوجد بلغاريا يفترض عالميًا أنها دولة ألعوبة فى يد الروس إلى الشرق والجنوب من صربيا. ولكى تقضى القوى العظمى على المكاسب الروسية وتعيد تشكيل توازن القوى فى أوروبا عقدت اجتماعًا فى برلين فى يونيو ١٨٧٨ ونصت اتفاقية برلين على تقليص حجم بلغاريا، وأعادت الكثير من أراضيها إلى العثمانيين. ولكى تحمى الاتفاقية المصالح النمساوية المجرية فى البلقان، أعطت البوسنة والهرسك للنمسا والمجر كى تحتلها وتديرها، الأمر الذى أصاب الصرب بخيبة أمل مريرة، وهم الذين كانوا يأملون فى ضم البوسنة لهم ومنذ نهاية الحقبة العثمانية ١٨٧٨ حكمت البوسنة خمس حكومات مختلفة النمسا والمجر (١٨٧٨ – ١٩١٤) ويوغسلافيا الملكية (١٩١٤ – ١٩٤١) ودولة كرواتيا المستقلة الفاشية (١٩٤١- ١٩٤٥) ويوغسلافيا الاشتراكية (١٩٤٥- ١٩٩١). وجمهورية البوسنة

والهرسك التى ولدت ميتة (١٩٩٢) [clxi].

وفى مؤتمر برلين عام ١٨٧٨، صدر قرار بإعطاء البوسنة والهرسك إلى النمسا لإدارتها باسم السلطان العثمانى، وفى عام ١٩٠٨ قررت النمسا ضم الإقليم إلى إمبراطوريتها متعددة الجنسيات والقوميات. ومنذ البداية أعرب الجزء الأكبر من شعب البوسنة والهرسك عن رفضه وعدائه الصريح للامتلاك النمساوى المجرى ولم تنقطع عمليات التمرد والاختطاف والسلب، ويمثل احتلال البوسنة والهرسك نقطة تحول فى تطورها الاقتصادى، وذلك لأنها تحولت إلى الاقتصاد الرأسمالى الذى لا يمكن تصوره بدون وسائل مواصلات جديدة، ولذا فإن سلطات الاحتلال كرست اهتمامًا خاصًا بإقامة خطوط للسكك الحديدية وشبكة كاملة للمواصلات تربط بين المناجم والمصانع وتشييد الطرق، وتم البدء فى تطوير تلك الفروع الصناعية التى تسمح بالرواج المثمر لرؤوس الأموال النمساوية. وأحدثت هذه التحولات الاقتصادية الهائلة تغيرات مهمة فى المجتمع مما أدى إلى تغيير هيكله. وكانت سلطات الاحتلال تحمى مصالحها الرأسمالية وتمنع البوسنيين من تطوير صناعتهم المحلية والاشتراك فى استغلال الثروات الطبيعية للبلاد[clxii].

ثانيًا: وضع البوسنة من الحرب العالمية الأولى حتى عام ١٩٧٢.

كان لانتصار صربيا فى حروب البلقان (١٩١٢ - ١٩١٣) أكبر الخطر على الإمبراطورية النمساوية نظرًا للتغيرات التاريخية الضخمة التى أحدثتها هذه الحروب فى شبه جزيرة البلقان، ولتزايد الوعى القومى ازداد نشاط الحركات الوطنية المطالبة بطرد النمسا من البلقان، وكثفت الجمعيات السرية فى البوسنة والهرسك من أعمالها الموجهة ضد النمسا. وقد ظهرت آنذاك حركة "بوسنة الفتاة" وهى حركة ثورية من الشباب تطبق أساليب جديدة من أجل التحرر القومى ومن أجل الوحدة مع صربيا ولا تستخدم إلا أسلوب الاغتيالات. واشترك كثير من أتباع هذه الحركة فى الحروب البلقانية. وفى يونيو ١٩١٤ تمكن أحد أبناء البوسنة المنتمين إلى هذه الحركة من اغتيال ولى العهد النمساوى خلال زيارته الرسمية لسراييفو عاصمة البوسنة. وكانت هذه هى الشرارة التى أشعلت الحرب العالمية الأولى وانتهت بانهيار الإمبراطورية النمساوية المجرية وقامت على أنقاضها عدد من الدول القومية[clxiii].

وفى عام ١٩١٨ دخلت البوسنة والهرسك فى تشكيل مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين. ومن الملاحظ أنه لم يذكر اسم البوسنيين أو المسلمين فى اسم هذه الدولة الجديدة. ولم يكن هذا الأمر مصادفة وإنما كان عن عمد ذلك لأن الشعوب الأساسية المكونة لهذه الدولة لم تشأ أن تعترف بالبوسنيين وإنما تعتبرهم من المسلمين الصرب أو الكروات، ودون الاعتراف بشخصيتهم المتميزة وهويتهم البوسنية. وفى عام ١٩٢٩ اتخذت هذه الدولة لها اسم يوغسلافيا أى وطن السلاف الجنوبيين. وسرعان ما كشفت الطموحات الصربية السابقة فى إقامة دولة صربيا الكبرى التى تجمع كل العناصر السلافية الجنوبية وفرض الصرب فى هذه الدولة الجديدة سيطرتهم المطلقة على بقية القوميات الأمر الذى أدى إلى ظهور حركات مناهضة للصرب بين الكروات والمسلمين وغيرهم من القوميات. وبعد اغتيال ألكسندر ملك يوغسلافيا، غرقت البلاد فى صراعات عرقية لاقى فيها مسلمو البوسنة الكثير من العنف والمعاناة. وظلت هذه الصراعات مستمرة حتى غزو الألمان ليوغسلافيا فى إبريل من عام ١٩٤١[clxiv].

وباستسلام يوغسلافيا فى هذه الحرب وقع شعب البوسنة والهرسك تحت الاحتلال الألمانى والإيطالى. ثم دخلت البوسنة، بموافقة المحتل الألمانى فى إطار دولة كرواتيا المستقلة. وسرعان ما بدأت أعمال الإرهاب والمطاردات والسجن الجماعى والقتل ضد المسلمين. وأبدى سكان البوسنة مقاومة ضد هذه الأعمال الإجرامية. وبدأت حرب التحرير الشعبية بقيادة الحزب الشيوعى اليوغسلافى وجماعات وقوميات وشعوبًا ذات انتماءات مختلفة تحمل شعار طرد المحتل وفرض العدل والمساواة العرقية وترفع شعار الأخوة والوحدة. وفى عام ١٩٤٥ تم تشكيل أول حكومة مستقلة للبوسنة والهرسك فى إطار يوغسلافيا الاتحادية ولا تضم فى مجلسها التنفيذى إلا عددًا محدودًا من غير الشيوعيين كواجهة سياسية. وأجريت الانتخابات فى نوفمبر ١٩٤٥ لانتخاب مجلس تأسيسى، وقدمت للناخبين قائمة مرشحين واحدة مؤلفة من الشيوعيين بصفة أساسية. وحصلت هذه القائمة على أكثر من ٩٠٪ من عدد الأصوات. وفى يناير ١٩٤٦ أعلن المجلس التأسيسى الذى يسيطر عليه الشيوعيين دستورًا وحدد هذا الدستور النظام السياسى الأساسى ليوغسلافيا الاشتراكية واعترف بخمس قوميات يوغسلافية هى الصرب والكروات والسلوفينيون والمقدونيون وأهل الجبل الأسود، ولم يدخل فى ذلك المسلمون البوسنيون فكان الحزب يرى أن المسلمين طائفة منفصلة بلا هوية قومية فى الوقت الذى اعترف فيه بأقليات قومية بعينها أبرزها المجريون والألبان[clxv].

وكان النظام الشيوعى قد عمل على إقامة علاقة عمل مع زعماء الطوائف الدينية الكبرى. وكان للكنيسة الأرثوذكسية الصربية تراث يمتد قرونًا من التعايش مع أنظمة شديدة التباين شملت العثمانيين والنمساويين واليوغسلاف، وتحاشى الحزب أى هجوم صريح ضد المسلمين وانقسم مسلموا سراييفوا بين تأييد الحزب الشيوعى ومعارض له.

وفى انتخابات ١٩٤٥ التى أجريت لانتخاب مجلس الأوقاف فاز المرشحون المحافظون دينيًا المعادون للشيوعية بمناصب رئيسية، مما أدى إلى تزايد احتمال المواجهة. وأوقفت الحكومة تمويل المؤسسات الثقافية الإسلامية، مما أجبر المسلمين على جمع المساهمات التطوعية فى المساجد. وفى أغسطس ١٩٤٦ غير مجلس الأوقاف نهجه وتعهد بتأييد الحكومة بعدها سمح النظام الشيوعى باستمرار المؤسسات الإسلامية الرئيسية التى سبق إنشاؤها بمقتضى الاتفاق الاسلامى النمساوى عام ١٩٠٩، وتشمل رئيس العلماء ولجنة الأوقاف ومجلس الأوقاف. ورغم بعض المصادرات والاصلاحات، ظل العمل قائمًا بنظام الأوقاف على نطاق واسع، واستمرت الأوقاف فى دعمها للمؤسسات الثقافية الإسلامية الكبرى فى البوسنة طوال الحقبة الاشتراكية[clxvi].

ثم حدث تغير فى الأمور وإن لم يكن جذريًا ففى عام عام ١٩٧٢، أعادت الحكومة اليوغسلاقية مساجد المسلمين، وبعض مدارسهم، منها مدرسة سرايبفو التى حولتها الدولة إلى كلية للرياضيات، وأيضًا مدرسة الغازى الأمير خورشيد، واعترفت يوغسلافيا فى عام ١٩٧٣ بالمسلمين كقومية خاصة، إلا أنها لم تسمح للمسلمين ببناء أدى مسجد أو جامع، فما كان من المسلمين إلا أن أقاموا بجهودهم الذاتية ثلاثون جامعًا جديدًا، بدون أذن رسمى، ويعترف القانون اليوغسلافى بحرية الأديان وللمسلمين الحرية فى تأدية شعائرهم الدينية[clxvii].

ثالثًا ميلاد دولة البوسنة الميتة

وأخذت الأمور تتطور فى البوسنة فى ٦ أبريل ١٩٩٢ تم اعترفت المجموعة الاقتصادية الأوروبية بالبوسنة كدولة مستقلة، تزامن ذلك مع استمرار الصرب فى عملياتهم التعسفية ضد مسلمى البوسنة، فقد حدثت عمليات إطلاق نار وتفجير قنابل فى كثير من المدن البوسنية مثل بانيالوكا وبوسانسكى وموستار وعلى أثر ذلك فر عدد كبير من مسملى البوسنة من ديارهم قدر عددهم عند نهاية أبريل بخمسة وتسعين فى المائة، فأخذت على أثر ذلك قوات الدفاع المحلية التابعة للحكومة البوسنية والتى قدر عددها ٣٥٠٠ أن تظهر شيئًا من المقاومة، ولكن المقاومة الرئيسية جاءت من جانب الصرب[clxviii].

وكان رد فعل المجتمع الدولى مرتبكًا أو سلبيًا، وعندما بدأ القتال فى البوسنة كانت الأمم المتحدة فى بداية إنشاء مقر قيادة عليا فى سرايبفو، فضلاً عن قواعد فى بعض مدن البوسنة الشمالية، لكى تدير عمليات حفظ السلام فى كرواتيا. وفى أوائل مايو ١٩٩٢ رفض الأمين العام بطرس بطرس غالى استخدام قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة فى البوسنة. وفى ١٦ مايو سحبت معظم قوة الأمم المتحدة الموجودة أصلاً فى سرايبفو. بعدها أصدر بطرس غالى تقريرًا كرر فيه الخط الأساسى لمناورة ميلوسيفيتش، وهى أن الجيش والقوات شبه النظامية بالبوسنة كانت مستقلة، ولا علاقة لها ببلجراد كان الهدف من وراء هذا التقرير هو المحاجة ضد فرض العقوبات على صربيا، وهو إجراء اقترحته الحكومة الأمريكية، ولكن قاومته كل من فرنسا وبريطانيا اللذين قالا أنهما يريدان إعطاء ميلوسيفتش، فرصة أخرى لإيقاف ما يجرى فى البوسنة من عنف، والواقع أن العقوبات فرضت على صربيا فى ٣٠ مايو، ولكن لم يكن لهما أى تأثير فى الجهد الحربى الصربى[clxix].

ومن هنا جاء دمار البوسنة وكان أكبر عامل فى ذلك رفض رفع خطر توريد السلاح على الحكومة البوسنية، وقد فرض هذا الحظر من جانب الأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٩١ على يوغسلافيا بأكملها التى كانت لا تزال فى ذلك الوقت من الناحية الرسمية دولة واحدة، وبالرغم من أن الأمم المتحدة اعترفت بالبوسنة وأدخلتها دولة عضوة ومتميزة ومستقلة عن يوغسلافيا فى ٢٢ مايو ١٩٩٢ فإنها استمرت فى تطبيق الحظر، وظل مطبقًا على صربيا أيضًا ولكن الأخيرة كانت تسيطر على الأسلحة المتبقية عن الجيش الفيدرالى السابق، كما أنها كانت تمتلك صناعة سلاح خاصة بها، وكان القواد العسكريون الصرب يفاخرون فى أحيان كثيرة بأن لديهم من الأسلحة والذخيرة ما يكفى لمواصلة الحرب فى البوسنة ست أو سبع سنوات أخرى، ولم يكن فى إمكان الخطر أن يكون له أدنى أثر حقيقى على قدرتهم العسكرية، وكان ذلك الخطر بالنسبة لقوات الدفاع البوسنية قرار بالإعدام على المدى الطويل، ورغم الفارق فى التسليح بين الطرفين، فإن التاريخ العسكرى للحرب أثناء ١٩٩٢ يثبت أنه كان هناك ندية فى القتال بين حكومتى البوسنة والكروات ضد الصرب[clxx].

وحدثت أول بادرة تغيير فى السياسة الغربية فى أوائل أغسطس ١٩٩٢، بعد أن قام عدد من رجال الصحافة، ومجموعة من مندوبى التلفزيون بزيارة أحد معسكرات الاعتقال التى يديرها الصرب بشمال البوسنة ولأول مرة استطاع الرجال العاديون والساسة أن يشهدوا بأعينهم الدلائل القاطعة التى تشهد بمأساة السكان المسلمين بتلك المنطقة، وقد جرى قتل متعمد لكل المسلمين المتعلمين ووجوه المجتمع المحلى، المعلمين والأطباء والمحامين، وقد أظهرت التقارير المفصلة التى ظهرت بعد ذلك فى نفس السنة أن بعض معسكرات الاعتقال قد استخدمت أيضًا كمقر للقتل المنظم. وكان هناك الكثير من التقارير التى تشير إلى أنه كان يتم القبض على النساء ويتم حجزهن فى مبان خاصة بغرض الاغتصاب المنظم، وكان رد فعل الساسة الغربيين إزاء مشاهد السجناء المعذبين فى المعسكرات هو مجرد التعبير فقط عن الغضب والاهتمام[clxxi].

وفى أواخر أكتوبر ١٩٩٢ قدم مفاوضا المجموعة الاقتصادية الأوروبية والأمم المتحدة وهما لورد أوين وسيروس فانس، أول اقتراح تفصيلى لتسوية سياسية، كانت تلك التسوية عبارة عن حل وصلا إليه بتنفيذ مطالب الصرب والكروات والمسلمين عن طريق رسم خطوط هندسية بين الأطراف جميعًا. كانت النتيجة أن أعطى الصرب مساحة كبيرة من الأرض. مما استفز المسلمين إلى الشعور بأن الصربيين قد كوفئوا على عدوانهم. ومما أشعر الصرب بأنهم لو استمروا فى أعمالهم فلابد أنهم سينالون قدرًا أكبر. وقد وضع هذه الخطة دبلوماسى فنلندى هو مارتى اهتيسارى ، وترمى الخطة إلى تحويل البوسنة إلى مقاطعات ذات استقلال ذاتى أو كانتونات تقوم بجميع وظائف الحكومة بما فى ذلك أعمال الشرطة وتتولى الحكومة المركزية فى البوسنة وسائل الدفاع القوم والشئون الخارجية فقط. وعندئذ ضغط الصرب ضغطًا أشد عندما صدرت الخطة فيما قيل أنه أخذ إطار نهائى لها بمدينة جنيف فى يناير ١٩٩٣، حتى أن شئون الدفاع انتزعت من سلطات هذه الحكومة المركزية المقترحة[clxxii]. وعلى الرغم من ذلك استمرت عمليات التطهير العرقى ضد المسلمين.

كانت هناك توترات بالفعل بين المسلمين البوسنيين وزعماء الكروات، ففى سبتمبر ١٩٩٢ ظهر تقرير بأن الزعيم الكرواتى ماتى بوبان كان يحض قوات مجلس الدفاع الكرواتى على أن يكفوا عن مساعدة القوات البوسنية، فى محاولاتها كسر الدفاع عن سراييفو وحدثت فى أكتوبر بعض المناوشات بين القوات المسلمة والكرواتية فى ترافنيك وبروزور كما حدث تبادل مرير من اللوم بين الجانبين حول سقوط يايسه فى أيدى الصرب، وتطور الموقف ففى فبراير ١٩٩٣ حوصرت القوات المسلمة فى جورنى فاكوف بواسطة قوة جند مجلس الدفاع الكرواتى. على أن شهادة الوفاة النهائية للبوسنة كتبت يوم ٢٢ مايو ١٩٩٣ فى واشنطن فى اجتماع عقد لوزراء خارجية بريطانيا وروسيا وفرنسا والولايات المتحدة، وتقرر إسقاط الضربات الجوية الموجهة ضد مسلمى البوسنة من الحسبان. وتقرر أن يسمح لبقايا المليونين من مسلمى البوسنة بالتجمع فى عدد مما يدعى بالمناطق الآمنة حيث لا يضمن أحد سلامتهم، وعندما سمع الرئيس عزت بيجوفيتش بأخبار هذه الاتفاقية، أصدر بيانًا قال فيه "إذا لم يكن المجتمع الدولى مستعدًا للدفاع عن المبادئ والتى سبق وأعلن أنها أساساته، فليقل ذلك صراحة لكل من شعب البوسنة وشعوب العالم بأجمعها. وليعلن معيارًا جديدًا للأخلاقيات تكون فيه القوة العاتية هو أول وآخر حجة" وأثناء شهور الصيف التالية أقدم الذين يمارسون تلك الحجة، وهم سلوبودان ميلوسيفتش وفرانيو توجمان واللورد أوين على وضع مشروعات خطط أشد صرامة لتقسيم البوسنة إلى ثلاث دول[clxxiii]، هو أمر لا يقلبه المسلمين وتكشف أحداث البوسنة عن حرب الإبادة الموجهة ضد مسلحيها.

الفصل السادس

النشاط التنصيرى فى أفريقيا (الصومال نموذجًا)

أولاً- طبيعة النشاط التنصيرى.

ثانيًا- مراحل التنصير.

ثالثًا- الفئات التى تولت النشاط التنصيرى.

رابعًا- أهم المشكلات التى واجهت الإرساليات التنصيرية والتغلب عليها.

خامسًا- وسائل الإرساليات التنصيرية.

سادساً- النشاط التنصيرى بالصومال.

الفصل السادس

النشاط التنصيرى فى أفريقيا (الصومال نموذجًا)

أولاً- طبيعة النشاط التنصيرى

كانت أفريقيا هدفًا للنشاط التنصيرى منذ القرون الأولى للمسيحية، وكان هذا النشاط - على الطبيعة - اتجاهًا رأسيًا من الشمال إلى الجنوب، على عكس الاتجاه الأفقى من الشرق، ومن الغرب الذى اتجه إليه ذلك النشاط فى العصور الوسطى، والحديثة.

ولقد تولد - منذ القدم - عند المؤمنين بالعقيدة المسيحية شعور بالتضامن لحماية الدين، من جهة، وحافز قوى لاجتذاب المخالفين إلى حظيرتهم من جهة أخرى، ولكى يبرر حملة الدعوة صنيعهم هذا، صوروا مخالفيهم فى العقيدة على أنهم "ضالون" عن النهج السوى، إن الواجب الإلهى أو "اللاهوتى" يقتضى انقاذهم من ذلك الضلال و"تبشيرهم" بالطريق المؤدى إلى النعيم الأبدى، وقد بلغ هذا الحافز اللاهوتى الحاد لانقاذ الضالين - فى كثير من الأحيان - مبلغ التنكيل بالضالين، وقيل تبريرًا لذلك، أن التنكيل بأجسادهم سوف يؤدى فى النهاية إلى "خلاص" أرواحهم، ووصل هذا الحافز أيضًا من الحدة إلى اعتبار الحضارات التى قامت على غير أساس مسيحى حضارات همجية زائفة حتى فى هذا العصر الذى تفتحت فيه الأذهان إلى مدى بعيد. ومن ذلك ما رواه مصرى ذهب فى بعثة علمية إلى إحدى المدن الأمريكية ونزل ضيفًا بالأجر على سيدة مسيحية ورعة تملك وتدير منزلاً صغيراً، وعندما سألت السيدة نزيلها - مستطلعة - عن بلده أجابها: مصر، وسألته عن دينه فأجاب: مسلم. فما كان من السيدة إلا أن أظهرت مشاعر الرثاء والشفقة وهى تقول له: يا لكم من مساكين.. ألم يأت بلادكم أحد من المبشرين. ولقد تبلورت فى أذهان الأتقياء من المسيحيين - منذ القدم - تلك الرغبة فى "الانقاذ" من جهة وهذا التصور فى أن غير المسيحى معناه ضال من جهة أخرى وتولد عن ذلك اعتقاد جديد يجعل كلمة "مسيحى" تكاد تعادل كلمة "مبشر" بمعنى أن من واجب المسيحى الحق أن يكرس جهوده المادية والمعنوية طول حياته لنشر الديانة المسيحية وتوجيه غير المؤمنين بها إلى طريق الخلاص، وقد ذهب كثير من دعاة التبشير القديم والحديث هذا المذهب، ولما رأوا أن المسيحى قد تعوقه مشاغل الحياة الأرضية عن هذه الغاية، وتبينوا أن أهم تلك المشاغل هو الزواج وإنجاب النسل، أخذوا يروجون للقول المأثور عن بطرس الرسول: إذا كان لك أن تتزوج فلا بأس ولكن الأجدى ألا تفعل". وأضاف إلى ذلك بعض المعقبين والشراح: "أنه لو انتشر الزواج بين المسيحيين لظل هذا العالم وثنيًا.. أن الرجل الأعزب هو النصير الحقيقى للانجيل.. أما المرأة المسيحية فما يحق لها أن تحبس نفسها على شئون الأمومة.. أن الله قد خلقها لطاعته وحبه وخدمته والفناء من أجله"[(clxxiv)].

وهكذا "وضع الرسل الأوائل تقاليد التبشير التى ترمى إلى الإنصراف عن هذا العالم الشرير وتركيز الجهود للوصول بالنفس والغير إلى "ملكوت السماء". ولقد تشبعت عقول الأجيال من أتقياء المسيحيين بهذه المبادئ والتصورات، تشبعًا جعلها - فى كثير من الأفراد - أشبه بأحلام اليقظة، وتشابكت هذه الأحلام فى اللاشعور تشابكا كان أحيانًا يعكس اتجاه العقيدة يندفع فى سبيله وقد وضع نجاحه نصب عينيه وربط بين شخصه وبين النتائج التى يهدف إليها، بل قد يمعن فى جهود لها طابع الفدائية دون أن يرى أمامه هدفًا واضحًا أو غاية محددة. ولعل أبلغ تصوير لهذه الدوافع الفدائية ما يروى عن المبشر الإيطالى "دانيل كمبونى" من أنه - كان يذهب إلى جنوب السودان بالبعثة تلو البعثة، ولكن أفراد بعثاته من القسس الصالحين كانوا يتساقطون صرعى بفعل الأمراض الفتاكة والحياة الخشنة فى أرض الأدغال وبعد تعدد محاولات "كمبونى" وعودته إلى بلاده ورجوعه ببعثة جديدة لا تلبث أن يموت أعضاؤها، لم يجد بدًا من أن يصدر أمرًا حاسمًا إلى أفراد آخر بعثة جاء بها. لقد قال لهم: "باسم الطاعة السماوية آمركم ألا يموت منكم أحد قبل مضى عشر سنوات[(clxxv)].

أما فيما يتعلق بالعوامل الجغرافية التى أثرت على ممارسة هذا النشاط، فيمكن القول أن القارة الإفريقية كان أكثر من ربعها صحارى، وقفارًا، جاء على رأس هذه الصحارى، الصحراء الكبرى والتى تكاد تعبر النصف الشمالى من تلك القارة من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر، ومن ثم مثلت حاجزًا طبيعيًا منيعًا بين الشمال الأفريقى، والنصف الجنوبى من القارة، وهى لا تعبرها إلا رياح عاتية وحرارة شديدة، والقوافل. ومن هنا جاءت هذه الصحراء سد محكمًا فى وجه الحركات التبشيرية القادمة من الشمال الإفريقى فى العصور الأولى، والآتية من أوروبا فى العصور الحديثة، فى الوقت الذى كان فيه هذا السد هو المجرى الرئيسى للعقيدة الإسلامية، وتسربت عن طريقه من جبال الأطلسى منحدرة إلى الساحل

الأفريقى العربى حينًا، وإلى قلب القارة الإفريقية، ومشارف سواحلها الشرقية حينًا آخر، حيث عبرت تلك الصحراء التى كانت تجوبها قبائل بدوية شتى أشهرها الطوارق وهم قوم تختلط أصولهم بين العرب والبربر لديهم شجاعة وقوة احتكوا بالمسافرين وقادة القوافل؛ فأحتك هؤلاء بتلك القبيلة التى لعبت دورًا فى نشر العقيدة، والمذاهب الفقهية من فاس، ومراكش إلى تمبكتو، وكانو، وأقاليم دارفور، وبحر الغزال[clxxvi].

ثانيًا- مراحل التنصير

لقد كانت أولى مراحل النشاط التبشيرى المسيحى فى أفريقيا تمتد على الشاطئ الشمالى المطل على البحر الأبيض المتوسط وعلى الشاطئ الشرقى المطل على البحر الأحمر، فبعد أن تفرق رسل السيد المسيح فى أقطار البحر الأبيض، تبلورت الدعوة فى نهاية القرن الثانى الميلادى فى ثلاثة أقطار أفريقية: مصر، والشمال الأفريقى وأثيوبيا. وظهرت بعد ذلك يسمى "نوبيا" وقد ظلت شعوب هذه الأقاليم مسيحية يلتف كل منها حول تنظيم كنسى قوى إلى أن جاء العرب إلى مصر فى القرن السابع الميلادى – أى بعد خمسة قرون من ظهور تلك الكنائس – واندفعوا غربًا حتى وصلوا إلى بحر الظلمات أو المحيط الأطلنطى، ولما كان النفوذ المسيحى لم يتجاوز الشاطئ الأفريقى إلا قليلاً، فقد حل الإسلام محل المسيحية فى تلك الأقاليم الساحلية ولم يبق إلا الكنيسة القبطية فى مصر، كما بقيت الكنيسة الحبشية فى شبه عزلة عن العالم الخارجى، وهاتان الكنيستان هما المظهر الباقى حتى اليوم منذ عصور المسيحية الأولى، أما فى نوبيا فقد تشبثت الكنيسة بالبقاء نحو ألف سنة قبل أن تخلى الطريق للإسلام، ولقد اختفت كنيسة الشمال الأفريقى لأنها لم تتعمق فى القارة ولم تقم لها قائمة بعد ذلك، ولم يحاول دعاة المسيحية دخول أفريقيا من الشمال بعد ذلك، رغم أن الإسلام قد دخل من هذا الباب وانتشر انتشارًا بعيدًا إلى الغرب والجنوب. وربما كان السبب فى وقوف المسيحية حينئذ على الساحل أن قبائل الصحراء الرحالة لم تعتنقها، فى حين أن تلك القبائل حينما اعتنقت الإسلام حملته معها فى كل صوب واتجاه[clxxvii].

وإذا كانت النهضة الأوروبية قد أتت بحركة الإصلاح الدينى – التى حطمت الوحدة الدينية لأوروبا – فإن البروتستانتية لم تهدف أولاً إلى الحرية الدينية بقدر ما اتجهت إلى الاستقلال الدينى. فأصبحت الفكرة التى سادت أوروبا عقب ظهور حركة الإصلاح، حرية كل أمة أو كل أمير فى ممارسة الشكل الذى يراه من المسيحية لا التى يرغمه البابا أو ترغمه الكنيسة على اتخاذه. وبعد أن كان هدف الكنيسة هو وحدة العالم فى ظل عقيدة واحدة أصبح الشعار الجديد وحدة الأمة فى ظل عقيدة واحدة. ولذا لم تكن الحرية الدينية هى النتيجة الطبيعية لحركة الإصلاح الدينى بل هى حرية الحاكم فى اعتناق المذهب الذى يراه فى أجل أغراضه الخاصة وإرغام الشعب على اتخاذ هذا المذهب عقيدة له، ولذا شهدت القرون التالية سلسلة من الاضطهادات الدينية المروعة فى جميع ممالك أوروبا. ففى فرنسا حيث كانت الديانة الرسمية هى الكاثوليكية ووجدت إلى جانبها أقلية كبيرة اعتنقت المذهب الجديد، قامت المذابح التى دبرها الكاثوليك من أجل القضاء على الهيجونوت، كما قامت مذابح مشابهة دبرها الهيجونوت من أجل الانتقام، وكان من نتيجة هذا أن قامت حركة الهجرة الواسعة فى فرنسا إلى أمريكا. ولم تهدأ هذه الاضطهادات إلى حين ارتقى العرش الملك هنرى الرابع وأعطى الهيجونوت الضمانات التى تضمنها مرسوم نانت. فلما ألغى لويس الثالث عشر هذا المرسوم ظن الهيجونوت هذا الإلغاء نذير باضطهاد جديد. فكانت موجة أخرى من الهجرة الفرنسية إلى الخارج، اتجه بعضها إلى أمريكا الشمالية واتجه البعض الآخر إلى جنوب إفريقيا. وفى الإمبراطورية الرومانية المقدسة دارت الحروب الكبيرة من الإمبراطور والأمراء الذين اعتنقوا هذا المذهب الجديد لا عن اعتقاد بصحته بل لأنه يحلهم من رابطة الولاء للإمبراطور. وإذا كانوا قد أظهروا تمسكهم بهذا المذهب عن حرية فى هذا الاعتقاد، فإنهم وقفوا موقفًا معارضًا لذلك حين أراد الفلاحون اعتناق هذا المذهب ظنًا منهم أنه يعنى إزالة الفروق بينهم وبين أسيادهم. وكان أن انتهت ثورة الفلاحين بسحقها والعودة إلى خضوعهم السابق. وتعرض الكاثوليك أيضًا للاضطهاد فى إنجلترا حين رفضوا الخضوع لهنرى الثامن ثم الملكة إليزابث الأولى. ودارت الحروب بين الطائفتين اتخذت فيها السياسة الدين رداءً لها حتى انتهى الأمر بطرد البيت المالك أمام قوة البرلمان ومجئ ملك جديد هو وليم أورانج الذى قبل الملك بشروط البرلمان[clxxviii].

وقامت حرب الثلاثين سنة بسبب هذه العداوة الدينية أيضًا لاسيما عندما ألف الأمراء البروتستانت الحلف البروتستانتى فى سنة ١٦٠٨، وقابله الأمراء الكاثوليك بتأليف الحلف الكاثوليكى فى سنة ١٦١٠، وتهيأ الجو للحرب بين الطائفتين بعد وفاة ماتياس وخلفه فردينان فقبله كاثوليك المجر ورفضه بروتستانت بوهيميا لما أثر عنه من تشيعه للكاثوليكية، واستمرت الحرب هذه المدة الطويلة التى انقسمت فيها أوروبا وأمراؤها وملوكها إلى معسكرين التقوا فى أكثر من موقعة ولم تنته إلا بعد أن شمل التعب كل من اشترك فيها، فعقدوا صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨

ونص هذا الصلح فى مادته الأولى على تمتع أتباع كلفن ولوثر بالحرية الدينية فى جميع أنحاء الإمبراطورية وبقاء ما بيد كل من الكاثوليك والبروتستانت من الأملاك ضمانًا لتنفيذ الشروط، ولكن أكبر الشروط وضوحًا هو ما نصت عليه من انتزاع حق الأمراء لإرغام شعوبهم على اعتناق مذهب معين. فكانت هذه المعاهدة إلى حدًّ ما بادرة ظهور روح التسامح الدينى ونهاية الجمود والتزمت الدينى الذى عانته أوروبا منذ بداية العصور الوسطى[clxxix].

وفى خلال هذه المدة سيطر رجال الدين على التعليم بكافة درجاته وإذا كانت النهضة الأوروبية قد نجحت فى كسر احتكار رجال الين للعلم وفتحه أمام العلمانيين يردونها حين يريدون، ثم منح الدراسة الكلاسيكية مكانًا مرموقًا من الدراسة إلى جانب الدراسة الدينية واتجه غير الدينيين إلى طلبه سواء عن طريق المدارس الخاصة أو المدرسين الخصوصين، ولكن التأثر الدينى ظل هو السائد، لأن أغلبية المدرسين كانوا من رجال الدين والمدارس الخاصة طلبت المعونة من الكنيسة. ولذا كانت حرية الفكر محدودة بسبب رقابة الكنيسة على ما كان يصدر من الكتب لاسيما وأن الأمية كانت لا تزال سائدة بسبب كثرة مصاريف التعليم وقلة ما يطبع من الكتب وغلو أسعارها، وفى خلال المدة الباقية من القرن السابع عشر، وكذلك خلال القرن الثامن عشر أتيح للبروتستانت أن يشعروا بشئ من الراحة والأمان. بل لم يلبثوا بعدها أن اتجهوا إلى تنظيم صفوفهم بعض الشئ دون أن تكون هناك رابطة بينهم. ومن ثم أخذت الجمعيات التبشيرية تظهر إلى الوجود وكانت بريطانيا أسرع الدول إلى تنظيم هذا النشاط حين أصدر البرلمان قرارًا فى سنة ١٦٤٩ بإنشاء (هيئة نشر المسيحية فى إنجلترا الجديدة) ومن الواضح أن نشاطها كان متجهًا أكثر ما يكون إلى الدنيا الجديدة. لم يلبث بعدها أن دب النشاط فى جميع دوائر البروتستانت لمواجهة خطر ازدياد النوادى والجمعيات الإلحادية، فكان أن اتجه النشاط إلى وجوب التبشير بالمسيحية لا بين المواطنين أو سكان البلاد الإنجليزية فحسب، بل إلى كل من لا يعتقد فيها فى الخارج[clxxx].

وقد شهد القرن الثامن عشر نشاطًا دينيًا ملحوظًا. وهذه الجمعيات نظرت إلى الدين نظرة مختلفة عن تلك التى نظرتها إليه الجمعيات الكاثوليكية مثل اليسوعيين. فقد اتجهت هذه الجمعيات الكاثوليكية إلى نشر مذهب النسك والفقر من أجل طلب ملكوت السموات، بينما أعلنت الجمعيات البروتستانية أن هذا الفقر ليس مقدسًا، كما أن فقر الناس لم يكن ضربة عقابًا على ما ارتكبوه أو ارتكبه أسلافهم، كما أن الله لم يكتب الفقر على إنسان ما، بل إن الفقر طريق الخطيئة. فاتجه همها إلى مقاومة الفقر ورفع المستوى الاجتماعى للطبقات الفقيرة عن طريق التنمية الاقتصادية للفرد، بإتاحة الفرص له سواء بفتح الحوانيت أو تدريبه فى المصنع أو مكاتب الحسابات من أجل تأهيله لمركز أرفع، كما اتجهت إلى خدمة الأطفال والمرضى والمساجين والرقيق وجميع هؤلاء الذين لا تمكنهم ظروفهم من الاهتمام العاجل بأنفسهم. فكانت جماعة الميثودست التى تألفت فى سنة ١٧٨٧ أولى الجماعات البروتستانتية التى تعمل فى هذا الميدان الجديد، وبادرت من أجل ذلك إلى إرسال الجماعات التبشيرية إلى الخارج[clxxxi]. وفى سنة ١٧٩٥ تألفت جمعية لندن التبشيرية بمعاونة التجار فى لندن، وبدأت عملها فى الهند والصين ثم امتدت إلى كل مكان آخر من العالم تمتد إليه التجارة البريطانية. وكان من الواضح أن هدف التجار من هذا التعضيد إنما هو مساعدة الجماعة على رفع المستوى الاجتماعى فى البلاد المزدحمة بالسكان من أجل إيجاد مزيد من المستهلكين للبضاعة البريطانية، ولم تلبث هذه الجمعية أن حولت بعض نشاطها إلى أفريقيا، لاسيما بعد أن وجه المستكشفون الذين اتجهوا إلى هذه القارة نشاط رجال الدين إلى بذل بعض الجهد فى هذه القارة الواسعة. خاصة بعد قيام الحروب النابليونية التى وجهت أنظار البريطانيين إلى قارة إفريقيا حين استولى الأسطول البريطانى على مستعمرة الرأس نتيجة لانضمام هولندا إلى جانب فرنسا فى هذه الحرب، وكان إرسال دافيد لفنجستون إلى قارة إفريقيا مظهرًا من مظاهر التفات هذه الجمعية إلى إفريقيا. كما أصبح بعد ذلك سببًا فى توجيه مزيد من النشاط التبشيرى إلى هذه القارة. فقد ذهب إلى إفريقيا أكثر من مرة وعاد إلى أوروبا أكثر من مرة، ولقى فى كل مرة من مرات عودته ترحيبًا حارًا من مختلف الأوساط، وألقى أكثر من محاضرة دعا فيها إلى الحد فى إلغاء تجارة الرقيق بعد أن رأى فظائع هذه التجارة، ورأى أن أفضل وسيلة لذلك هى نشر الدين المسيحيى بين سكان هذه القارة لكسب صداقتهم، وكذلك إحلال تجارة مشروعة مكان هذه التجارة غير المشروعة[clxxxii]. ولذا بذل غاية الجهد فى رحلاته الأخيرة إلى فتح طريق التجارة عبر القارة الإفريقية إلى قبائل الماشونا والماتابيلى التى كانت تسكن وسط النصف الجنوبى للقارة دون أن تعرف طريق الوصول إلى البحار الخارجية. ولقيت دعوته هذه صدى قويًا وترحيبًا حارًا كما أن وفاته مجهولاً فى وسط الإفريقيين أوجدت بين جميع الطبقات شعورًا قويًا بوجوب العمل على تنفيذ رسالته، فتألفت أكثر من جمعية تبشيرية من أجل التبشير بالمسيحية فى هذه الجهات التى اكتشفها لفنجستون، كان من بينها بعثة الجامعات التبشيرية إلى وسط أفريقيا، لم تلبث أن أنشأت لها أول مركز تبشيرى عند الزمبيزى فى سنة ١٨٦١، ولو أنه انتهى بفاجعة إلا أن هذا الجهد

استؤنف فى سرعة وعزم، واتخذت لها مركزًا جديدًا فى نياسالاند. وكذلك جمعية الكنائس الإسكتلندية التى بدأت العمل فى نياسالاند أيضًا فى سنة ١٨٧٤ ثم جمعية الكنيسة التبشيرية التى بدأت نشاطها فى منطقة بحيرة تنجانيقا، لاسيما بعد أن حصلت على وعد بمساعدات مالية مستمرة من شركة البحيرات الإفريقية كما اتجهت هذه الجمعية أيضًا إلى مزاولة نشاطها فى أوغندا حيث استقبلها الملك متيسا ملك بوجندا بالترحاب. كما وجهت جمعية لندن نشاطها من جديد إلى روديسيا الجنوبية وأسست مركزًا جديدًا فى لنيانتى فى سنة ١٨٩٥. ولم تتملك هذه النزعة البريطانيين وحدهم بل جارهم الفرنسيون حين أسسوا جمعية باريس التبشيرية فى سنة ١٨٢٨ لتباشر نشاطها فى المستعمرات الفرنسية فى الدنيا الجديدة بمعونة ملوك فرنسا من البوربون، ولم تلبث أن وجهت نشاطها إلى أراضى الباسوتولاند والباروتسى لاند فى جنوب إفريقيا، وجاء دور الهولنديين ليؤسسوا الكنائس الهولندية الإصلاحية يؤيدهم البوير من سكان جنوب إفريقيا. وكان هذا النشاط البروتستانتى دافعًا لأن يعود إلى الكاثوليك نشاطهم السابق ويوجهوا جهدهم إلى هذا الميدان الذى كان فى الأصل وقفًا عليهم، فتألفت جماعة الآباء البيض فى سنة ١٨٦٨ بإرشاد الكردينال الذى دعا إلى النشاط الفرنسى فى ميدان الاستعمار. وبدأت عملها فى الشمال الأفريقى، ثم فى روديسيا الشمالية وكانت حماسة الآباء الكاثوليك فى كندا أكثر مشجع لهؤلاء الآباء فى عملهم. حتى انتهى أمر هذا التنافس الكاثوليكى البروتستانتى إلى اقتسام الحقل الإفريقى بين أكثر من بعثة[clxxxiii].

ثالثًا- الفئات التى تولت النشاط التنصيرى

كان الناس، منذ القدم، على دين ملوكهم، فالعقيدة المستحدثة تنال الحظوة ويعتنقها الناس إذا باركها الملك أو الإمبراطور وتنصب عليها اللعنة وتنزل بأصحابها المحنة إذا أعرض عنها صاحب العرش والصولجان، ولقد كان انتشار المسيحية، وانكماشها، فى عصورها الأولى متسقًا مع هذه الحقيقة التاريخية، فلما استتب لها الأمر فى أوروبا إذ تربع على عروشها حكام يتخذون الصليب رمزًا وشعارًا، عمل دعاة العقيدة المتحمسون على اتخاذ هؤلاء الحكام أداة لفرض المسيحية بالقوة على "الضالين" من سكان هذا الشرق العربى، وكان أن اشتعلت الحروب الصليبية واستمر أوارها نحو مائتى سنة، وختمت آخر فصولها - بالسيف - بارتداد الطغاة الأوروبية على أعقابهم منهزمين. على أن اتجاه الإرساليات إلى الأساليب الواقعية العلمية لم يجعلها تتجنب الأساليب القديمة التاريخية التى أشرنا إليها فى مبدأ هذا الحديث، فقد كانت أماهم قارة تعيش فى الماضى وتدين بالولاء المطلق للملك والزعيم وتحترم القوة وتعجب بها، ومن هنا جعل المبشرون - فى كثير من الأحيان - يتجهون إلى استمالة "الملوك" الأفريقيين ومن هم فى مقام الرياسة والزعامة كوسيلة نفاذة لجر رعاياهم وأتباعهم - دون جهد ومشقة - إلى حظيرة الإيمان بعقيدة التثليث[clxxxiv].

ومن الأمثلة على ما حدث فى هذا المجال، ما فعله الجنرال غوردون - الذى كان مبشرا متنكرا فى زى عسكرى - عندما ولاه إسماعيل إدارة مديريات السودان الجنوبى، وكان ملك أوغندا الملقب بالـ"كاباكا" قد شعر بأن جيرانه من السودان يتجهون إلى الاندماج فى دولة مسلمة هى مصر، وسمع عن الإسلام ما يجعله يود استطلاع هذا الدين السماوى تمهيدًا لاعتناقه أسوة بما يتوقعه عن جيرانه، فبعث إلى الحاكم الذى بعثت به مصر إلى تلك البقاع - وهو غوردون - يطلب بعض علماء الدين المسلمين لكى يتعرف على يديهم على مبادئ الإسلام، فما كان من غوردون إلا أن بعث إليه إرسالية تبشيرية استطاعت أن تستميله إلى جانبها، فتنصر، وتبعه من قومه خلق كثير، وأصبحت على رأس أوغندا أسرة مالكة مسيحية. وقد تكرر هذا العمل - على صورة معدلة - فى إقليم أفريقى آخر هو "رواندا أو رندى"، فإن هذه المنطقة التى كانت ملحقة بالكونغو البلجيكى تتولى الحكم فيها بالوراثة "أسرة مالكة" وإلى جانب "الملك" الذى هو الزعيم الروحى للأقليم مجلس أعلى يبلغ عدد أعضائه اثنين وثلاثين عضوًا، وقد كانت تعمل فى هذا الأقليم منذ أوائل القرن الحالى مجموعة من البعثات التبشيرية الكاثوليكية، ولم يكن حظها من النجاح بين السكان ملحوظًا، فما كان من إحدى تلك البعثات إلا أن اتجهت - منذ بضعة أعوام - إلى الطريق التقليدى السريع المأمون: اتجهت إلى "الملك" تحاول تمسيحه. ولكن "الملك" لم يكن ذا اهتمام فيما يبدو، بشئون الخلاص فى العالم الآخر. فأعرض عن الدعاة ولم يستجب لهم. ولم ييئس الدعوة فوجهوا جهودهم إلى أبناء "الملك" وهم خمسة، وإلى أعضاء المجلس الأعلى الاثنين والثلاثين، وفازت العقيدة هذه المرة إذ انضم إليها هؤلاء أجمعون، وسوف يتبعهم ولا ريب أفواج من الرعايا المعجبين المقلدين[clxxxv].

وفى عام ١٩٠٧ كانت إرسالية "آباء فيرونا" تعمل فى منطقة بحر الغزال فى السودان الجنوبى ولا تجرؤ على التقدم نحو منطقة الزاندى، فقد كانت قبائل الدينكا القاطنة نفسها فى بحر الغزال تخشى الاقتراب من تلك المنطقة المجاورة ذات الغابات الكثيفة التى يعمرها الأقزام الذين اشتهروا باسم "نيام نيام"، وعرف عنهم السحر إلى جانب اشتهائهم أكل لحوم البشر، وقد ظلت إرسالية "آباء فيرونا" فى مقرها بمدينة "واو" عاصمة بحر الغزال أعوامًا وهى تتطلع من بعيد إلى الزاندى، إلى أن جاء إلى الإرسالية رئيس مقدام هو الأب "فيريسين" وقد صمم الأب "فيريسين" على أن يغزو المنطقة المحرمة بالوسيلة التقليدية، فذهب مع الحاكم البريطانى المحلى إلى حيث تقابل مع الزعيم الأزاندى "ريكيتا" وقد بلغ من تألفه إياه أن اصطحب الأب "فيريسين" عند عودته إلى "واو" أحد أبناء الزعيم "ريكيتا" واسمه "رومبا" لتعليمه فى مدرسة الإرسالية، ولم يأت عام ١٩١٠ حتى كان أكثر أبناء زعماء الأزاندى يتلقون تعليمهم (الأولى) فى "واو" وبعد أن تخرج عدد منهم وعاد إلى بلاده تبعهم فرع من بعثة آباء فيرونا وأنشأ مدرسة إرسالية فى "موبوى" وتوالت بعد ذلك المدارس الكنسية فى تلك البقاع حتى أصبحت الآن وقفا على العقيدة الكاثوليكية لا ينازعها فيه منازع[clxxxvi].

ثم جاء دور القساوسة، فقد نزل القسس البيض الأوائل يبشرون برسالة السيد المسيح فى نطاق لاهوتى بحت، فكانوا يلقنون من يلقونه من السكان مبادئ العقيدة المسيحية ويعلمونه بعض طقوسها ويقنعون بأن يقلدهم الأهالى فيما يقولون ويفعلون. ولقد كانت البعثات التبشيرية الأولى، التى حطت رحالها على الشاطئ، تشعر بما يحيط بها من مظاهر العداء والبغضاء وخاصة أنها كانت تلازم - فى أذهان السكان - تلك القوى العسكرية الأجنبية الغازية المعتدية، فكان القسس يجدون الحماية والأمان فى كنف مواطنيهم من الغزاة وفى ظل ما أقاموه من حصون وقلاع[clxxxvii].

كما كانت البعثات التبشيرية البرتغالية التى حطت رحالها فى ساحل غينيا وفى أنجولا الزمبيزى الأدنى فى خلال القرن الرابع عشر الميلادى وفى أعقاب مغامرات البرنس "هنرى الملاح"، استطاعت أن تمارس أعمالها التبشيرية زهاء مائتى سنة، إلى أن اضمحلت قوى البرتغال البحرية، فاضمحلت تبعًا لذلك جهود تلك البعثات وعادت من حيث أتت ولم تجدد محاولاتها بعد ذلك إلا بعد مائتى سنة أخرى وفى حماية أساطيل أوروبية أخرى غير أساطيل البرتغال. ثم عادت البعثات التبشيرية إلى الظهور حول السواحل الأفريقية مع المحاولات الكشفية التى فتحت المنافذ أمام قوى الاستعمار، وكانت العودة مشوبة بالحذر والتوجس، فإنه لم تجرؤ بعثة على التوغل فى القارة قبل أن يرود لها الطريق أحد الكاشفين، وعندما بدأت البعثات تتحسس طريقها عبر الجبال والأدغال تبلورت أمامها المشكلات المتنوعة التى لم يكن يجدى فى حلها مجرد تلقين العقيدة وتدريب من يؤمن بها على أداء طقوسها. وفى هذه المرحلة بدأ التبشير على أسس مدروسة تواجه كل مشكلة بما يلائمها من علاج[clxxxviii].

رابعًا- أهم المشكلات التى واجهت الإرساليات التنصيرية والتغلب عليها

ولقد كان من أهم المشكلات التى واجهت الإرساليات وتطلبت مرونة وكياسة و فكر وتحديد أسلوب، تنوع القبائل الأفريقية وغرابة طباعها واختلاف أجناسها وتباعد أمزجتها وتقاليدها. فكان لابد للإرسالية أن تعامل كل قبيلة بما يلائمها من سلوك وحيلة واستجلاب مودة، وكان عليها قبل كل ذلك أن تتعلم لغة القوم حتى تأمن شرهم وتتسلل إلى عقولهم وقلوبهم. وإذا كانت الإرساليات قد صادفت فى هذا المجال حظًا عظيمًا من النجاح فإن التاريخ ليروى فصولاً عما أصابهم فى مواضع شتى، من فشل وإخفاق، ويتمثل هذا الإخفاق، فى ذروته لدى قبائل "الماساى" إلى الشرق من بحيرة فيكتوريا، فقد حدث منذ عهد قريب أن اغتاظ ساحر القبيلة من بعثة تبشيرية أقامت لها مركزًا هناك فأذاع - أى الساحر - بين أفراد القبيلة أن أكل لحوم الأناس البيض يعصم الإنسان من الموت ويشفيه من الأمراض كافة، وكانت النتيجة المفجعة أن تنافس المحاربون الأشداء من "الماساى" فى اصطياد المبشرين طمعا فى الصحة والعافية والتماسا لأسباب الخلود، ومن ضمن المشكلات التى واجهت المنصرين التمويل، فلقد كانت الإرسالية التنصيرية تأتى من النمسا أو هولندا أو بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا على نفقة الكنيسة أو الجمعية الدينية المتحمسة التى تنتمى إليها وكانت بعثات آباء فيرونا الإيطالية تستمد نفقاتها - بصفة رئيسية - من الفاتيكان، ولم يكن الإنفاق على البعثات - فى مراحل التبشير الأولى - أمرًا يشق على رعاتها من المتدينين الموسرين. ذلك أن أكثر أفراد تلك البعثات كانوا من الرهبان المتقشفين، كما أن مهمتهم فى أوائل الأمر لم تكن لتتجاوز تعليم الشعائر الدينية وما يتصل بها من تلقين لاهوتى وكانت البعثة تحط رحالها فى تنجانيقا أو الكاميرون أو سيراليون فما تزيد احتياجاتها عن أكواخ للسكن وساحة واسعة ممهدة يقام فى نهايتها محراب للعبادة. ولما كانت الجمعيات التنصيرية الكبرى

فى أوروبا قد أنشأت معاهد تدريبية خاصة (فى فينا وباريس والفاتيكان ولاهاى وغيرها..) فإن المبشرين لم يجدوا مصاعب تذكر فى تدبير شئون حياتهم المادية المحدودة الموسومة بالكفاح ونكران الذات، ولكن الإرساليات، بعد أن ثبتت أقدامها على السواحل وأخذت تتوغل فى القارة وتبتعد عن قواعدها لم تجد بدًا من أداء خدمات مادية ومعنوية لهؤلاء الأقوام. ومن هنا نشأت الحاجة إلى إنشاء المدارس وإلى الخدمات الطبية وهذا يحتاج إلى تمويل إضافى قد يثقل على كاهل الجمعيات الدينية الممولة لها فى أوروبا[clxxxix].

ولقد ظهر ذكاء بعض الإرساليات عن حل عملى بارع لهذه المشكلات الجديدة، فقد كانوا ينشئون المدرسة ويمهدون إلى جوارها حقوقًا للزراعة، وكانوا يلقنون التلاميذ تعاليمهم ومبادئ القراءة والكتابة فترة قصيرة من اليوم، وينفقون باقى يومهم، هم وتلاميذهم، فى زراعة الحقول حبوبًا وبقولاً وفاكهة، وقد استدعت هذا الخطة البارعة أن تقوم مراكز أعداد المبشرين فى أوروبا بتدريب طلابها من القسس المتطوعين للتبشير على مختلف الصناعات اليدوية الضرورية للإنشاء والتعمير حتى لا يضطروا للانفاق ولا يحتاجوا إلى عمال مأجورين، وقد برع أفراد البعثات الكاثوليكية على وجه الخصوص فى هذا الميدان، والمسافر حذاء النيل إلى الجنوب من مدينة جوبا يصادف على مقربة من جبل رجاف كاتدرائية ضخمة حجرية ذات أبراج، فإذا سأل عمن شيدها قيل له: ثلاثة من الرهبان الإيطاليين، كان أحدهم بناء والثانى نجاراً والثالث كهربيًا، وقد ظلوا ثلاثين عامًا يعملون متساندين ويستعينون فى نقل الحجر والبلاط بالأتباع السذج من قبائل الباريا حتى أكملوا هذه القلعة الشامخة النادرة المثال.

ولقد استطاعت الإرساليات بالإنتاج الزراعى واتقان الصناعة أن تحصل على أكثر ما تريده من مال، فتوسعت فى إنشاء المدارس، وخاصة ما يسمى منها "مدارس الغابة" وأصبح لها مورد تستطيع أن تنفق من بعضه للدواء والعلاج، ولا حاجة للقول بأن أكثر القسس قد تدربوا فى مراكز التبشير على وسائل الإسعاف الأولية وطرق الوقاية وكبح جماح بعض الأمراض الاستوائية المعروفة كالملاريا وغيرها من الحميات، وهذه التطورات فى أساليب التنصير التنظيمية حدثت - على وجه محسوس - منذ أوائل القرن العشرين، وفى فترة كانت الإرساليات تنال حماية السلطات الأوروبية الاستعمارية الحاكمة فى المستعمرات الأفريقية وتعضيدها، ولكن الحماية والتعضيد كانت مقصورة فى مبدأ الأمر على تعزيز مكانة الإرساليات بين الأهالى وحفظ أرواح أفرادها من الاعتداء ومنحهم بعض الامتيازات فى السفر والترخيص لهم فى "الاستيلاء" على الأراضى اللازمة لمنشآتهم. أما المعونة المالية فلم يكن إليها سبيل، ذلك أن تلك السلطات الاستعمارية الحاكمة لم تكن قد نظمت بعد أجهزتها الإدارية التى تستدر بها أموال السكان على هيئة ضرائب أو مكوس أو غرامات، فلما تقدم الزمن بالإرساليات وبالحكومات الإدارية الاستعمارية أخذت تلك الحكومات تمد الإرساليات بالإعانات، وكانت الحجة البارعة الخادعة فى ذلك، أن الإرساليات تؤدى للسكان خدمات كان ينبغى أن تؤديها الحكومة، ولكن الحكومة لم تفعل، فأصبح من الواجب لم يؤدى تلك الخدمات أن يؤجر[cxc].

خامسًا- وسائل الإرساليات التنصيرية

نجح التبشير فى أن يستخدم السلاح العقلى وهو التعليم والسلاح الجسمى وهو الطب ثم تلفت إلى سلاح آخر لعله أشد نفاذًا فى البيئات الفطرية ألا وهو الفن الجميل، ولقد سلك التبشير - كعادته - الطريق التدريجى لبلوغ أهدافه فبدأ بالصناعات اليدوية، وأخذت الإرساليات تخصص فى مدارسها أوقاتًا وجهدا لكى يتقن التلاميذ النجارة والحياكة والبناء والحدادة وتطريز المنسوجات ثم التماثيل الخشبية والعاجية والفخارية، وقد كان هذا الاتجاه جديرًا بأن يقابل بالترحاب من لدن الطلاب إذ هو يرضى فيهم النزعة العملية الإيجابية ويشبع حاسة الخلق الفنى، كما كان - أى هذا الاتجاه - مصدر خير كثير وأرباح مستفيضة تضاف إلى موارد الإرساليات الأخذة فى الازدياد[cxci].

وإلى جانب الفنون العملية اتجهت بعض الإرساليات إلى الفنون المسرحية، فقد استحدث لافارنين - فى الكونغو البلجيكى - مسرح "أراجوز" متنقلاً، وطلب إلى مساعديه استلهام موضوعات أفريقية محلية، ومزجها بأفكار دينية كاثوليكية وأجراها على ألسنة شخصيات "الأراجوز" وقد صادف هذا المسرح المتنقل نجاحًا عظيمًا حيث كان يعرض فى المدارس والكنائس على السواء. وقد امتد النشاط التبشيرى بعد ذلك إلى عالم الأفلام السينمائية ولما كانت موارد الجمعيات التبشيرية لا تطيق انتاج أفلام سينمائية حافلة فقد كانت تبذل وسعها فى استنهاض شركات الأفلام الكبرى فى أمريكا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا لتخرج أفلامًا دينية مسيحية أو أفلامًا تدور حوادثها فى أفريقيا وينهض بأدوارها ممثلون "ملونون" وقد

ظهرت فى العامين الأخيرين ثلاثة أفلام صورت كلها فى أفريقيا بمعونة وتعضيد الهيئات التنبشيرية وهذه الأفلام هى:

- "الفلاحون السود"، وهو فيلم فرنسى يصور "بطولة" الأفريقى الكادح" "القانع" الذى يحصر تفكيره فى أرضه، ويحصر آماله فى "ملكوت السماء".
- طبيعة الأدغال، وهو فيلم إنجليزى يروى قصة طبيبة إنجليزية كانت تعرض حياتها للخطر لكى تنقذ الأفريقيين المساكين.
- "رسول الصحراء"، وهو فيلم إيطالى تجرى حوادثه فى بلاد الحبشة، فى القرن الثامن عشر، وهو يدور حول شخصية تبشيرية شهيرة هى شخصية الكاردينال "مارساريه" الإيطالى الذى قصد إلى أثيوبيا أيام الإمبراطور منليك الأول وكانت الكاثوليكية فى ذلك الحين تذوى وتضمحل بين الأحباش فاستطاع الكاردينال أن يكتسب صداقة الإمبراطور الذى أضفى عليه حمايته وما لبث المذهب الكاثوليكى أن بعث من جديد فى تلك الأصقاع. ولئن قصرت إمكانيات الإرساليات عن إنتاج أفلام كبيرة لحسابها - أن بعض البعثات - فى رواندا - قد استطاعت بمواردها الخاصة إخراج أفلام قصيرة بعضها تراجيدى وبعضها كوميدى، ويقوم بالتمثيل فيها بعض الأهالى وتلاميذ المدارس، مما يدعو السكان إلى التوافد لرؤيتها من مسافات بعيدة[cxcii].

وقد شجع الإرساليات فى التغلغل إلى المناطق الداخلية البعيدة.. شجع كثيراً من رجال الأعمال الأوروبيين والأمريكيين على الاستفادة بخبرتهم لتصريف البضائع والمصنوعات الأجنبية والترويج لها بين السكان فى الأماكن البعيدة النائية، وذلك عن طريق تدريب بعض تلاميذ الإرساليات على أعمال العارض المتجول الذى يحمل "عينات" من السلع الصغيرة كأدوات الزينة والآلات الصغيرة والحلوى بألوانها المختلفة، والطواف بها - على دراجات - إلى مسافات بعيدة بين الغابات والأدغال، أما فى المدن، فقد خصصت الإرساليات بعض المدارس الوسطى التى يتعلم فيها الطلبة مبادئ المحاسبة مسك الدفاتر والكتابة على الآلة الكاتبة مما يؤهلهم لشغل أكثر الوظائف الحسابية والكتابية والإدارية فى البنوك والمحال التجارية[cxciii].

وتاريخ التبشير ليفصح فى جلاء عن روح الفرقة والتنابذ التى سادت علاقة الإرساليات المختلفة المذاهب بعضها ببعض، ولقد كانت السلطات الاستعمارية الحاكمة تقسم الأقاليم الخاضعة لها إلى "مناطق نفوذ" دينية، وكان نفوذ الإرسالية يتأثر إلى حد كبير بنوع الصلة بين الدولة التى تنتمى إليها الإرسالية والدولة التى تحكم الإقليم، ومن المعلوم أن الكاثوليك يعتقدون أنهم - وحدهم - مسيحيون، وأن من عداهم من البشر ضالون منحرفون أو هراطقة زنادقة، ولهذا فقد كانت الإرسالية الكاثوليكية - وما تزال - تعتبر سجنا عقليا بالنسبة لأتباعها والطلاب فى مدارسها فهم يحرمون على الإتباع التزاوج حتى من المذاهب المسيحية الأخرى، وهم يحرمون على الطلاب التعرف والاختلاط بغير الكاثوليك، وهم لا يأذنون بمناقشة مبادئهم، ومع كل هذا فإن الإرساليات الكاثوليكية قد عمدت مؤخرًا إلى تنسيق جهودها مع البعثات البروتستنتية المتنوعة واتخذ هذا التعاون مظاهر شتى، كان من بينها توحيد خطط التعامل مع حكومات المستعمرات و"التأقلم" حسب الظروف والأحوال، فإن الإرساليات المختلفة تتعامل - مالياً - مع تلك الحكومات معاملة موحدة وهى فى وضع برامج التعليم فى مدارسها تقرر مناهج تتضمن مواد دراسية متقاربة، وعندما وضح فى الأفق فى عام ١٩٥٤ أن السودان عائد إلى أيدى أبنائه وأن مصيره فى يد الأكثرية "العرب" بدأ جميع قسس الإرساليات الكاثوليك وغيرهم، فى تعلم اللغة العربية ونظموا بعثات دورية منهم لتعلم هذه اللغة فى "بيروت"، وحينما تولت الحكومة الوطنية بالفعل مقاليد الأمر فى البلاد تقدمت الإرساليات المتنوعة بمشروعات موحدة، للتعاون مع الحكومة وضع جهودها فى خدمة الحكم الوطنى، ولقد كان من نتائج هذا الشعور القديم بالمصلحة المشتركة والخطر المشترك، أن اتفقت كبريات الجمعيات المسئولة عن التنصير مع الفاتيكان على عقد مؤتمرات تنصيرية عامة فى فترات متقاربة للتشاور وعرض الجهود ودراسة الأخطاء وتقدير النتائج وتعديل الخطط وسد الثغرات.. إلى آخر مظاهر التعاون المنسق. وقد كان ذلك يستتبع العمل على أسس عملية دقيقة منظمة حتى تستطيع كل إرسالية أن تقدم صورة واضحة لأعمالها ونتائج جهودها[cxciv].

ولما كانت حركة التنصير الضخمة المترامية الأطراف تستدعى سفر عدد كبير من القسس من مختلف الأجناس إلى أفريقيا وغيرها، كما تستدعى عودة بعضهم للتقاعد أو الراحة أو العلاج أو لمواصلة التدريب فى المراكز التبشيرية فى أوربا، فقد أنشأت تلك المراكز "مكاتب سياحية، خاصة لخدمة المنصرين، وقد كان من مظاهر التبشير الجماعى إصدار صحف ومجلات تلتقى على صفحاتها أنباؤهم المتباعدة وتعرض المشاكل لمناقشتها ومحاولة الوصول إلى علاج لها. ومنها مجلات بلغت درجة رفيعة من الإخراج المنمق وغزارة المادة، نذكر منها على سبيل المثال ثلاث مجلات أحداهما بالإيطالية أسمها **Africa** والثانية فرنسية واسمها **Miss** والثالثة إنجليزية واسمها **African Challenge**[cxcv].

ثم أخذت الإرساليات على عاتقها إنشاء فروع للنشاط التنصيرى الكاثوليكى فى بعض الأسقفيات بأفريقيا مثل أسقفية "كوانجو" فى الكونغو البلجيكى حيث أوجدوا بها نحو مائة مركز تنصيرى، وفى كل مركز مدرسة أولية للبنين، وأخرى للبنات، وأغلب هذه المدارس مزودة بفصول عملية لتدريب الطلبة على أعمال البناء، والنجارة، والحياكة، وصباغة الجلود، وصنع التماثيل. كما تأسس فى كل مركز هيئة دينية تتولى شئون تعليم البنات حيث يتعلمن إلى جانب المواد الدراسية النظرية فن الطهو والتدبير المنزلى، وهذا الهيئة الدينية النسوية هى التى تدير أيضًا شئون المصحات ومستشفيات الولادة[cxcvi].

لجأ المبشرون منذ عشرات السنين إلى تعليم الأفريقين إلى مستوى محدد، لأغراض شتى منها تنوير أذهانهم بحيث تتقبل المبادئ المسيحية ذات المثل العليا التى تسمو على العقول الفطرية.

ولكن تنوير الأذهان لم يفتح السبيل أمام تلك المبادئ الدينية وحدها، وإنما ترك الفرصة لهذه الأذهان لكى تفكر وتقارن وتناقش وتستخلص لنفسها النتائج، وقد بدأت أولى خطوات هذه العمليات العقلية فى مدارس الإرساليات التى تزايد عددها بشكل كبير وكنائسهم نفسها، وكان من أغراض التعليم لدى المبشرين أعداد شمامسة وقساوسة من الأفريقيين يضمون جهودهم إلى جهود أساتذتهم من الأوروبيين والأمريكيين ولكن النتيجة لم تكن على الدوام محققة للآمال، فإلى جانب النجاح - بالنسبة للمبشرين البيض فى تخريج عدد محدود، نشأت فى أنحاء متفرقة من القارة تيارات مسيحية الظاهر وثنية الباطن، بل نشأت "كنائس" لها مذاهب جديدة تعتبر فى نظر المعتدلين من المسيحيين انحرافًا خطيرًا وتعتبر - فى نظر الكاثوليك - هرطقة والحادًا. ومن هذه "التيارات الجوفية" ما أشارت إليه صحيفة "عبادان" النيجيرية (فى شهر يونيو سنة ١٩٥٣) من أن نقابة سائقى السيارات فى لاجوس (وأكثر زعمائها من خريجى المدارس الإرسالية) قد احتفلوا بعيد "إله الحديد" وذبحوا له الضحايا من الكباش والأرانب وأقاموا له الصلوات لكى يجنبهم الكوارث والحوادث. ومن تلك المذاهب الكنسية المستحدثة مذهب "الكنيسة القومية الأفريقية" (فى الروديسيات وبعض أنحاء جنوب أفريقيا)، ويقوم هذا المذهب على أن رسالة المسيحية فى أفريقيا هى التعريف بالسيد المسيح ونشر التعليم، وأنه ليس من رسالتها أن تفرض على الأفريقيين أساليب الحياة الأوروبية العقيمة، كأسلوب الأكتفاء بزوجة واحدة مما لا يقوم على نص صريح فى الإنجيل[cxcvii]، وفى كينيا قام أحد تلاميذ إرسالية "أصدقاء أفريقيا" عام ١٩٤٣ بإنشاء مذهب أسماه "أرواح الموتى" واتخذ شعارًا له الصليب والطبلة، وفى عام ١٩٥٠ اتهمت السلطات البريطانية فى كينيا أتباع الرسول الجديد واسمه "الياماسيندى" بقتل ثلاثة من الشرطة البيض، وصدر الأمر بنفى "الرسول" إلى حدود كينيا الشمالية، وكلن "جومو كينياتا" - على زعم السلطات الحاكمة فى كينيا - قد حمل الراية من بعده وأورث مبادئ "أرواح الموتى" جماعة الماو ماو، وإذا كان التعليم قد استبان أنه سلاح ذو حدين فقد أضيفت إليه مشكلة أبدية لم يحسب التبشير الأجنبى - فيما يبدو - حسابها، أو على الأقل لم يقدرها حق قدرها ألا وهى مشكلة اللون، ولقد دأب رسل التبشير على أن يلقنوا أتباعهم وطلابهم مبادئ "الأخوة البشرية" ولكن مشكلة "اللون" العميقة الجذور فى العقل الباطن لم يمكن اقتلاعها أو الإضعاف من حدتها، وظل الرجل الأبيض - فى ذاته - مشكلة. ذلك أن الزنجى الذى يعتنق المسيحية ليس فى وسعه أن يتصور الرب والعائلة المقدسة والملائكة على أنهم "سود" فى مثل لونه هو، ولا يسعه إلا أن يتصور "الشيطان" على العكس من ذلك: أبيض اللون، فإذا انتقل الأفريقى من هذه التصورات الفطرية إلى مجال التفكير نشأت مشكلة أخرى هى مشكلة العقلية الأفريقية التى تبنى أحكامها على تجارب مستمدة من أرض أفريقيا وهوائها وسمائها وغاياتها ووحوشها وأنهارها[cxcviii].

سادساً- النشاط التنصيرى بالصومال

لقد كان لظهور الطرق الصوفية فى الصومال منذ عام ١٧٥٠ على أيدى شيوخ عظماء أثر فى مناهضة الحركة التبشيرية المسيحية وتحذير المسلمين منها، والدعوة إلى الجهاد باسم الإسلام ونشر تعاليمه ، فقد أقاموا المدارس والكتاتيب والمساجد لتحفيظ القرآن الكريم وتفسير آياته، وقام أصحاب الطرق الصوفية فى الصومال بالدعوة إلى التمسك بالدين وبالأخلاق السامية الإسلامية، والتعاون الأخوى وحببوا إلى مريديهم التضحية بالنفس والمال فى سبيل الدين والعقيدة فاحتلوا بذلك مكانة عظيمة عند تلاميذهم.. وكانت أوامرهم ومذاهبهم موضع الامتثال والتقدير وكانت حياة الإمام أحمد الجرى الصومالى صورة صادقة للدعوة إلى الإسلام وتدعيمها والقضاء على الحروب الصليبية التى شنتها الحبشة والبرتغال ضد الصومال الإسلامية فى القرن السادس عشر.

و فى السيد عبدالله حسن الثائر الصومالى مثل طيب فى تدعيم الإسلام ومناهضة التبشير المسيحى والاستعمار بمختلف ألوانه وأشكاله فى العصر الحديث، وظهر من بين المتصوفين بعض ذوى النقوس الضعيفة الذين اتخذوا من الصوفية وسيلة إلى استغلال الناس وابتزاز أموالهم، فمنهم من فرض الأتاوات، واشبع شهواته، وعمل على جمع الأموال والنساء باسم الدين، والدين منه برئ ومنهم من كان متزوجًا بأربع زوجات وعنده من نساء السوق كثيرات، من أمثلة ذلك رجل يدعى سليمان من جنوب عروسى عند أعلى نهر جوبا وشبيلى.. يقول بتناسخ الأرواح، ويدعى أن الله أسقط عنه وعن أتباعه تكاليف الشريعة من صلاة وصيام وزكاة وحج، وأباح له الزواج بمن يشاء بدون عدد. ولكن مثل هذا ونحوه لا يجدون آذانًا صاغية فى الصومال بل يقوم الصوماليون بوحى من أنفسهم وبخاصة المتعلمون منهم، بالتنفير من دعوى هؤلاء بكل الوسائل[cxcix].

وليس القصد من وراء هذا البيان أن الطرق الصوفية فى الصومال تعانى مشاكل كثيرة، وإنما القصد الإشارة إلى بعض المشاكل، وهذا لا يمنع من أن القول بأن الصوفية فى الصومال لها الأيادى البيضاء فى كثير من شئون الصومال من مناهضة الرذائل ومحاربة التبشير المسيحى والاستعمار، ومن أمثلة هذا الوعى الإسلامى الصومالى ما نراه فى الإقليم الشمالى من الجمهورية الصومالية الذى حارب التبشير المسيحى فى البلاد، فقد حدث فى عام ١٨٩٧ حينما نزل جماعة من المبشرين فى البلاد وأقاموا مدرسة فى بربره تحت إشراف مبشر مسيحى وأخرى فى قرية ديمولى وعليها مبشر- مسيحى وقد حاول المبشران ومن معهما تحت الحماية البريطانية تحويل الناس عن عقائدهم الإسلامية عن طريق الإحسان وتوزيع الملابس والطعام والعلاج والماديات وغيرها من شتى وسائل الإغراء فاستطاعوا أن يجمعوا خمسين طفلاً من اللقطاء ومن الأيتام وحملوهم على الدخول إلى المسيحية وأدرك الصوفيون الخطر الداهم على الإسلام ومعتقداتهم من أعمال المبشرين، فبدأ الجهاد ضد المبشرين المسيحيين ومن معهم من رجال الحامية البريطانية، وقد تمكن الصوفيون من هدم مدرسة المبشر ديمولى الذى هرب بنفسه إلى زميله فى مدرسة بربره التى كانت تحت حماية القاعدة البريطانية فى بربره، وكانت الشرارة الأولى فى الكفاح الشعبى المقدس حينما أطلق المبشر المسيحى فى بربره رصاصة على مؤذن المسجد القريب من منزله بحجة أنه يؤذن لصلاة الفجر ويزعجه من نومه، وإن كانت الرصاصة لم تصب المؤذن بالقتل إلا أنها أوجدت فى قلوب الصوماليين انفجارًا نفسيًا كبيراً، وبدأ الكفاح من أجل العقيدة والحرية والكرامة وقادهم فى الكفاح الزعيم الوطنى السيد محمد عبدالله حسن. فأدرك البريطانيون خطورة الموقف فسمحوا للمبشرين ومن معهم من الأطفال بالهروب إلى عدن تحت حراسة السفن البريطانية، حفظا للأمن وتحقيقًا لرغبات الشعب الصومالى المسلم، وحفظا للمصالح البريطانية فى الإقليم الشمالى من أن تنهار، فقد أصدرت الحكومة البريطانية مذكرة إلى شعب الصومال أذاعتها السلطات الاستعمارية فى هرجيسة، وهى تحتوى على ضرورة خروج المبشرين من أى جنس بصفة عامة، وعدم السماح لهم بعد ذلك بدخول البلاد أو بناء كنيسة أو أديرة فى البلاد كلها، وعدم فتح محلات للخمور أو السماح بتعاطى الخمور. وتعهدت بريطانيا بتنفيذ مضمون هذه النقاط السابقة لما فيها من مصالح للشعب ولبريطانيا.. وقد استمر هذا التعهد سائر المفعول حتى عام ١٩٥٠ حينما أنشئت كنيسة صغيرة للجنود والضباط البريطانيين فى داخل المعسكر كما فتحت خمارة صغيرة فى هرجيسة للأجانب[cc].

ولا يقل جهاد المتصوفين فى الإقليم الجنوبى عن إخوانهم فى الإقليم الشمالى، فلم يعرف الإقليم الجنوبى المنصرين إلا حينما تعرضت البلاد للاستعمار الإيطالى، وكان المبشرون يجدون مقاومة شديدة من الصوفيين والشعب الصومالى المسلم، وفى خلال فترة الوصاية الإيطالية على صوماليا حرضت الإدارة الإيطالية بعض الإرساليات المسحية على إيجاد مناطق للتبشير فى صوماليا وإنشاء مدارس وملاجئ، وإن كان هذه

الإرساليات قد نشأت تحت إدارة وحماية الإيطاليين على أن تضم عددًا من اللقطاء والأبناء غير الشرعيين وحولتهم إلى المسيحية، كما وجدت فى الإدارة خير مساند لها للقيام بأعمالها بصفة شرعية إذ أصدرت الإدارة قانونًا يسمح للهيئات التبشيرية أن تقوم بأعمالها تحت شعار الحرية الدينية للجميع، وقد ظهر صراع جديد بين المنصرين وبين الشعب الصومالى حينما ظهر التبشير المسيحى على يد المبشرين الأمريكيين فى أثر الضغط الاقتصادى ومع النقطة الرابعة وشركات البحث عن البترول والخبراء وكتب الدعاية الأمريكية وغيرها. وكانت البعثة الأولى برياسة المبشر الأمريكى القسيس ويلبرت لند البروتستنتى، والبعثة الثانية برياسة القس الأمريكى مورد يكروبد، وبدأ نشاطها فى مقديشيو عن طريق تدريس اللغة الإنجليزية، ثم تشويه معتقدات الطلاب، والإشارة إلى المسيحية كدين للمدينة. وأراد المنصرين أن يفتحوا مدارس للتبشير فى مهداى وجوهر، غير أن الشعب الصومالى فى تلك المناطق رفض السماح لهيئات التنصير الأمريكية أن تزاول عملها، وقاد حركة الكفاح ضد المبشرين الأمريكيين الشيخ الشريف محمود عبدالرحمن رئيس الرابطة الإسلامية الذى خطب فى جوهر ومهداى وحث المواطنين على مقاطعة التبشير الأمريكى ومناهضة الدخلاء[cci].

وحينما وجد المنصرون رفض السكان لإقامة مراكز التنصير اتجهوا إلى الإدارة الوصية بطلب السماح لهما بشراء قطعة أرض استنادًا إلى مادة من اتفاقية الوصاية التى وضعتها الأمم المتحدة بإشراف إيطاليا والتى تنص على حرية دخول بعثات التنصير ومباشرة نشاطها فى البلاد، وقد حولت الإدارة طلب المبشرين إلى الجمعية التشريعية الصومالية للموافقة عليه ولكن المشروع رفض بأغلبية ساحقة[ccii].

وقد ذكر الشهيد كمال الدين صلاح ملاحظتين على نشاط البعثات التنصيرية البروتستنتية الأمريكية.

الملاحظة الأولى: "إن كل البعثات التنصيرية والشركات والهيئات الأمريكية التى تعمل فى الصومال تخضع لإشراف ورياسة سفير الولايات المتحدة فى أديس أبابا الذى كان فى الأصل قسيسا من رجال التنصير.

أما الملاحظة الثانية: "فهى أن أماكن البعثات التنصيرية تتفق ومناطق البحث عن البترول مما يشير إلى أن عمل المبشرين يتعلق بخبراء شركات البترول"، ومن المؤسف أن البعثات التبشيرية الأمريكية استطاعت أن تشترى أرضا، وأن تقيم عليها مبانى ومراكز تبشير، وعلى أية حال فنشاطهما محدود للغاية، ويوجد فى الصومال إرسالية كاثوليكية من الإيطاليين عددها ١٣٥ عضوًا وتدير نحو عشرين مؤسسة فى مقديشيو من مدارس وملاجئ ومستشفيات ومطبعة ولها مراكز فى أفجوى، جوهر، بلدوين، بيدوا، مركه، بروه، جلب، دافيت، وكسمايو. والجدير بالاعتبار أنه منذ عام ١٩٥٢ أى منذ سمح لأساتذة مصريين وشيوخ من الأزهر الشريف بالعمل فى الصومال فى الحقل المدنى والتعليم الدينى، اتسعت المدارس الإسلامية والعربية حجما وعددا مما كان له الأثر الكبير فى أن تغلق هيئات التبشير أبوابها وترحل عن البلاد[cciii].

قائمة المراجع

- أحمد الخولى: الدولة الصفوية تاريخها السياسي والاجتماعى وعلاقاتها بالعثمانيين، الأنجلو، القاهرة، ١٩٨١.
- أحمد بشير: تاريخ الإسلام فى الفلبين، الدار العربية للطباعة والنشر، والتوزيع، بيروت، د.ت.
- أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، شبه القارة الهندية - بنجالاديش - إيران - بلاد ما وراء النهر، بخارى أو التركستان - أفغانستان - تركيا - دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩.
- آمال السبكى: تاريخ إيران السياسى بين ثورتين (١٩٠٦- ١٩٧٩)، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٥٠، الكويت، ١٩٩٩.
- جميل عبدالله المصرى: حاضر العالم الإسلامى وقضاياه المعاصرة، جـ٢، دار أم القرى، ١٩٨٩.
- حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة ١٩٨٧.
- حمدى السيد سالم: الصومال قديمًا وحديثًا، الجزء الأول، الدار القومية للطباعة والنشر، الصومال، د.ت.
- خليل عبدالحميد عبدالعال: تاريخ الشرق الأقصى الحديث والمعاصر دراسات وقراءات دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥.
- زاهر رياض: استعمار أفريقيا، الدار القومية للطباعة، والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.
- صفاء محمد صبرة، إقليم جامو وكشمير، دراسة اقتصادية واجتماعية وثقافية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٥.
- صلاح أحمد هريدى: أوربا فى مؤتمر فيينا حتى الحرب العالمية الثانية ١٨١٥ - ١٩٣٩، مكتبة بستان المعرفة كفر الدوار، ٢٠١٠.
- -----------: تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.
- عبدالعزيز سليمان نوار: الشعوب الإسلامية (الأتراك العثمانيون - الفرس، مسلمو الهند)، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩١.
- عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩.
- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية، نبيه أمين فارس، منير البعلبكى، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٤٨.
- كمال مظهر أحمد: دراسات فى تاريخ إيران الحديث والمعاصر، بغداد، ١٩٨٥.
- محمد حرب: البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى، سلسلة بلدان العالم الإسلامى رقم(١)، القاهرة، ١٩٩٣.
- محمد عبدالعزيز إسحاق: نهضة إفريقيا، تقديم د. عبدالملك عودة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١.
- محمود شاكر: التاريخ الإسلامى المعاصر. القارة الهندية (١٩٢٤- ١٩٩١م) وجنوب شرقى آسيا، وماليزيا، وإندونيسيا، مجلد رقم ١٩، ٢٠، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٢.

- مصطفى دسوقى كسبه: الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين، هدية مجلة الأزهر، ذى القعدة، ١٤١٥هـ.
- نويل مالكوم: البوسنة ترجمة/ عبدالعزيز توفيق جاويد، الألف كتاب الثانى، العدد (٢٧٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ترجمة/ عدنان محمود سليمان، مراجعة وتنقيح/ محمود الأنصارى، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، ١٩٨٨.

(i) أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، شبه القارة الهندية – بنجالاديش – إيران – بلاد ما وراء النهر، بخارى أو التركستان – أفغانستان – تركيا – دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩، ص٢٠– ٢٨.

(ii) حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة ١٩٨٧، ص٢٣٤.

(iii) عمر عبدالعزيز عمر: تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ص١٥٥، ١٥٦.

(iv) نفسه: ص١٥٦.

(v) جميل عبدالله المصرى: حاضر العالم الإسلامى وقضاياه المعاصرة، جـ٢، دار أم القرى، ١٩٨٩، ص٣٨٧– ٣٨٩.

(vi) عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص١٦١، ١٦٢.

(vii) جميل عبدالله المصرى: المرجع السابق، ص٣٨٩.

(viii) عبدالعزيز سليمان نوار: الشعوب الإسلامية (الأتراك العثمانيون – الفرس، مسلمو الهند، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩١، ص٥٠٨، ٥٠٩.

(ix) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٥١٠.

(x) عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص١٦٥.

(xi) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٢٥٧.

(xii) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٥١١؛ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٢٥٧.

(xiii) عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص١٦٧.

(xiv) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٥١٣– ٥١٤.

(xv) أحمد محمود الساداتى: المرجع السابق، ص٧٨، ٧٩.

(xvi) عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص١٧١.

(xvii) صلاح أحمد هريدى: تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠، ص٥٠.

(xviii) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٥١٥.

(xix) نفسه: ص١٧٥.

(xx) نفسه: ص١٧٦– ١٧٧.

(xxi) نفسه: ص٥١٦؛ صلاح هريدى: تاريخ الشعوب، ص٥٢.

(xxii) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٥١٧.

(xxiii) عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص١٧٢

(xxiv) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٥٢٤.

(xxv) عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص١٨٤– ١٨٥؛ السيد حسين جلال: تاريخ الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية ٢٠٠١، ص٩٢.

(xxvi) عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص١٨٦– ١٩٤.

(xxvii) السيد حسين جلال: المرجع السابق، ص٩٠.

(xxviii) صلاح أحمد هريدى: تاريخ الشعوب، ص٥٤، ٥٥.

(xxix) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٢٥٨.

(xxx) نفسه: ص٢٥٨.

(xxxi) صلاح أحمد هريدى: تاريخ الشعوب، ص٥٧، ٥٨.

(xxxii) حسين مؤنس: المرجع السابق، ص٢٥٩.

(xxxiii) صلاح أحمد هريدى: تاريخ الشعوب، ص٥٩، ٦٠.

(xxxiv) عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص٢٠٦– ٢٠٩.

([xxxv]) صلاح أحمد هريدى: تاريخ الشعوب، ص٦٠، ٦١.

([xxxvi]) أحمد محمود الساداتى: المرجع السابق، ص١١٦- ١١٧.

([xxxvii]) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٥٦٦- ٥٦٧.

([xxxviii]) عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص٢٢٥.

([xxxix]) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٥٦٩، ٥٧٠؛ عمر عبدالعزيز عمر: المرجع السابق، ص٢٣٠- ٢٣١.

([xl]) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٥٧٢.

([xli]) نفسه: ص٥٧٣- ٥٧٤.

([xlii]) السيد حسين جلال: المرجع السابق، ص١٢٤.

([xliii]) صفاء محمد صبرة، إقليم جامو وكشمير، دراسة اقتصادية واجتماعية وثقافية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٢١، ٢٢.

([xliv]) السيد حسين جلال: المرجع السابق، ص١٢٧.

([xlv]) نفسه: ص١٢٥.

([xlvi]) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٢١٣.

([xlvii]) نفسه: ص٢١٥- ٢١٦.

([xlviii]) نفسه: ص٢١٣- ٢١٨.

([xlix]) أحمد الخولى: الدولة الصفوية تاريخيها السياسي والاجتماعى علاقاتها بالعثمانيين، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٨١، ص٢٧، ٢٨، ٣٤، ٣٥.

([l]) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٢٢١- ٢٢٢.

([li]) نفسه: ص٢٢٢- ٢٢٣.

([lii]) نفسه: ص٢٢٤- ٢٢٥.

([liii]) نفسه: ص٢٢٥.

([liv]) نفسه: ص٢٢٦.

([lv]) نفسه: ص٢٢٧.

([lvi]) نفسه: ص٢٢٨- ٢٢٩.

([lvii]) نفسه: ص٢٣٠.

([lviii]) نفسه: ص٢٣١، ٢٣٢.

([lix]) نفسه: ص٢٣٢، ٢٣٣.

([lx]) نفسه: ص٢٣٤.

([lxi]) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية، بنبه أمين فارس، منير البعلبكى، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٤٨، ص٤٩٩.

([lxii]) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٢٣٦- ٢٣٧.

([lxiii]) نفسه، ص٢٣٧- ٢٣٩.

([lxiv]) نفسه: ص٢٤١- ٢٤٢.

([lxv]) نفسه: ص٢٣٨- ٢٤٢.

([lxvi]) كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص٥٠٠، ٥٠١.

([lxvii]) نفسه: ص٥٠١، ٥٠٢؛ عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٢٤٢، ٢٤٣.

([lxviii]) عبدالعزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص٢٤٦- ٢٤٧.

([lxix]) نفسه: ص٢٤٧- ٢٤٨.

([lxx]) نفسه: ص٢٤٨- ٢٥٠.

([lxxi]) كارل بروكلمان: المرجع السابق، ص٥٠٣، ٥٠٤.

([lxxii]) نفسه: ص٢٦٦.

([lxxiii]) نفسه: ص٢٦٧.

([lxxiv]) نفسه: ص٢٦٨- ٢٦٩.

([lxxv]) نفسه: ص٢٦٨- ٢٦٩.

([lxxvi]) كمال مظهر أحمد: دراسات فى تاريخ إيران الحديث والمعاصر، بغداد، ١٩٨٥، ص١١٤.

([lxxvii]) نفسه: ص١١٥.

([lxxviii]) نفسه: ص١١٦.

([lxxix]) آمال السبكى: تاريخ إيران السياسى بين ثورتين (١٩٠٦- ١٩٧٩)، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٥٠، الكويت، ١٩٩٩، ص٧٥- ٧٦.

([lxxx]) نفسه: ص٧٧.

([lxxxi]) نفسه، ص٧٧- ٧٩.

([lxxxii]) نفسه، ص٧٩، ٨٠.

([lxxxiii]) نفسه، ص٩٣، ٩٤.

([lxxxiv]) نفسه، ص٩٥.

([lxxxv]) كمال مظهر أحمد: المرجع السابق، ص١٦٠.

([lxxxvi]) نفسه: ص١٦١، ١٦٢.

([lxxxvii]) نفسه: ص١٦٣- ١٦٤.

([lxxxviii]) نفسه: ص١٦٥.

([lxxxix]) نفسه: ص١٦٦.

([xc]) نفسه: ص١٦٠- ١٦٨.

([xci]) أمال السبكى: المرجع السابق، ص١٥٦.

([xcii]) كمال مظهر: المرجع السابق، ص١٧٦، ١٧٧.

([xciii]) نفسه: ص١٨٣، ١٨٤.

([xciv]) نفسه: ص١٨٥.

([xcv]) نفسه: ص١٨٧، ١٨٨.

([xcvi]) نفسه: ص١٨٨، ١٨٩.

([xcvii]) نفسه، ١٨٩- ١٩٠.

([xcviii]) آمال السبكى: المرجع السابق، ص٢١٣.

([xcix]) نفسه: ص٢١٤، ٢١٥.

([c]) نفسه: ص٢١٦، ٢١٧.

([ci]) نفسه: ص٢١٩- ٢٢١.

([cii]) نفسه: ص٢٢١، ٢٢٢.

(ciii) نفسه: ص٢٢٣.

(civ) نفسه: ص٢٣٣، ٢٢٤.

(cv) نفسه: ص٢٢٦.

(cvi) نفسه: ص٢٣٣– ٢٣٥.

(cvii) خليل عبدالحميد عبدالعال: تاريخ الشرق الأقصى الحديث والمعاصر دراسات وقراءات دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥، ص٣٦٧، ٣٦٨.

(cviii) نفسه: ص٣٧٠.

(cix) نفسه: ص٣٧١.

(cx) نفسه: ص٣٧١– ٣٧٢.

(cxi) أحمد بشير: تاريخ الإسلام فى الفلبين، الدار العربية للطباعة والنشر، والتوزيع، بيروت، د.ت؛ خليل عبدالحميد عبدالعال: المرجـــع الســـابق، ص٣٧٢، ٣٧٣.

(cxii) خليل عبدالحميد عبدالعال: المرجع السابق، ص٣٧٤، ٣٧٥.

(cxiii) نفسه: ص٣٧٨، ٣٧٩.

(cxiv) نفسه ، ص٣٨٣.

(cxv) نفسه: ص٣٨٣– ٣٨٤.

(cxvi) نفسه: ص٣٨٥– ٣٨٦.

(cxvii) نفسه: ص٣٨٦، ٣٨٧.

(cxviii) نفسه: ص٣٨٧– ٣٩٨.

(cxix) نفسه: ص٣٩٠.

(cxx) نفسه: ص٣٩١.

(cxxi) نفسه: ص٣٩٣– ٣٩٤.

(cxxii) نفسه: ٣٩٤– ٣٩٥.

(cxxiii) نفسه: ص٣٩٥– ٣٩٦.

(cxxiv) نفسه: ص٣٩٧.

(cxxv) نفسه: ص٣٩٨– ٣٩٩.

(cxxvi) محمود شاكر: التاريخ الإسلامى المعاصر. القارة الهندية (١٩٢٤– ١٩٩١م) وجنوب شرقى آسيا، وماليزيا، وإندونيسيا، مجلد رقم ١٩، ٢٠، المكتـــب الإسلامى، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٠٦.

(cxxvii) السيد حسين جلال: المرجع السابق، ص١٩٥.

(cxxviii) نفسه: ص١٩٥– ١٩٦.

(cxxix) نفسه: ص١٩٧.

(cxxx) نفسه: ص١٩٨.

(cxxxi) نفسه: ص١٩٨– ١٩٩.

(cxxxii) نفسه: ص٢٠١– ٢٠٨.

(cxxxiii) نفسه: ص٢٠٩– ٢١٠.

(cxxxiv) مصطفى دسوقى كسبه: الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين، هدية مجلة الأزهر، ذى القعدة، ١٤١٥هـــ، ص٥٠، ٦٠.

(cxxxv) نفسه: ص٨٥، ٨٦.

(cxxxvi) نفسه: ص٨٦.

(cxxxvii) نفسه: ص٨٦.

(cxxxviii) نفسه: ص٨٧، ٨٨.

(cxxxix) نفسه: ص٨٩– ٩٠.

(cxl) نفسه: ص٩٥– ٩٦.

(cxli) نفسه: ص٩٦– ٩٧.

(cxlii) نفسه: ص١٠٠– ١٠١.

(cxliii) نفسه: ص١٠١– ١٠٢.

(cxliv) نفسه: ص١٠٣.

(cxlv) نفسه: ص١٧٥– ١٧٦.

(cxlvi) نفسه: ص١٧٧.

(cxlvii) نفسه: ص١٧٨– ١٧٩.

(cxlviii) نفسه: ص١٨٠– ١٨٢.

(cxlix) نفسه: ص١٨٤– ١٨٦.

(cl) نفسه: ص١٨٦– ١٨٧.

(cli) نفسه: ص١٨٨– ١٨٩.

(clii) نفسه: ص١٨٩– ١٩٠.

(cliii) نفسه: ص١٩٠– ١٩١.

(cliv) نفسه: ص٢٠٩– ٢١٠.

(clv) نفسه: ص٢١٠– ٢١١.

(clvi) محمد حرب: البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى، سلسلة بلدان العالم الإسلامى رقم (١)، القاهرة، ١٩٩٣، ص٩– ١٦.

(clvii) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ترجمة/ عدنان محمود سليمان، مراجعة وتنقيح/ محمود الأنصارى، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، ١٩٨٨، ص١١٧.

(clviii) نويل مالكوم: البوسنة ترجمة/ عبدالعزيز توفيق جاويد، الألف كتاب الثانى، العدد (٢٧٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص٧٧.

(clix) محمد حرب: المرجع السابق، ص٦٠ وما بعدها.

(clx) نفسه: ص٦٧، ٦٨.

(clxi) صلاح هريدى: تاريخ الشعوب، ص١٩٩؛ محمد حرب: المرجع السابق، ص٩٩.

(clxii) صلاح هريدى: تاريخ الشعوب، ص٢٠٠.

(clxiii) صلاح أحمد هريدى: أوربا فى مؤتمر فيينا حتى الحرب العالمية الثانية ١٨١٥ – ١٩٣٩، مكتبة بستان المعرفة كفر الدوار، ٢٠١٠، ص٣٠٧– ٣٠٨؛ نفس المؤلف، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٠١.

(clxiv) صلاح أحمد هريدى: تاريخ الشعوب، ص٢٠١، ٢٠٢.

(clxv) نفسه: ص٢٠٢، ٢٠٣.

(clxvi) نفسه: ص٢٠٣– ٢٠٤.

(clxvii) محمد حرب: المرجع السابق، ص٨١– ٨٣.

(clxviii) نويل مالكوم: المرجع السابق، ص٢٨٤– ٢٩٠.

(clxix) نفسه: ص٢٩٢.

(clxx) نفسه: ص٢٩٣– ٢٩٤.

(clxxi) نفسه: ص٢٩٥، ٢٩٦.

(clxxii) نفسه: ص٢٩٨– ٢٩٩.

(clxxiii) نفسه: ص٣٠٢.

(clxxiv) محمد عبدالعزيز إسحاق: نهضة إفريقيا، تقديم د. عبدالملك عودة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١، ص١٠٣.

(clxxv) نفسه: ص١٠٤.

(clxxvi) نفسه: ص١٠٤، ١٠٥.

(clxxvii) نفسه: ص١٠٨، ١٠٩.

(clxxviii) زاهر رياض: استعمار أفريقيا، الدار القومية للطباعة، والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص٩٩، ١٠٠.

(clxxix) نفسه: ص١٠١.

(clxxx) نفسه: ص١٠١، ١٠٢.

(clxxxi) نفسه: ص١٠٢.

(clxxxii) نفسه: ص١٠٢، ١٠٣.

(clxxxiii) نفسه: ص١٠٣، ١٠٤.

(clxxxiv) محمد عبدالعزيز إسحاق: المرجع السابق، ص١١٠.

(clxxxv) نفسه: ص١١٢.

(clxxxvi) نفسه: ص١١٢– ١١٣.

(clxxxvii) نفسه: ص١١٠.

(clxxxviii) نفسه: ص١١٠، ١١١.

(clxxxix) نفسه: ص١١٣، ١١٤.

(cxc) نفسه: ص١١٤، ١١٥.

(cxci) نفسه: ص١١٦، ١١٧.

(cxcii) نفسه: ص١١٧، ١١٨.

(cxciii) نفسه: ص١١٨، ١١٩.

(cxciv) نفسه: ص١٢١، ١٢٢.

(cxcv) نفسه: ص١٢٢، ١٢٣.

(cxcvi) نفسه: ص١٢٣.

(cxcvii) نفسه: ص١٢٧، ١٢٨.

(cxcviii) نفسه: ص١٢٨.

(cxcix) حمدى السيد سالم: الصومال قديماً وحديثًا، الجزء الأول، الدار القومية للطباعة والنشر، الصومال، د.ت، ص٤١٨.

(cc) نفسه: ص٤١٨، ٤١٩.

(cci) نفسه: ص٤٢٠.

(ccii) نفسه: ص٤٢٠، ٤٢١.

(cciii) نفسه: ص٤٢١.